في آفاق

الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية

هيثم الكيلاني

لكل دولة استراتيجية عسكرية خاصة بها ولكل استراتيجية عسكرية أسس تقوم عليها وتعتمدها في التخطيط والتنفيذ . وللاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية أسس خاصة بها اعتبرها المذهب العسكري الاسرائيلي ركائز لتلك الاستراتيجية ودعامات لها . وقد اشتقها مخططو المذهب وواضعو مبادئه من الواقع الراهن لاسرائيل ،ومن وضعها الجغرافي وامكاناتها البشرية والاقتصادية ، واحاطتها بالدول العربية ، ومن المقاومة العربية الفلسطينية ، والحصار المضروب حولها ، ومن الظروف الدولية السائدة .

- ١ -

الحرب الوقائية

ظهرت نظرية الحرب الوقائية بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت الولايات المتحدة الأميركية منفردة بامتلاك السلاح الذري .

وتقوم نظرية الحرب الوقائية على الفرضية التالية : عندما يملك أحد الخصمين قوة أو سلاحاً لايملكه الخصم الآخر ، فانه قد يلجأ الى استباق المعركة للقضاء على قوة خصمه .

ويمكن تعريف الحرب الوقائية بأنها الهجوم المدبر من دولة على دولة أخرى . والهدف الرئيسي لذلك الهجوم – الذي انطلق من طرف واحد – هو تدمير القوة العسكرية المسلحة للطرف الآخر ، حتى تتمكن الدولة المعتدية من فرض ارادتها وشروطها . ومما لاشك فيه أن الطرف الذي يوجه الضربة الأولى سوف يحصل بدون شك على التفوق – في المرحلة الأولى على الأقل ، ان لم يكن حتى نهاية المعركة – وبخاصة في حال وجود تخطيط دقيق وجيد . ويرى مؤيدو نظرية الحرب الوقائية ، ان خطة الهجوم الاستراتيجي ستتاح لها فرصة كبيرة للنجاح اذا اعتمد منفذوها أسلوب توجيه الضربة الأولى .

هذه هي – بايجاز – نظرية الحرب الوقائية التي تبنتها اسرائيل في استراتيجيتها العسكرية تخطيطاً وتنفيذاً . ولا حاجة بنا لأن نستعرض التاريخ العسكري الاسرائيلي – وبخاصة منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن . ليتبين لنا أن المذهب العسكري الاسرائيلي قد اتخذ لنفسه الشعار التالي : « اهجم أولاً . فالخسارة ستكون أقل على كل حال » . ان جميع المعارك المحدودة والحروب الواسعة التي شنتها اسرائيل

كانت معارك هجومية ، تنطلق من فكرة الوقاية . وليس المثل الطبي المشهور « درهم وقاية خير من قنطار علاج » - على بساطته - ببعيد عن هذه الفكرة . فاسرائيل اذ تعتقد بحتمية الحرب، وتعتبر هذه الحتمية أحد مفاهيم استراتيجيتها[1] ترى أن كل هجمة تشنها على أية قوة عربية - عسكرية في الدرجة الأولى واقتصادية في الدرجة الثانية - انما هي اضعاف للعدو، وامتصاص لقدرته، وتأخير لاستعداداته . وليست هذه الهجمات - على اختلاف أشكالها وأسبابها وظروفها - سوى محاولات مستمرة لمنع العرب عن القتال . وتدخل جميع هذه المحاولات في نطاق نظرية « الحرب الوقائية » ، وتعتبر ضربات وقائية لأنها توجه الى « العدو الذي يستعد للهجوم » .

وتعتمد الحرب الوقائية على مبدأ المفاجأة[2] وعلى الوقت ، بحيث يمكن للمهاجم أن يعطل ردود الفعل لدى الخصم ، ويبعث الفوضى والرعب في صفوفه ، ويجعل جميع التدابير والردود والاستعدادات والتدخلات الخارجية و كأنما جاءت متأخرة في غير موعدها المناسب . ولقد اعتمدت اسرائيل على هذه المبادىء في معاركها وحروبها « الوقائية » .

ان اسرائيل تشن المعارك والحروب الوقائية متى ما توفر لها أحد الشروط والظروف التالية :

١ - اذا ما اختل توازن القوى بينها وبين الدول العربية المحيطة بها . بحيث تميل كفة الميزان لصالح الدول العربية . ويدخل في مفهوم التوازن تكتل

---

(١) انظر « المعرفة » - عدد حزيران ١٩٦٩ - مقالة : « من ميكيا فيلي وكلوزويتز الى بن غوريون ودايان » .

(٢) سنتحدث عن ذلك في مقالة قادمة خاصة بمبادىء الحرب في اسرائيل .

القوات المسلحة العربية ، وتضخم كمية الأسلحة العربية بحيث تصبح أكثر عدداً من أسلحة اسرائيل ، وتنوع هذه الأسلحة وتفوقها نوعياً على الأسلحة الاسرائيلية . لقد كان تزود مصر بالأسلحة الشرقية في عام ١٩٥٥ سببـــاً رئيسياً من أسباب العدوان الثلاثي الذي كانت اسرائيل واسطة العقد فيه ، وذلك بعد أن تيقنت ان كميات الأسلحة التي استوردتها مصر وأنواعها ستتفوق - بعد أن يتقن الجيش المصري استخدامها - على أسلحتها .

٢ - عندما تقوم وحدة عربية عسكرية أو سياسية بين قطرين أو أكثر من الأقطار المحيطة بها . اذ أن اسرائيل تعتقد بأن كل وحدة عربية تهدف إلى احكام فكي الكماشة حولها وتطويقها .

٣ - عندما تقوم جبهة عسكرية عربية حول حدود اسرائيل أو حول جزء من تلك الحدود ، يشترك فيها جيشان عربيان أو أكثر . وتعتبر اسرائيل قيام هذه الجبهة سبباً مبرراً لكي تشن حرباً وقائية ، تمنع قيام تلك الجبهة أو تحطم أوصالها أو تشتت قواتها وتدمر الأسلحة المتمركزة فيها . قال « ييغال آلون » وزير العمل الاسرائيلي في الملحق الأسبوعي - لصحيفة « جيروزاليم بوست » الصادر في ١٠ شباط ١٩٦٧ :

« ان كل محاولة لنقل قوات عربية الى الأردن ، وبشكل خاص الى الضفة الغربية ، انما تنبع من نوايا عدوانية مبيتة ضد اسرائيل ، وليست نابعة من الرغبة في حماية الاردن . فاسرائيل لاتفكر بمهاجمة الأردن ولا أية دولة عربية أخرى . وهي ايضاً مستعدة لتحويل اتفاقيات الهدنة الثنائية الى معاهدات للصلح . ولكن اذا ماتغير الأمر الواقع في الأردن ، فان اسرائيل تعتبر نفسها حرة في التصرف . صحيح أن مصر أصبحت أقوى من أي وقت مضى ، وسوريا تهدد

بتحويل مجرى نهر الأردن . ولكن الأردن – والضفة الغربية بشكل خاص – هي التي يمكن أن تحول الشخصية الفلسطينية من افتراض نظري مجرد الى واقع قائم ، اذا ماتجمعت فيها القوات العسكرية العربية . واذا تم أمر كهذا، فانه يعني قيام تهديد عسكري وسياسي جديد لن تسمح اسرائيل بقيامه » .

٤ – اذا اشتدت المقاومة العربية الفلسطينية ، سواء كانت قواعد هذه المقاومة ومراكزها قائمة في الأرض المحتلة أو الأراضي العربية المحيطة بها .

٥ – اذا ما استعادت احدى الدول العربية من اسرائيل أي مكسب أخذته أو احتلته بقوة السلاح . ان اغلاق خليج العقبة في ايار ١٩٦٧ في وجه الملاحة الاسرائيلية – وهو مكسب حصلت عليه اسرائيل بقوة السلاح في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ – كان سبباً تذرعت به اسرائيل لشن عدوانها في حزيران ١٩٦٧ .

٦ – عندما يبلغ تأثير الحصار الاقتصادي العربي حداً يهدد الاقتصاد الاسرائيلي ، أو عندما تبلغ اسرائيل حداً من القوة كافياً لفك ذلك الحصار .

ان اسرائيل ستشن معركة أو حرباً وقائية في كل مرة تشعر أن أحد الجيوش العربية المحيطة بها قد أكمل استعداداته وأتم تدريبه وجهز نفسه بأسلحة ممتازة كما ونوعاً ، واتقن استخدام هذه الأسلحة اتقاناً تكتيكياً وتكنيكياً كافياً لاستثمار ميزات الاسلحة وصفاتها وامكاناتها الى اقصى حد ممكن . ان اسرائيل لن تدع جيشاً من هذه الجيوش العربية يبلغ حداً من القوة الكمية والنوعية والتسليحية يصبح عنده خطراً على كيان اسرائيل ومطامعها وأهدافها التوسعية.

- ٢ -

الردع

ثمة استراتيجية للردع . والردع مصطلح جديد دخل القاموس السياسي والعسكري حديثاً . ومعناه ان يقوم طرف ما بردع طرف آخر عن شن حرب ينوي القيام بها . وقوامه امتلاك ترسانة ضخمة من الاسلحة ،وعدد كبير من الوحدات والوسائل اللازمة لنقل هذه الوحدات والاسلحة لاستخدامها .

واستراتيجية الردع في جوهرها وحقيقتها ، وفي كافة ما يشتق عنها من نظريات واستراتيجيات كالحرب المحدودة ، وحافة الحرب ، والحرب المتدرجة ليست سوى شكل من اشكال استراتيجية العدوان ، غايتها بسط نفوذ طرف على طرف ، ووسيلتها في ذلك ممارسة الضغوط والتآمر والعدوان المتدرج ، ومن مراميها قهر الارادة الوطنية وشل عزيمتها عن المقاومة .

وللردع مفهوم نفسي ، وهو حمل الخصم بالضغط السياسي والاكراه النفسي وبالتسلط بوسائل القسر والقهر العنيفة ، وبأدوات الحرب النفسية ، على تغيير مواقفه السياسية والعقائدية والعسكرية ، أو تغيير قناعاته ، والاذعان والانصياع لعمليات الردع النفسية والفكرية والعسكرية .

وقد يؤثر الردع بالقوة البحتة المسلطة ، ولكنــــه يتعلق – أساساً – بالاعتبارات العقائدية والتاريخية والفكريةوالنفسية المستقرة في المجتمع وفي عقول الأفراد ونفوسهم .

وقد تلقى القاده السياسيون والعسكريون في اسرائيل وزعماء الصهاينة نظرية الردع واستراتيجيته ، وحاولوا تطبيق بعض مبادئها في علاقاتها العدوانية

مع الدول العربية . فسعوا الى ادخال مفهوم « القوة الرادعة الاسرائيلية » في أذهان الدول العربية وغرسها في نفوس العرب بمختلف وسائل الاعلام ، وشتى العمليات الانتقامية المحلية على الحدود ، وجعلوها مرادفاً لمعنى « جيش الدفاع الاسرائيلي » بقصد اضفاء صفة الرعب والارهاب والتهديد المستمر التي تشكلها القوة الاسرائيلية المسلحة على الدول العربية واقناعها بجدية التهديد الجاثم بقربها ، وحملها على تصديق حدوثه وامكانية وقوعه وحتمية استخدامه ضدها وتنفيذه عملياً في كل حين (١) .

والردع يكون من موقف ضعف أو من موقف قوة ، فله صفة دفاعية ظاهرية أكثر الاحيان . أما الردع حسب مفهوم اسرائيل ، فيرتدي دوماً طابع الاستفزاز والعدوان ، ويهدف الى المحافظة على توازن القوى بينها وبين الدول العربية ، وتوفير الأمن والسلامة لاسرائيل بتهديد سلامة الدول العربية . ولهذا فان الردع الاسرائيلي ليس فعالاً في اساس تصميمه النفسي والفكري لانه يزيد في عداء الدول العربية ، ولأنه في جوهره ، يحض ويثير ويستفز الدول العربية أكثر مما يرهبها ويخيفها، من جراء الطريقة التي تمارس بها اسرائيل مفهوم «الردع»، وللصفة التهديدية المتضمنة للأخطار والشرور على العرب ، بالجائهم الى أضيق الطرق وأشقها وأعسرها . ولهذا ، أيضاً ، فان الردع الاسرائيلي ، مهما تكن ذيوله المادية قاسية على العرب ، فانه سلبي في نتائجه السياسية وانعكاساته النفسية عليهم ، لأنه لم يفلح في ارهابهم ، ولم ينجح في ترويضهم على قبول الامر الواقع واشعارهم بالعجز عن المجابهة ، أو تكييفهم وزحزحتهم عن عقيدتهم والتخلي عن

---

(١) توازن القوى بين العرب واسرائيل – امين النفوري – ص ١٤٩ ، وما بعدها .

أراضيهم . ولم يتوصل الى عزل الدول العربية عن بعضها ، أو منع بعضها عن الصمود والمقاومة ، أو فرض الانصياع والاذعان عليها والتخلي عن مواقفها المبدئية ، بل زاد من حدة الصراع ، ورسخ من قناعة العرب وقوى من عقيدتهم في وجوب مجابهة اسرائيل وتحرير الارض المغتصبة . ويتأتى عدم جدوى الردع الاسرائيلي من ضآلة امكانات اسرائيل الفعلية المادية والعسكرية التي تستطيع التأثير بها على الدول العربية ، - اذا ما قيست امكانات اسرائيل بالامكانات العربية مجتمعة - ، ومن صغر حجم الموارد البشرية وضيق رقعة اسرائيل الجغرافية ومن التباين الكبير في نسبة القوى بين اسرائيل والعرب ورجحانه الكبير لصالح الدول العربية ، ومن عدم معقولية وصحة الحجة السياسية التي تتذرع بها الصهيونية بالنسبة لقناعة العرب في موضوع النزاع واعتباراته السياسية والعقائدية والنفسية والاخلاقية والمصيرية .

وقد استلهم التفكير الصهيوني فكرة الردع ، وحاول تطبيق بعض عناصرها الظاهرة البسيطة في المجال السياسي والعسكري مع الدول العربية ، فلم يتوصل الى النتائج التي توخاها في استخدامها . فأخطأ التقدير والتقييم للوسائل والأساليب لأنه صاغها حسب منطقه وفكره . ولم يأخذ بعين الاعتبار منطق الآخرين وتفكيرهم وتصرفهم فوضعها وفقاً لمنطقه وتفكيره وأهدافه . وخطأ التفكير الصهيوني هو أنه وضع قواعد للسلوك اعتقد أن العرب سوف يسيرون بموجبها معتمداً على معطيات علم النفس وتطبيقاته الحديثة على الأفراد في المخابر الأوروبية والأميركية . وعمم تلك التجارب على الجماعة العربية كلها مستعيناً بأجهزة الحرب النفسية للدول الكبرى المشايعة له .

وقد اخفق الردع الاسرائيلي ضد العرب لعدم تقدير الصهيونية

السليم لعقلية العرب ونفسيتهم . فالتهديد المستمر بقوة اسرائيل لم يثر في نفوس العرب الترهيب والردع ،بقدر ما أثار فيهم الشدة في التحدي والرفض للقوة المفروضة حتى في منتهى حالات ضعفهم . وكان من جراء تظاهر اسرائيل بالقوة أن أصر العرب على مواجهة تلك القوة وردها وصدها مهما كانت النتائج .

وقد اعتقدت الصهيونية انها تتوصل الى اهدافها السياسية اذا ما أزالت القوات المسلحة العربية ووصلت الى قناة السويس او نهر الاردن او هضبة الجولان أو الى احدى العواصم العربية ، فتستطيع فرض الصلح على العرب . ولم تدرك الصهيونية ان ارادة المقاومة ، أو العامل النفسي هو الاساس . فمتى سقط أو ضعف أو انهار العامل النفسي عند الشعوب انتهت الحرب ،ولو كانت الامة كلها مدججة بالسلاح . ولاتنتهي الحرب وان كانت الامة عزلاء ، ودمرت قواتها المسلحة ، اذا كانت معنوياتها عالية وارادتها على الصمود والمقاومة قوية .

ان اسرائيل تستخدم مفهوم الردع على مستوى الاستراتيجية العسكرية. وهذا الاستخدام قاصر عن بلوغ الغايات التي حددها واضعو استراتيجية الردع . وهو لا يغير في الواقع ميزان القوى العربية . ويمكن الرد عليه واستنزافه وامتصاصه بطرائق استراتيجية وتكتيكية ودعائية .

ان الجو المتوتر السياسي والداخلي والاقتصادي في اسرائيل هو الذي يتحكم باستراتيجية الردع الاسرائيلي حتى لتبدو تلك الاستراتيجية تظاهرة عسكرية بحتة للتخطيط العسكري . اذ من المعروف ان عناصر الردع هي سياسية واقتصادية ونفسية وعسكرية . وحينما يعتمد الردع الاسرائيلي على

العنصر العسكري وحده فانه يفقد قيمته . لأن اسرائيل عاجزة عن استخدام العناصر السياسية والاقتصادية والعلمية الأخرى للردع ضد العرب ، فلا تؤثر عليهم باجراءاتها السياسية أو الاقتصادية أو العلمية ، بينما تقع هي تحت تأثير الردع الاقتصادي العربي .

واذا ما استخدمت اسرائيل الردع العسكري البحت فهي أمام أحد اختيارين :

١ - فاما أن تلجأ الى القوة مع مافي ذلك من مآزق وأخطار . وهي لاتستطيع ذلك الا بدعم سياسي ودبلوماسي من الدول الكبرى وبخاصة أميركا ، وهذا لايتوفر لها في كل مناسبة بالرغم من أنها دولة مندمجة في الجهاز العالمي السياسي والعسكري لاميركا ، وتتمتع بالضمانة الاميركية السياسية والعسكرية الموثوقة ضد البلاد العربية في حالة تعرض اسرائيل لأي خطر .

٢ - واما السكوت والاغضاء عن عجز وضعف منها .

ان اسرائيل لاتستطيع مواجهة ظروف وشروط مجابهة دائمة ومستمرة مع العرب مع مايعقب الاشتباك من امكانية توسعه . وهي لاتستطيع أن تتوغل في البلاد العربية لضعفها وقلة عدد جيشها ، وحتى لو توغلت كما حدث في حزيران ١٩٦٧ فان ضربتها لاتكون قاضية على الدول العربية . أما اذا توغل احد الجيوش العربية في اراضيها فسيكون ذلك اختلالا في بنيتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ومن اسباب زوالها واندثار كيانها .

ويحسن في هذا المجال ان نستعرض آراء بعض مخططي الاستراتيجية

العسكرية الاسرائيلية – وهم زعماء المنظمة العسكرية الاسرائيلية – . فقد نشر « بيغال آلون » وزير العمل وقائد قوات البالماخ سابقاً – القوة الضاربة للهاغانا – مقـالاً في الملحق الاسبوعي لصحيفة « جيروزاليم بوست » الصادر في ١٠ شباط ١٩٦٧ – أي قبل عدوان حزيران بنحو اربعة أشهر – قال فيه :

« لقد اتضح للدول العربيـة ، وبشكل خاص لمصر ، بانه ليس في مقدورها ان تلحق الهزيمة باسرائيل في اية حرب شاملة . وعلى هذا الاساس فان سياسة اسرائيل القائمة على الردع بدلا من الوصول الى الحسم قد اعطت ثمارها . ومهما كانت الدول العربية متطرفة بعدائها لاسرائيل ، فانها باتت موقنة بان وجودها لايعتمد على القتال ضد هذه النتيجة . ولكنهم يدركون ايضاً بان الهزيمة على يد اسرائيل ، مع انها قد لاتهدد وجودهم كدول ذات سيادة الا انها قد تهددهم كانظمة حكم قائمة » .

ويحدد آلون معنى « الردع العسكري » حسب المفهوم الاسرائيلي فيقول :

« ان الردع العسكري لايكون بكمية او بنوع الاسلحة ، ولكن بالاستعداد الدائم ضد الهجوم المباغت ، وبقدرة الامة على اقناع الغير بأنها مستعدة لاستخدام القوة سواء عن طريق عرض قوتها العسكرية في المناورات العسكرية او عن طريق استخدامها بالفعل ، جزئياً او كلياً ، حسبما تقتضي الظروف » .

وقد استخدمت اسرائيل – كقوة رادعة – لتحقيق مطامعها وسلب الحقوق العربية . فقد ضربت مشروع تحويل مياه روافد الاردن في سورية ،

كما بررت اعتداءاتها الجوية على سورية – كعمل رادع – لدى سلب المزارعين الاسرائيليين الاراضي المجردة . قال آلون :

« وطالما ان الدول العربية لاتستطيع شن حرب شاملة ضدنا ، فانها تعبر عن عدائها لاسرائيل عن طريق افتعال حوادث الحدود ، وارسال الفدائيين داخل الاراضي الاسرائيلية . ان محاولات سوريا لتحويل مجرى نهر الاردن بعيداً عن مجراه الطبيعي داخل اسرائيل ينبغي النظر اليه على انه عمل من اعمال الحرب المحدودة ، وليس كمعركة سياسية او اقتصادية . وطالما ان هذه المحاولات مستمرة فستبقى الحرب مع سوريا احتمالا قائماً . وقد عبرت اسرائيل عن نظرتها الجدية الى موضوع التحويل بضرب المعدات التي يستخدمها السوريون في مواقع التحويل ، وبالاضافة الى ذلك فانه ينبغي ان تطرق كل السبل الدبلوماسية لردع سوريا عن هذا العمل . ولكن دون ان يؤثر ذلك على حق اسرائيل في حماية مواردها المائية عن طريق العمل العسكري . وكلما توضحت هذه النقطة لكافة الاطراف المعنية تزايد الامل في الوصول الى نتيجة عن طريق الضغط السياسي . وفي السابق كانت سوريا تقوم بضرب قرى الحدود الاسرائيلية بالمدفعية ، ولكن بعد ان استخدمت اسرائيل سلاحها الجوي قبل عامين ونصف لضرب مواقع المدفعية السورية ، لم تعد توجه هذه المدفعية نيرانها على القرى الاسرائيلية ، وان استمرت اعمال القناصة ضد المزارعين الاسرائيليين اثناء قيامهم باعمالهم اليومية ، ولو لم تقم اسرائيل بذلك العمل الرادع (اي ضرب مواقع المدفعية السورية) فان الحياة في ذلك الجزء من اسرائيل كانت لاتطاق » .

ان خشية اسرائيل من الثورة الفلسطينية المسلحة ، دفعها – ويدفعها

دائماً - الى تطبيق استراتيجية الردع . وقد عبر آلون عن هذا الموقف بقوله :

« ونتنقل الآن الى الحديث عن المنظمتين الفلسطينيتين اللتين تقومان باعمال فدائية داخل اسرائيل ،اي منظمة التحرير الفلسطينية التي تدعمها مصر ، ومنظمة فتح التي تدعمها سوريا ، وكل اعضاء المنظمتين هم من اللاجئين الفلسطينيين .[1]

« تحاول هاتان المنظمتان ان تخلقا ما يسمى (الشخصية الفلسطينية) بقصد اكتساب اعتراف مختلف الدول بها ولغرض اقامة نواة سياسية قادرة على المطالبة بعودة الأراضي التي تحتلها اسرائيل .

« ان اعمالها العسكرية تستهدف نسج اسطورة من الكفاح البطولي حول (الشخصية الفلسطينية) ، ورفض قبول وجود دولةاسرائيل من قبل العرب وغيرهم ، وابقاء القضية قائمة ومتحركة ، وانزال الخسائر البشرية وزعزعة الثقة في اسرائيل .

« واذا نجحتا في اهدافها تلك فانهما ستبادران الى خلق (حكومة فلسطينية في المنفى) وستطلبان اعتراف الدول العربية والاسلامية بها . وحتى قبل قيام مثل هذه الحكومة فان الصين قد اعترفت بها سلفا ، ومنظمة التحرير اصبح لها الآن ممثل سياسي في بكين .

« ان اسرائيل معرضة للاذى بفعل هذه الهجمات ، وهي اذا ما استمرت بدون كبح فانها قد تلحق ضرراً بالغاً بالاقتصاد الاسرائيلي وبشكل خاص بالسياحة . ان ضبط النفس ، ولجوء اسرائيل الى الدفاع السلبي وحده - وهو

(١) نلفت نظر القارىء الى ان حديث آلون هذا كان قبل عدوان حزيران ١٩٦٧ بنحو اربعة اشهر .

بحكم طبيعته محدود الفاعلية - ان ذلك قد يغري القوات العربية النظامية على خوض معركة شاملة مع اسرائيل . وحتى لو ضمنت اسرائيل النصر في مثل هذه المعركة ، فان من واجبها ان تفعل كل ما يمكنها ، بالطرق الديبلوماسية وبالوسائل العسكرية ، لتأجيل مثل هذا الصدام ، على أمل أن التأجيل يضعف احتمالات وقوع هذا الصدام فعلاً . وعلى هذا فانه يترتب على اسرائيل ان تنظر الى اعمال الفدائيين بكل جدية وان تقوم بكل الخطوات الممكنة لوضع حد لها . من هذه الوسائل زيادة الاحتياطات على الحدود عن طريق الدوريات العسكرية ، والاسلاك الشائكة ، وحقول الالغام في بعض المواقع .

« وبهذا الصدد فانه يجب على اسرائيل ان تحذر الوقوع فريسة لوهمين : الأول : ان تتصور بانه بالامكان عملياً اقفال الحدود اقفالاً كاملاً ومحكماً . والثاني : ان تستمع الى نصيحة البعض بان تلجأ الى الدفاع السلبي وحده . ان استخدام قواتنا العسكرية في مهمات دفاعية سلبية بحتة هو بحد ذاته نجاح كبير للاستراتيجية العربية ، وبداية لهزيمة اسرائيل العسكرية . طبعاً يجب تدريب كل فرق (الناحال) على أعمال الدفاع بما فيها الدوريات والكمائن لأن ذلك يشكل جزءاً هاماً من اجراءات الأمن المعتادة . ولكن يجب ان نحذر من هدر قوتنا الهجومية عن طريق استخدام الجيش الاسرائيلي كلـه في واجبات دفاعية موضوعية . فاذا ما وجدنا أنفسنا مجبرين على القيام بعمل عسكري فانه يجب ان نكون على استعداد للضرب خلف الحدود ايضاً دون ان نتقيد بنموذج واحد من الأهداف او من أساليب العمل العسكري » .

وتحدث آلون عن اهداف عمليات الردع وعلاقتها بالموقف السياسي الدولي فقال : « في معظم الحالات باستطاعة الدول العربية المحيطة باسرائيل ان

تمنع التسلل عبر حدودها الى داخل اسرائيل . وفي بعض الأحيان يخيم الهدوء على الحدود مع سوريا ولكن حين يكون ذلك في مصلحتها ، وفي احيان أخرى تلتهب حدودها معنا من جديد .

« وبعد عامين من الهجمات الفدائية وهجماتنا الانتقامية المقابلة اظهر الاردن ان بامكانه عند الضرورة ان يسيطر على حدوده ، وان يمنع تسلل الفدائيين . وقد يكون من الضروري القيام بالغارات الانتقامية حتى حين تثبت احدى الحكومات العربية بانها راغبة في ايقاف اعمال التسلل . وفي تلك الحالة تكون الغارة الانتقامية موجهة ضد سكان الحدود الأمامية الذين يؤيدون ويحمون أعمال المتسللين .

« ان الدول العربية تحصل على المعونات العسكرية من بعض الدول الكبرى وذلك يزيد حدة التوتر ، ولكن التأييد السياسي ايضاً يمكن ان يكون عامل ردع ، وحين تضطر اسرائيل للقيام بعمل عسكري ، فانه يترتب عليها ان تدرس نتائج ذلك العمل على الصعيد الدولي وبالنسبة للدول المجاورة لها .

« ولكننا يجب ان لانسمح بان يقوم اعتقاد خاطىء باننا حينما نختار هدفاً ما لعملياتنا الانتقامية سنتأثر بالعلاقات التي تربط ذلك البلد العربي الذي ستوجه اليه الضربة ببعض الدول الكبرى . فذلك بحد ذاته سيستدعي قيام ضغط علينا من قبل الدول الكبرى التي تريد ان تزيد من نفوذها في العالم العربي ، والتي قد تكون مستعدة لمنح الحماية لبعض الدول العربية حتى وان استمرت في الاعتداء علينا . وينبغي لنا ان نكيف ردودنا الانتقامية لكل دولة عربية وفقاً لتصرفاتها تجاهنا وبغض النظر عن نظام الحكم القائم فيها . ان الاستمرار بهذا الطريق قد

يعرضنا الى لوم مجلس الأمن ، ولكننا على الأقل لن نكون طرفاً في نزاعات الدول الكبرى فيما بينها حول العالم العربي .

« ان الاقتراح الذي يقول باحداث قوات (شبه عسكرية) للقيام بأعمال الانتقام ضد العرب لأن ذلك يجنبنا مسؤولية تلك الأعمال هو اقتراح مرفوض . لأن الدفاع الايجابي او الفعال لا يؤدي بالضرورة وبصورة اوتوماتيكية الى التصاعد . فلو ان الدول العربية تريد خوض الحرب ، فانها ستشن تلك الحرب عوض انتظار غارات اسرائيل الانتقامية . »

ولقد تحدث عن استراتيجية الردع ضد المقاومة الفلسطينية المسلحة مسؤول اسرائيلي آخر ، هو « موشيه كرمل » وزير المواصلات والعضو البارز في حزب « احدوت هاعفودا » (١) ، وأحد مخططي المنظمة العسكرية الاسرائيلية . فقد نشر مقالة في صحيفة الحزب « لامرحاب » الاسرائيلية في ٢٤ آذار ١٩٦٧ أي قبل عدوان حزيران بنحو شهرين وعشرة ايام – بعنوان « جبهة الحرب الصغيرة » التي بدأ الفدائيون الفلسطينيون يشعلونها فوق أرض اسرائيل . قال كرمل :

« منذ معركة السموع ، في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٦ ، شهدت اسرائيل ٢١ حادث تغلغل ارهابي من وراء الحدود : من سوريا ، والاردن ، ولبنان . وتستهدف عمليات التغلغل هذه التدمير والقتل والحاق الأذى بمجرى الحياة الطبيعية

---

(١) احدوت هاعفودا : حزب اسرائيلي « يساري » . يهدف الى جمع غالبية يهود العالم في اسرائيل . ينادي بالاستعداد الكامل الدائم لمواجهة الدول العربية . يطلق عليه اسم « حزب الجنرالات » لأن معظم الضباط الذين اشتركوا في حرب ١٩٤٨ والحروب والمعارك التي تلتها ينتسبون الى هذا الحزب .

في البلاد ، وتقوم بها منظمات عسكرية عربية ، يتألف القسم الأعظم منها من الفلسطينيين ، وخصوصاً من أفراد منظمة التحرير الفلسطينية ، ومن رجال (العاصفة) وهي اليد العسكرية لمنظمة (الفتح) التي تجهر بالقول إن اعمالها تستهدف احتلال اسرائيل وعودة اللاجئين اليها .

« ولا تستطيع أية دولة أن تقف مكتوفة الأيدي أمام عمليات استفزازية وخطرة كهذه يجهر منفذوها بارتكابها ، وكأنها بداية حرب تحريرية شاملة ضد تلك الدولة .

ونرى لزاماً علينا أن ننظر الى العمليات العسكرية التي تتم وفق اساليب حرب صغيرة على اساس انها عمليات موجهة ضد اسرائيل . اذ أن استمرار تدفق السلاح على الدول العربية المجاورة يستهدف إعداد قوة عسكرية لمجابهة ساعة الفصل المقبلة التي ستقرر مصير اسرائيل .

« وقد اصبحنا في حالة يقظة دائمة ازاء ازدياد القوة العسكرية العربية ، تلك القوة التي تتمثل بازدياد الاعتدة العسكرية المتطورة وبالمحاولات للانتاج الذاتي ، وبتحسين مجالات العمل ، وبتطوير الكفاءة الحربية . وهذه القوة العسكرية العربية الصاعدة تملي ، عملياً ، ضرورة زيادة قوة اسرائيل زيادة الزامية بغية ردع المعتدين ذوي الطاقات الكبيرة ، والحفاظ على قدرة اسرائيل على الصمود أمام هجوم محتمل الوقوع .

« ولا ينبغي لنا أن ننقص من قدر (الحرب الشعبية) التي ينادي بها (ابطال العودة) ، مهما كانت مشفوعة بمزاعم منفوخة ، وببيانات عن انتصارات موهومة . وككل حرب صغرى ، في اي مكان من الدنيا ، فان هذه الحرب الصغيرة ، التي تتسرب من وراء حدودنا ، وتستهدي بحرب التحرير الجزائرية

سابقاً ، او الحرب الناشبة في فيتنام حالياً - ان هذه الحرب قادرة ، على أن تخلق لنا مشكلات عسكرية يصعب حلها ، وتزيد من فداحتها المشكلات السياسية الخاصة بنا .

« وفي الآونة الأخيرة ازدادت عمليات التسلل توغلاً وعمقاً داخل حدودنا ، بل وأكثر من اي وقت مضى . فقد لمسنا فيها الجرأة الشخصية ، وبرزت فيها الكفاءة العسكرية التي تزداد باطراد . فاذا لم تكن الخسائر في الارواح ، والاضرار التي ألحقها المدمرون الذين أتوا من الخارج بالممتلكات ، كبيرة ، بشكل خاص حتى الآن ، فان هذا الامر يعزى الى الصدف التي لا ينبغي لها أن تتكرر دوماً ، والى الخبرة القليلة التي يملكها المدمرون ، وقد تصبح خبرة عريقة بمرور الزمن .

« وعلينا أن نذكر أيضاً ان بلدنا ينقصه عمق استراتيجي ، فوحدات صغرى من جيش العصابات تستطيع ، بعد تطوير أساليب عملياتها العسكرية ، والحصول على ضمان ذاتي أكبر ، ان تصل بدون كبير عناء ، الى المراكز المشحونة بالسكان ، فتنفذ فيها مآربها ثم تنسحب الى ما وراء الحدود في تلك الليلة أو في الليلة التي تليها ، بعد أن تمكث نهاراً كاملا على حدود البلاد . فاذا توسعت عمليات حرب العصابات حقاً ، فانها قد تزرع حالة من عدم الاطمئنان في الاماكن التي تبدو الآن وكأنها متناهية في الاستقرار . حتى ولو كانت هذه الاماكن أقل أمناً من المستعمرات الامامية المحصنة ، والمحروسة ، وقد توفرت فيها الوسائل الدفاعية جيداً . وامتداد ازعاج حرب العصابات لنا قد يعرضنا لضحايا واضرار جسيمة ، ويضعنا امام خطر واقعي وحيوي يتعرض له المواطنون والجيش معاً ، ويؤدي بنا الى بعثرة قوى عسكرية ضخمة في عمليات تمشيط لا فائدة منها ، ضد اهداف صعبة ترمي الى تعقب الاثر واطلاق النار ، وإلى توريطنا في مشكلات سياسية

متناهية في الصعوبة في العالم ، مع بذلنا الجهد لاخماد النار ، بعد أن امتدت السنتها على مجال واسع ، حتى لو ان امتداد الازعاج هذا خلا من النتائج التي تقوض أمن الدولة الاساسي ، او تعرض بقاءها للخطر .

« والاغلال التي نضعها في ايدينا ، وبمحض ارادتنا ، في حربنا ضد عمليات التدمير ، بغية الامتناع عن ازدياد الحالة توتراً على حدودنا ، وبدافع الرغبة في تحاشي تقريعنا في المجال الدولي ، قد تكون قاتلة لنا بالنسبة لتوسع عمليات حرب العصابات في المستقبل . ومن خبرة الآخرين ، ومن خبرتنا الشخصية تعلمنا ان الحرب الصغيرة التي تقوم بها جماعات قليلة مزودة بسلاح محدود قد تنتفخ ككرة من الثلج متدحرجة من القمة ، اذا لم يوقفها حاجز مضاد .

« وينبغي الانتباه الى الاحوال المثالية التي تكاد المنظمات الارهابية العربية تتمتع بها : فرجالها ينتظمون ويتدربون وراء الحدود بأمان تام . وتجهز الدول المجاورة بتأييدهم ، وتقدم جيوشها النظامية لهم المساعدة . وثمة منظمة في مصر ، وأخرى في سوريا ، تستقبلان القوة البشرية من اللاجئين العرب الذين ابقي عليهم لسنين طويلة في الانتظار الموجه لعودتهم الى وطنهم . وهم يستطيعون أيضاً أن يتلقوا المساعدة في المعلومات والعون والحماية من محبيهم المقيمين داخل اسرائيل .

« وجميع هذه الامور تبرز ضرورة التفرغ بعد زمن قصير وتجميع الجهد ضد اعمال الارهاب واستئصالها . وفي الوقت ذاته الامور تملي علينا ، الى حد بعيد ، طرق النضال ضد عصابات المخربين » .

ولقد ادلى الجنرال حاييم بارليف رئيس هيئة الاركان العامة بدلوه في شرح استراتيجية الردع الاسرائيلي وأسسها . فتحدث في مطلع شهر كانون الثاني ١٩٦٩ بمناسبة مرور عام على تسلمه منصبه خلفاً للجنرال اسحاق رابين رئيس

الاركان العامة السابق [1] . وقد اعترف بارليف بوطأة العمل الفدائي الفلسطيني على اسرائيل ، وبأنه لا يمكن القضاء عليه نهائياً ، ولكنه يرى « ان بالامكان حصره وتصغيره وابعـــاده عن قلب اسرائيل » ، وان هناك اوقاتاً يتسع فيها النشاط الفدائي ، واوقاتاً اخرى تضيق فيها الرقعة التي تمارس المنظمات الفلسطينية نشاطها في اطارها .

ويقول بارليف انه منذ عام واحد ، كان النشاط الفـــدائي قادراً على التغلغل بعمق داخل اسرائيل ، إلا انه يزعم: « لقد استطعنا بالتدرج ان ندفعهم شيئاً فشيئاً نحو الحدود » .

ويخطط بارليف لاستراتيجية الردع والانتقام فيرى « ان على اسرائيل أن تتبع استراتيجية يقظة للمحافظة على امنها وسلامتها ، وان هذه الاستراتيجية يجب ألا تكون دفاعية ، بل ان على اسرائيل ان تستمر في تطبيق قانون الانتقام بالنسبة للدول العربية ، وسيعمل الجيش الاسرائيلي كل ما وسعه أن يضرب بعنف وقوة ، كي تكون العقوبة قاسية قدر الامكان » .

ويربط بارليف بين العمل الفـدائي والدول العربية على تنفيذ جزء من استراتيجية الردع والانتقام الاسرائيلي، ودفعها الى تصفية العمل الفدائي فيقول:

« ان النشاط الفـدائي يمكن له ان يقود المنطقة الى حرب بين الدول العربية واسرائيل ، إلا ان هذا الاحتمال يتوقف حدوثه على مدى قدرتنا على الحد من العمل الارهابي وعلى مدى قدرتنا على حمل الدول العربية على مكافحته .

« ان علينا ان ندرك بان الحركة الفدائية تعبر تماماً عن مشاعر (العالم)

---

(١) — مجلة « الحوادث » اللبنانية — العدد الصادر بتاريخ ١٠ / ١ / ١٩٦٩ .

الفلسطيني في مجموعه ، والذي يعتقد بأن العمل الفدائي هو العمل المثالي للوصول الى أهدافه وغاياته » .

لقد قامت إسرائيل بعمليات ردع واسعة ، وبخاصة بعدحرب ١٩٦٧ . وقد سبقت هذه الحرب عملية السموع ضد الأردن في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٦ ، وعملية الهجوم الجوي على سورية في ٧ نيسان ١٩٦٧ ، أما بعد حرب حزيران فقد نفذت إسرائيل مئات العمليات البرية والجوية ، هادفة الى الردع في نطاقين :

١ – نطاق الدول العربية المحيطة بها لإرغامها – بعد هزيمة الجيوش العربية في حزيران ١٩٦٧ – على التفاوض المباشر والصلح وفرض شروط الإستسلام عليها وتحقيق بعض الأهداف الصهيونية في التوسع وتوفير عوامل الأمن والإستقرار لإسرائيل وكسر طوق الحصار الاقتصادي المضروب حولها بالسماح لسفنها بحرية المرور عبر قناة السويس وخليج العقبة .

٢ – نطاق الأراضي العربية التي تقوم فيها قواعد ومراكز للمقاومة الفلسطينية . وتهدف إسرائيل من عملياتها في هذا النطاق الى تحقيق الأغراض التالية :

آ – تدمير تلك القواعد والمراكز ، وثني الفلسطينيين عن عزمهم في المقاومة وتصعيدها لتبلغ مستوى الحرب التحريرية الشعبية .

ب – إرغام الدول العربية – حيث تقوم تلك القواعد والمراكز في أراضيها – على تصفية العمل الفدائي .

ج – إبعاد الفدائيين عن حدود إسرائيل بقدر الإمكان وإجبارهم على ان يشتتوا تنظيماتهم وتشكيلاتهم ويوزعوها على مجموعات صغيرة غير قادرة على القيام

بعمليات واسعة أو مجدية او مؤثرة ، وغــير قادرة ايضاً على التنسيق وتطوير العمليات الصغيرة المبعثرة الى عمليات تتصاعد في الكبر والنمو حتى تبلغ الحد الذي يؤثر على الاستراتيجية الاسرائيلية وعلى الوجود الاسرائيلي ذاته .

وكانت أهم العمليات الردعية التي نفذتها إسرائيل عملية الكرامة في الاردن في ٢١ آذار ١٩٦٨ ، وعملية مطار بيروت الدولي في ٢٨ كانون الأول ١٩٦٨ ، وعملية الهجوم الجوي على ميساون والهامة في سورية في ٢٤ شباط ١٩٦٩ ، وعملية الهجوم الجوي على السلط في الاردن في ٢٦ آذار ١٩٦٩ . وقد غيرت إسرائيل تكتيكها في عملياتها هذه ، فلجأت الى الهجوم البري الجوي الواسع (الكرامة) ، والى النسف والتدمير بالإنزال الجوي (مطار بيروت الجوي) ، والى الغارات (ميساون والسلط) . وكان هذا التكتيك وليد الفكرة الاستراتيجية الردعية التالية : « يجب على الجيش الاسرائيلي ان يطال جميع تجمعات الفدائيين الفلسطينيين وقواعد إنطلاقهم ومراكز قياداتهم ومعسكرات تدريبهم ، سواء كانت قريبة او بعيدة ، وعلى أرض أية دولة عربية » . وقد أوكلت الى سلاح الطيران مهمة تنفيذ هذه الفكرة ، فتكاثرت الغارات الجوية على اراضي الدول العربية المحيطة باسرائيل ، حتى أصبحت يومية ، وحتى غدت تغير في اليوم الواحد اكثر من مرة . وتستعمل الطائرات الاسرائيلية في غاراتها العــدوانية هذه الصواريخ وقنابل النابالم المتفجرة والرشاشات . وتغير بأعداد صغيرة وكبيرة ، فقد اشتركت ثلاثون طائرة مطاردة ومطاردة - مقنبلة في الغارة على ميساون والهامة في سورية .

ان المقاومة الفلسطينية تدفع بالتناقض الذي خلقه وجود إسرائيل في قلب الوطن العربي ، الى الاطار الطبيعي له ، وتضعه في المكان المناسب لإيجاد الحل المناسب . واذا كان وضع هذا التناقض في اطاره الطبيعي تأخر نحو عشرين عاماً ،

فان العودة الى المناخ الذي يمكن للقضية ان تجد لنفسها فيه الحل ، قد أفزعت اسرائيل ، وأثارتها ودفعتها — وتدفعها في كل يوم — الى القيام بهذه الأعمال الردعية اليومية .

ان تحليلا سريعاً لعلاقات هذا التناقض بين قوى الاحتلال الصهيوني والمقاومة الفلسطينية ، يؤكد لنا ان ثمة تغيراً واسعاً وعميقاً طرأ على هذه العلاقات، وجعل كفة الميزان تميل مع المقاومة . ولنبدأ بالمقياس الأول للتغيير ، وهو النمو الذاتي المادي والمعنوي . إذ ليس هناك شك ، في أن قوى الاحتلال الاسرائيلي لاتزال أقوى وأضخم من قوى المقاومة . وهذه حقيقة موضوعية ليست موضع تساؤل . ولكن السؤال الجوهري هنا يتعلق بمدى معدل سرعة النمو لكل من القوتين المتصارعتين .

واذا كانت المقاومة قد بدأت من نقطة قريبة جداً من الصفر ، وباعداد محدودة لاتتجاوز العشرات عدداً، ومحصورة في فئة نوعية ضيقة هي المثقفون الوطنيون من الفلسطينيين ، فان وضعها الراهن يؤكد ان كمها قد تضاعف، بحيث يمكن القول ان معدل السرعة في النمو العددي للمقاتلين قد تجاوز خلال هذه الفترة : ٥٠٪، وان نوعية المقاتلين الاجتماعية قد إتسعت لتشمل العمال والفلاحين مع المثقفين الوطنيين . أي انها أصبحت — ذاتياً — محوراً لأكثر القوى الاجتماعية حركة ووعيا وتضحية في الشعب العربي الفلسطيني . وهي بعد ذلك قفزت بتدريبها من مستوى المتطوعين البدائي الى مستوى المتطوعين المنظمين في وحدات مقاتلة . كما قفز سلاحها من الرشاش العادي الى الصواريخ .

وهذا النمو في قوى المقاومة ، لا يقابله — بنفس المعدل — نمو في قوى الاحتلال الاسرائيلي ، وهذا طبيعي ، لان القوة العسكرية الاسرائيلية لاتزال،

كما هي في حزيران ١٩٦٧ ، في حدود ٣٠٠ الف جندي . ومستوى التسليح لم يحقق تقدماً كيفياً ملحوظاً عما كان عليه من قبل . وبالرغم من ان طائرات الفانتوم تمثل تضخماً في عدد الطائرات النفاثة ، فانها لاتقدم نفعاً كبيراً في مواجهة المقاومة التي تعتمد على مجموعات صغيرة متفرقة خفيفة الحركة ، ليست لها قواعد ثابتة . ولهذا يمكننا القول انه في الوقت الذي تنمو فيه المقاومة ، فان قوى الاحتلال تظل على وضعها الثابت دون نمو يذكر . انها لاتزال اقوى واضخم ، ولكنها - بحكم طبيعة حرب التحرير الشعبية - لاتتمكن من الاستفادة من ضخامتها ضد المقاومة ، مثلما تتمكن في حرب نظامية .

وتؤكد التجارب التاريخية والدراسة العسكرية العلمية هذه الحقيقة التي بلورها المفكر العسكري البريطاني المعروف ليدل هارت في مقدمته لكتاب « حرب العصابات » الذي اشتمل على نصوص من كتابات « ماوتسي تونغ وجيفارا » اذ يقول : « ان استخدام قوات متحركة ضخمة لوقف حرب العصابات ثبت فشله ، لانه أشبه بمن يتحدث عن استخدام المطرقة الكبيرة في القضاء على سرب من البعوض » .

واذا تناولنا المقياس الثاني لتغيير علاقات القوى وهو مدى الاستفادة من الظروف الراهنة ، فنجد انه يتعلق بوجود وصمود القوتين المتصارعتين : الاحتلال والمقاومة ، كل في مواجهة الاخرى . فلقد اصبح الاحتلال الصهيوني ذا وجود ثنائي ، اذا صح هذا التعبير : وجود كسبه بعد حرب ١٩٤٨ فوق عشرين الف كيلو متر مربع من فلسطين ، تجسد في « دولة اسرائيل » ، ووجود آخر كسبه بعد حرب ١٩٦٧ ، بسط فيه احتلاله على مساحة تبلغ اكثر من اربعة أضعاف مساحة الوجود الاول . ويجب - امام الحقيقة الموضوعية - ان نعترف انه

استطاع ان يصمد في الوجود الاول . ولكننا في الوقت نفسه ، يجب أن لا نغفل عن حقيقة موضوعية اخرى ، وهي ان الوجود الاول للاحتلال ، لم يواجه مقاومة فلسطينية مسلحة ومستقلة ونامية كالتي يواجهها اليوم الثاني . واذا كان الوجود الاول استطاع ان يطرد ويشرد غالبية شعب فلسطين بحيث لم يبق على ارضها غير ٣٥٠ الف فلسطيني ، فان الوجود الثاني لم يستطع – بحكم الظروف المحلية والعالمية – ان يحقق تشريداً مماثلاً في كثافته للتشريد الاول . وغدا الوجود الثاني يواجه على الارض ذاتها اكثر من مليون وربع المليون من المواطنين الفلسطينيين .

ومن المحتم – بحكم قوانين حرب العصابات والمقاومة – أن يصبح امتداد الوجود الاحتلالي ، والكم السكاني العربي ، عنصري قوة المقاومة من ناحية ، وعاملي ضعف للاحتلال من ناحية اخرى . ذلك انه كلما اتسعت الرقعة المحتلة ، كلما زادت اعباء الامن على الاحتلال وحاجته الى مزيد من القوات التي تكلفه نفقات ضائعة باستمرار ، لانها غير منتجة ، بحيث تؤدي الى نشوء مشكلات خطيرة ، عسكرية واقتصادية . وهذا ما يفسر القدرة العملية للمقاومة الفلسطينية المسلحة المعاصرة على الصمود والحركة والتخفي ، ويفسر فشل العدو في تصفية هذا الصمود ، وفي الحد من حركة المقاومة واتساع نطاق عملياتها .

وبعد حرب حزيران وانطلاق المقاومة اعلنت الحكومة الاسرائيلية بلسان كل من ليفي اشكول رئيس وزرائها وديان وزير دفاعها ، انه قد اتخذت الاجراءات الكفيلة « لوأد المخربين في القبور التي يفتحونها للاسرائيليين . وقد تم القبض عليهم ولن تقوم لهم قائمة » . وتمثلت هذه الاجراءات في نسف البيوت واعتقال وتعذيب الآلاف من الفلسطينيين في الارض المحتلة . وفي ٢٩ ايلول

١٩٦٧ أي بعد الحرب بنحو اربعة أشهر ، كتب موشيه ديان مقالة في جريدة « معاريف » بعنوان : « بوادر امل في الواقع الجديد » ، قال فيها :

« من الخطأ الاعتقاد بأن العلاقة بين اسرائيل والفلسطينيين ليست قائمة ، فان المحاولات الفاشلة للتمرد وعدم التعاون مع السلطات الاسرائيلية مما مسائل متفرقة . والحياة في الضفة الغربية تسير بصورة طبيعية هادئة ، وليس هناك أي توتر . ويسير النـــاس في القدس والخليل دون ان يلتقوا باسوار شائكة ولا دوريات عسكرية . وليست هناك اجراءات أمن غير عادية للمحافظة على النظام » .
ولكن ديان ما لبث ان اعلن في مطلع عام ١٩٦٨ ، امام اتساع وتعدد عمليات المقاومة : « بأن على اسرائيل أن تعد نفسها لحرب طويلة ضد الارهابيين العرب » .

ولم تنفع عمليات نسف البيوت وحملات الاعتقال والتعذيب الواسعـــة النطاق ، ثم عمليات الاغارة على قواعد رجال المقاومة في الاردن ، في وقف حركة المقاومة ، فبدىء بتسوير المناطق المحتلة بسياج من الأسوار الالكترونية ـ وهذا أقصى ما تستطيع تكنولوجيا الحرب عمله ضد المقاومـة ـ ولكنها لم تمنع المقاومة أو تصدها عن العمل وعن أن تكتسب في مواجهة الوجود الاحتلالي وجوداً وصعوداً متزايدين ، محلياً وقومياً وعالمياً ، بحيث تغير اتجاه رياح الظروف المحيطة ليصبح ، لأول مرة ، في اتجاه المقاومة الفلسطينية المسلحة ، كنواة لحركة تحرير وطنية شاملة .

وإذا كان التاريخ لا يكرر نفسه فانه يؤكد نفسه من خلال قوانين الحركة والتطور . وهذه القوانين تقطع بانبثاق كل حركة مقاومة وطنية مسلحة ونموها وصمودها وانتصارها ضد احتلال الوطن مهما كان وجود هذا الاحتلال من القوة والضخامة . ويتحقق اليوم هذا التأكيد لقوانين التاريخ من خلال مقارنـة

حديث ديان بحديث الحاكم العسكري الفرنسي للجزائر عام ١٩٥٤ عندما واجه بداية حرب التحرير الجزائرية في مطلع تشرين الثاني ، فوصفها ، بأنها « مجرد عمليات عصابات مجرمة خارجة عن القانون ، اتخذت السلطات الفرنسية الاجراءات الكفيلة بالقبض عليها وانزال العقاب الصارم بها » . ولكنه لم يستطع حتى بعد أن جند اكثر من ٨٠٠ الف جندي وكهرب الحدود ، أن يحول بين المقاومة الجزائرية والوصول الى هدفها في الحرية والاستقلال . ان المقارنة نفسها يمكن أن نعقدها مع فيتنام الجنوبية . ففي ١٥ آذار ١٩٦٤ أعلن الرئيس الاميركي جونسون : « لقد أعددنا خططاً أبعد أثراً وأوسع نطاقاً ، من أجل مساعدة قوات فيتنام الجنوبية ضد العصابات الشيوعية ، ولسوف تؤتي ثمارها في القريب العاجل » . ولكن جميع الخطط لم تستطع أن تصمد لمقاومة جبهة التحرير الفيتنامية التي سيطرت بالفعل على اكثر من ثلثي فيتنام ، وفرضت على امريكا التفاوض معها في باريز وبلغت أهدافها .

ومن هنا يسجل الوجود المحلي والقومي والعالمي للمقاومة الفلسطينية المسلحة وصمودها المادي والمعنوي ، الذي يتخطى وجود وصمود قوى الاحتلال ، تغييراً له وزنه العسكري والسياسي في علاقات القوى المتصارعة .

— التتمة في العدد القادم —

نحو انسانية كاملة (١)

جاك بيرك

ترجمة

أديب اللجمي

يزداد الحديث عن المجتمع الصناعي . ومثل هذا التعبير يمكن قبوله بشرط تجريده من كل تفاؤل وكل رضى ذاتي ، إذ أن هـــذا المجتمع يقبل بالظلم والشقاء . أي ظلم ؟ انه الاهانة يلحقها بهوية الجماعات ، سواء بعض الجماعات حسب سنتها ، أو بعض الطبقات في داخـــل المجتمعات الصناعية ، أو بعض الشعوب والثقافات في المجتمعات التي لم تتصنع بعد ، وما تزال تابعة إلى حد ما للمجتمعات الصناعية . فأنا ألح إذن على مفهوم التصنيـع ، أو بالأحرى مفهوم التكنولوجيا . إذ ما من شيء يمكن تحديده في عالم اليوم ، أو في عالم الغــد ، إلا استناداً للتكنولوجيا . ذلك كان الفضل الكبير لمفكري القرن التاسع عشر ،

---

(١) نشر هذا البحث في العدد — ٤ — من مجلة « الفكر » الفرنسية ص ٦٥٢
La revue Espit - № 4 - 1969 . P. 652 et suiv

وبخاصة ماركس ، إذ رأوا أن لاشيء يمكن فهمه من تاريخ عصرنا إلا بالقياس للظاهرة الهائلة التي ستقلب جميع وجوه الكرة الأرضية . فلنقبل إذن هـذا المفهوم بالرغم مما ينطوي عليه من ظلم . وبالمقابل فإن ما لا نستطيع قبوله نتيجة لذلك ، إنما هو مفهوم آخر ، منتشر كالسابق ، هو مفهوم « الثقافة » ، أو « الحضارة الصناعية » . فليس ثمة حتى الآن حضارة صناعية . وقد تحدث هذه ذات يوم . وذلك ، في تقديري ، يمكن أن يكون أحد أهداف الاشتراكية .

يعشش في ذهن الكثيرين منا نوع من المعادلة بين المفاهيم التالية : العقل التاريخي ، من ناحية ؛ العقلانية الاقتصادية ، من ناحية ثانية ؛ الثقافة « الغربية » أو الثقافات « الغربية » (بالمعنى الواسع ، إذ يمكن أن تدخل في هذه الكلمة ثقافات أوروبا الغربية والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي) من ناحية ثالثة . إن هذه المعادلة مدمّرة كلياً . نجدها في جميع أخطاء عصرنا النظرية والعملية ، في أساس فشل معظم سياسات التنمية أو المعونة الفنية في العالم. إذ حتى لو حاولنا باسم « العامل البشري » أن ندخل إليها شيئاً أكثر انفتاحاً ، وأكثر ملاءمة لهويات الشعوب المعنية ، فان معادلة كهذه تدمر معظم الجهود ، بمعنى انها تبقي في العالم لا سيطرة التكنولوجيا وحسب ، بل وسيطرة النموذج لبعض المجتمعات . وهذه السيطرة تستدعي لدعمها وتفسيرها ، أحكام قيمة ، وتنظيماً وظيفياً متدرجاً . ان الاحتجاج الذي ينطلق احياناً في اجتماعات ، كاجتماع جينيف او اجتماع نيودلهي مؤخراً ، هو ذاته ، الى حدما ، شكل من اشكال التأييد لهذا الامتياز الذي تتمتع به بعض الثقافات ، وبصورة عامة الانسان الغربي .

كيف يظهر هذا الأمر لمجتمع غير غربي ؟ اننا نعتبر اجمالا مثل هـذا المجتمع منتمياً الى الماضي ، فنصفه بكلمة « تقليدي » ، بالقدر الذي نريد فيه أن نحترمه . ان ما يختلف عنا ، في العالم غير الغربي ، يُعزى إما الى بقايا الأزمنة

الحوالي ، وإما الى التعصب ، بله الجنون . إذ ، بالنتيجة ، جميع أولئك الذين لايشبهونني هم مجانين . منذ جيل فقط ، ألقى جامعيٌ محترم بأطروحته الشهيرة عن العقلية البدائية . ان ثلاثة أرباع مجتمعات العالم تنتمي إذن الى اللاعقل . أعرفُ أن ليفي بروهل ، قد عاد في أواخر أيامه ، عن هـذا الغلوّ ، وتفضل بالموافقة على أن هذه المجتمعات غير الغربية تنتمي الى الميدان العقلي ذاته الذي ننتمي نحن اليه . ان هذه الرحمة المتأخرة تدعو حقاً للقلق . فهي بالنتيجة ، تجرد في مرحلة اولى هذه المجتمعات من العقل ، بحجة أن نموذجها العقلي يختلف عنها ، ثم هي في مرحلة ثانية تدمجها بها . انها تمارس الدمج بعد أن مارست الطرد. كنا آنذاك بعيدين عن نظريات أكثر نفاذاً من تلك بما لايُحدّ ، كنظريات ليفي ستروس في كتابه « العرق والتاريخ Race et Histoire » وبخاصة في كتابه « التفكير المتوحش La Pensée Sauvage » . ونحن نعلم الآن انه ليس ثمة نوع واحد من العقل ، بل ان هناك بالنتيجة كثيراً من المجتمعات الشهيرة بالبدائية ، يحركها العقل مثلما يحركنا ، وهي ، إن صحّ القول ، صانعة للعقل .

على أن هناك صعوبة تظل قائمة : أليس هذا مجرد تأكيد صادر عن محبة للانسان ، بله عن نظرة جمالية ؟ ان المشكلة المطروحة ليست بالدرجة الأولى الاعتراف بكرامة الآخر ، وهي كرامة يمكن أن تناسب بالتالي حديقة النبات ، أو المتحف ، أو مجموعة خاصة بنماذج الأقوام . ان المشكلة هي في الاعتراف بما تستطيع أن تفعله هذه المجتمعات الاخرى غير مجتمعي ، هذه الثقافات الأخرى غير ثقافتي ، في الميدان الذي هو ميدان عصرنا ، ميدان التقدم التكنولوجي . إذ ذاك تأخذ المركزية الغربية مكان الصدارة ، وتتحدى هذه المجتمعات أو هذه الثقافات غير الغربية ، في أن تنضم الى العقلانية الاقتصادية ، أي الى الثقافة الغربية ، كي تتقدم ، أعني وبتعبير آخر ، كي تصبح غربية أو تفقد وجودها .

بيد أن من الممكن لمجتمع أو لثقافة ، غربية أو غير غربية ، أن تظل هي ذاتها رغم دخولها في التقدم التكنولوجي . وإذ أن كل مجتمع مرتبط ارتباطاً حياً بالطبيعة ، بطبيعته هو ، فثمة بينه وبين مقومه الطبيعي مالا نهاية له من الروابط المعبأة : أقول ما لا نهاية له . بيد أن الفارق بين الثقافة الانكليزية وثقافة مجتمعات آرونتا Arunta ، ليس ، إن صح القول ، سوى فارق تاريخي ، نسبي ، يمكن قياسه ، بينما الروابط بين مجتمعات آرونتا وطبيعتها تنتشر احتمالاً في لانهائية الإمكان الانساني . وأعتقد إذن أن بإمكان ثقافة كثقافة مجتمعات آرونتا أن تصنع قاطرات منذ أن تصبح قادرة على صنع النبال المرتدة . نصل هنا الى الفرق بين ما هو لانهائي ، وما هو غير ذلك . فلنسم هذا التفكير ، أو إن شئتم ، هذه المفارقة : رهان باسكال في التنمية الصناعية .

أعلم أن هذا ليس سوى تأكيد فلسفي ، وأنه لايتحقق إلا بدخوله في متن تاريخي وبتأثيره فيه . على أنه ينبغي علينا أن نأخذ بهذا التأكيد ، فبدونه نصطدم بتناقض أدهى من التناقض الذي لقيه اشتراكيو القرن التاسع عشر في مجتمعاتهم . لقد فضحوا فيها تناقضاً بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . ونحن اليوم ، بقدر ما نقبل فكرة أن ثمة شكلاً للثقافة ممتازاً ، ينتشر بفضل التوسع التكنولوجي في أرجاء المعمورة ، مدمراً الأشكال الأخرى للثقافة أو مدمجاً إياها ، نذعن الى بذرة التناقض ذاتها . فلن تكون هناك ثقافة انسانية حقاً ، أو بتعبير آخر ، لن يكون هناك اشتراكية عالميـــة ، إذا لم نتوصل الى حل هذا التناقض .

ولئن كانت هذه هي حال العلاقات بين الثقافة الغربية والثقافات الأخرى ، فان الثقافات الغربية لم تكن رقيقة إزاء بعضها ، ولا رقيقة في داخلها هي . فنحن

نعلم بالطبع ، ما فعلته بالطبقات الكادحة . ونحن نفسر عادة حوادث القرن التاسع عشر تلك ، بعبارات الاستغلال الاقتصادي خاصة ، مهملين أشكالاً أخرى من التشوه . اننا نصرف النظر بصورة خاصة عن التصفية الثقافية التي عمت وما تزال تعـــم أوروبا ، وتتجه الى كل ما ليس هو « روح العصر » (إدغار موران) أعني ثقافة الانتاج الصناعي والاستهلاك . ففي أوروبا أيضاً ، والبلاد الصناعية ، لم يحدث توزع طبقي ، أي ظاهرة طبقية وحسب ، بل قبر . قام اتجاه وظيفي ، استبعد لنفسه جميع العناصر غير المسيطرة من ناحية ، وصفّى أيضاً أنماط الوجود الغربي التي لاتستجيب لهذا الغرض . حدث اذن في القرن التاسع عشر ، وما يزال ، تبديد ضخم في الطاقات والامـــكانات ، في وجوه الانسان ان سمحتم لي بهذا التعبير . لم يحدث تسلسل متدرج وحسب ، بل حدث نقص في هذا السلّم النفسي الاجتماعي الذي كان يصفه شارل فوريه ، قبل قرن ونصف ، بكل مايحفل به من غنى ، فأطلق عليه بصورة خاصة اسم « القانون العاطفي » . ان هذا القانون قد رددناه الى مادة واحدة ، أو شيء من هـذا . فكل مالايؤطّر ، ولا يخضع لأمنية القياس لدى المجتمع الغربي الصناعي ،يرمى جانباً في اللاسوي واللامعقول .

ثمة نوعان إذن من التصنيف :تصنيف شاقولي ، يُخضع البروليتاريابعض الناس ، وتصنيف كوكبي ، يُخضع ثقافات العالم المتنوعة الى سيطرة إحداها . يرافق ذلك ، ويسايره تصانيف ورمْي،إن صح القول،في داخل الانسانالغربي: أخذ جميع ما كان أنماطاً قابلة لتؤدي دوراً وتبلغ التفتح ، وإخضاعها للاتجاه الوظيفي العامل ، كأنماط اللعب، والأسطورة، والجنس ،وسواها ،وبالاختصار كل أنواع الأبعاد المتعددة للانسان،وهي لاتقل «ايجابية» عن نزعته الاقتصادية .

فاذا كان هذا هو النقص الذي تعانيه مجتمعاتنا ، فما ترى يكون النقص الذي تفرضه على المجتمعات الأخرى ! لم تكن المبادلة - وهي أمنية طيبة - بينهما أقل عدلاً مما هي عليه اليوم . فاذا فرضتُ على الثقافات غير الغربية أن تشارك في نظرتي الى الأشياء ، وأن تقبل بسلطاني ، فكيف لي أن أتلقى ، أنا ، رسالة هذه الثقافات ؟ فلنتأمل بعض الشيء في الطريقة المشوّهة المشوِّهة التي تلقى الأوروبي فيها مثلاً رسالة الحضارات الافريقية ! ما الذي أثارته فينا حتى الآن ! بعض ايحاءات فنية ، وهرباً عن طريق الرقص ، ولا شيء آخر . لقد انتهت إذن الى دكان بائع اللوحات ، وإلى أقبية رقص الجاز . كم أحبّ تعبير والقبو ، هذا ، إذ هو مناسب لقيمة الهضم . ذلك أن القضية بالنتيجة ، هي دوماً هضم فريق من فريق آخر . تلك هي حضارة الاستهلاك ، كما يقولون .

حقاً إن تفكيرنا النظري والعملي قد أحسن رؤية وجه من هذه الأمور : وجه الاستغلال الاقتصادي . رأى جيداً أن « المبادلة » الاقتصادية بين بعض الأمم وبعضها الآخر هي من جانب واحد . فوصف آلية فائض القيمة ، في داخل المجتمعات الأوروبية ذاتها . وأحياناً مضى الى أبعد من ذلك . فقد رأينا مؤخراً تحليلات ذات إطار عالمي للشعور الكاذب على صعيد عالمي ، أو إن شئتم ، تحليلات للعالمية الكاذبة . ولكن كم تحليل من هذه التحليلات يستند الى وجود ومستقبل ثقافات أخرى غير أوروبية .

أترانا نستطيع أن نتحدث عن انسان كوكبي دون أن نستند الى أبناء هذا الكوكب ؟ أنستطيع أن نتحدث عن انسان ذي بُعد واحد دون أن نلاحظ أنّ أبعاده الأخرى لاتقع في دائرتنا الخاصة ؟

ماتراه أصبح إذن هذا الانسان ، السالخُ المنسلخ ، هذا الانسان المتمصر

على الثقافة وهو بساقٍ واحدة إن صحّ التعبير ، هذا الانسان الغربي الصناعي ، ماتراه أصبح ؟ لاشيء تقريباً ، وكل شيء في الوقت ذاته . اننا نراه على أية حال، يواجه مشكلات لاتستطيع صيغه الخاصة أن تحيط بها . ان بعض الفلسفات تطالبني بأن أرضى ، وأقبل بالمطابقة بيني وبين الآخر ، إلا أن القضية ليست في الآخر . فهذا ليس سوى مرادف ميتافيزيائي. ان القضية التي تعنينا ،هي الآخرون (بالجمع) ، الآخرون في التاريخ ، صانعو عالم متعدد المراكز ، أبطال - يجب أن يكونوا كذلك على الأقل ، ويجب أن أكون أنا كذلك - في صنع انسان ذي مراكز متعددة . فليس هناك عالم خارجي واحد فقط من حولي ، ان هناك خوارج منظمة في هويات مختلفة عن هويتي،منافسة لهويتي .هناك مجتمعات أخرى كلية ، بالنتيجة ، كما يقول عالم الاجتماع . بيدأن ثمة في هذا كله ، ماهو أكثر من « سوسيولوجيا الكليات » . ان هذه الهويات الخارجية ينبغي أن تدخل الي مثلما ينبغي أن أدخل اليها . وكيف نميز الآن بين السوسيولوجيا الجزئية والسوسيولوجيا الكلية ؟ لن يكون هناك بالتدريج إلا مجتمع وحيد كلي ، هو الكرة الأرضية . أتظل الأمة مجتمعاً كلياً ؟ وهل ستصبح الطبقة كذلك ، أو يصبح كذلك هذا الطراز أو ذاك من طرز التصنيف الأكثر دقة ؟ ولكن لم أقول « تصنيفاً » ؟ أليس مبدأ التصنيف ذاته موضوع مراجعة ، في نطاق بعث الانسان ذي الأبعاد المتعددة في عالم أصبح من جديد متعدد الوجوه ، وأخذ من جديد شكل الجسم ذي الوجوه الاثنى عشر ، حسبما وصفه بذلك السيميائيون العرب ؟

يحق للاشتراكية إذن أن تقدم لنا ، كهدف ، مجتمعاً لاطبقات فيه ، متقبلاً لاعادة دمج الانسان الفرد . إلا أن عليها أيضاً أن تقدم لنا مجتمعاً متعدد

الثقافات ، متقبلاً لحياة متعددة الطرز ، يتعرف اليها كل واحد منا ، أفراداً وجماعات .

واذا كان لي أن ألخص الآراء السابقة في صيغ ، تيسيراً للمناقشة ، فانني أقترح الموضوعات التالية :

١) ثمة نوع من العقلانية تمكنت ، عن طريق التوزيع الطبقي ، والتصنيف المتجاور ، من قهر الوجوه الأخرى للانسان الغربي ، ووجوه الثقافات غير الغربية ، بآن واحد .

٢) ان المطابقات بين جميع مطالب التحرر ، كمطلب الطبقات المستغلة ومطلب الامكانات المقهورة ، ومطلب الثقافات المهملة ، ليست مطالب عاطفية وحسب ، ولا تكتيكية فقط ، بل تستجيب الى الطبيعة التاريخية للأشياء .

٣) ان كل ثقافة ، أو بالأحرى ، كل هوية غير غربية ، قادرة على أن تحقق التقدم التكنولوجي مع بقائها هي هي ، وبهذا الشرط ، اضافة الى شروط أخرى ، يمكن أن تقوم ذات يوم حضارة صناعية .

٤) ان الاشتراكية يمكن أن تكون دمجاً وحيد الوجه ومتعدد الوجوه بآن واحد ، لمثل هذه الحضارة ، ولتضامن انساني كلي متمتع بجميع طرزه وجميع أشكاله .

نحو صناعة بتروكيميائية عربيّة

يحيى عرودكي

قصة النفط في القطر العربي السوري والتنقيب عنه واستثماره، كقصة النفط في أي من البلدان النامية، لاتخلو من الطرافة، الى جانب ماتشير اليه من تشابه قصص الاستعمار في السعي للسيطرة على ثروات هذه البلدان، والتحكم فيها واستغلالها من وراء شعوبها، تلك التي تتطلع الى التخلص من آثار الفقر والجهل والمرض، التي تغلف حياة أبنائها حتى لكأنها تتحالف مع الاستعمار على ابقاء هذه الشعوب في عزلة عن مدنية القرن العشرين وحضارته.

ولنبدأ القصة من أولها باقتضاب ، ذلك أنه على أثر ظهور النفط في القطر العراقي والبدء في استثماره في مطلع هذا القرن ، بدأت الأنظار تتطلع نحو القطر العربي السوري ، وبدأت فرق من أخصائيي الشركات الأجنبية تزور هذا القطر وتقوم بدراساتها ، فتؤكد مرة وتشكك أخرى حول توفر النفط في القطر المذكور ، ولقد عاش ردحاً من الزمن تحت تأثير الآمال تارة والأوهام تارة أخرى في انتظار تدفق هذه الثروة واستخراجها والاستفادة من خيراتها في دفع عجلة التنمية . وفي الربع الثاني من هذا القرن ، منحت شركة نفط سورية (S.P.C.) البريطانية امتياز التنقيب عن النفط في الأراضي السورية ، فباشرت أعمالها فترة غير قصيرة ، فحفرت وسبرت في أماكن عديدة من هذه الأراضي وخاصة في المنطقة الشرقية ، ثم تبع ذلك انتشار العديد من الشائعات حول توفر النفط وحصول الشركة على نتائج ايجابية ، الا أنه لم يمض وقت طويل حتى رحلت الشركة عن البلاد بعد أن أوقفت اعمالها وردمت الآبار التي حفرتها ، بحجة عدم نجاحها وعثورها على الثروة النفطية التي جاءت للبحث عنها . إلا أنه لم تلبث الشائعات أن ترددت من جديد تنفي ادعاءات الشركة . ولقد أكد صحة هذه الشائعات فيما بعد ، تهالك العديد من الشركات الأجنبية الأخرى ، كشركة (كونكورديا الألمانية) للحصول على امتياز التنقيب عن النفط وقيامها ببعض الحفريات ، وتوصلها الى نتائج ايجابية ، ثم محاولاتها العديدة لأخذ امتياز التنقيب والاستثمار وربط تمويل مشروع سد الفرات بهذا الامتياز . وكان آخر المطاف نجاح عمليات التنقيب والكشف عن النفط التي قامت بها الهيئة العامة للبترول بمساعدة الأخصائيين السوفييت في حقول قره كشوك والسويدية ، التي أيدت وجود النفط في مناطق عديدة من الأراضي السورية وامكانية استخراجه

بكميات اقتصادية ، والتي كان من نتيجتها اعلان سياسة استثمار النفط وطنياً في عام ١٩٦٥ ثم التأكيد على ذلك في المنهاج المرحلي حيث جاء فيه : « لقد خطت حكومة الثورة خطوات واسعة في طريق استثمار النفط بالدولة ، وقطعت على جميع المحاولات الرامية لاعطاء امتيازات لشركات أجنبية ، كما أنها اتخذت خطوات عملية لتطوير حقول النفط المكتشفة ، ولتوسيع مصفاة حمص ، وبناء خط الأنابيب بين قره كشوك وطرطوس ، كل ذلك لتكوين صناعة نفطية كاملة تستثمر النفط الخام في البلاد لسد حاجة الاستهلاك المحلي من المحروقات ، وتصدير الفائض الى الخارج ووضع جميع أعمال الانتاج والنقل والتكرير والتسويق بيد الدولة ، وفي هذا الصدد تلتزم حكومة الثورة بأن تولي هذه الصناعة اهتمامها الأول في نشاطها الصناعي » .

ولقد جاءت خطوة استثمار البترول في القطر العربي السوري وطنياً حافزاً لاقطار عربية أخرى لتسير في هذا الطريق ، فأعلن العراق عن بدئه سياسة جديدة في هذا المجال تستهدف استثمار البترول العراقي وطنياً ومثل ذلك الجمهورية الجزائرية .

ومن ذلك يتضح أن اكتشاف البترول في القطر العربي السوري ، وتزايد استخراجه بكميات تجارية ، ثم تصديره الى الخارج ، وازدياد الطلب عليه ، عدا أنه قد قطع الطريق على حملات التشكيك ومشاعر الوهم حول مدى توفر هذه الثروة الهامة في البلاد السورية ، فإنه من جهة ثانية ، قد فتح السبيل أمام استثماره وطنياً ليس في هذا القطر فحسب وانما في اقطار عربية أخرى . ولهذا كان من الطبيعي أن يطرح على بساط البحث عدد من النقاط حول مستقبل هذه الثروة الهامة التي يمتلكها الوطن العربي ، والتي تطمع الدول

الاستعمارية في الحصول عليها والسيطرة على مقدراتها . خصوصاً بعد أن تبين أن مخزون البلدان العربية من النفط الخام يعادل نحو ٦٠٪ من المخزون العالمي ، وأن انتاجها يشكل نحو ثلث الانتاج العالمي. وكذلك بعد أن تبين أن معظم دول أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية تعتمد الى حد كبير في تأمين حاجتها من النفط على الانتاج العربي . فلقد بلغت مستوردات بريطانيا في عام ١٩٦٦ من النفط العربي نحو ٧٢٪ من مجموع مستورداتها من مختلف بلدان العالم ، كما بلغ استيراد الولايات المتحدة الامريكية من النفط المذكور نحو ٢٤٪ من مجموع ما استوردته من النفط من البلدان الأخرى .

ويأتي في مقدمة تلك النقاط ، المدى الذي يمكن أن توحد من خلاله جهود البلدان العربية المنتجة للنفط في مجالات التنقيب والتصنيع والاستثمار ، وذلك في ضوء التأثيرات المتزايدة التي تحدثها هذه الثروة في التركيب الاقتصادي والتطورات الاجتماعية لهذه البلدان .

الحوافز المختلفة بالنسبة للقطر العربي السوري :

١ – ان ازدياد عدد آبار البترول التي ينفجر منها الذهب الاسود في هذا القطر ، بات يؤكد بشكل لاجدال فيه ، على وجود النفط في أراضيه بكميات وفيرة ، ويقضي على خرافة الشركات الاستثمارية الاستعمارية بفقر البلاد السورية بهذه المادة الحيوية ، لكي تصرف الأذهان وتحول دون اتجاهها لاستثمار هذه الثروة وطنياً بعيداً عن احتكاراتها الدولية .

٢ – ان تصدير البترول السوري الى الاسواق العالمية ، وتزايد الطلب عليه ، يشير الى توفر المواصفات الفنية فيه مما تتطلبه بعض الصناعات البتروكيميائية

المنتشرة في العديد من بلدان العالم المتقدم ، وهذا يدحض العديد من الافتراءات التي جاءت من بعض الجهات المغرضة ، والتي تقول أن هذا البترول من نوعية رديئة ولا يصلح للاستثمار والتصنيع ، وأن أية جهود تبذل في استخراجه غير ذات جدوى .

٣ ـ أن القطر العربي السوري بما يبذله من الجهود الكبيرة لتجاوز مرحلة التخلف الاقتصادي ، سواء في حقل اقامة المشاريع الانمائية الكبرى كمشروع سد الفرات ، أو تمديد شبكة الخطوط الحديدية التي تربط مصادر الانتاج بمنافذ التصدير ، أو مصنع الفوسفات أو مصنع الحديد ومصنع الجرارات وغيرها . أو في مجال التحويل الاشتراكي ، لفروع الانتاج والاستهلاك والتطورات الاجتماعية ، فإنه يحتاج للعديد من المنتجات البترو كيميائية كالزيوت والشحوم المعدنية وبعض أنواع الأسمدة ، وحامض الكبريت وغير ذلك من المنتجات المماثلة الأخرى . وتبعاً لذلك فهو مضطر لاستيرادها من البلدان الأخرى لعدم وجود صناعات انتاجية لها لديه . وهو يدفع ثمناً لمستورداته من هذه المنتجات مبالغ كبيرة من القطع النادر ، تبلغ أضعاف ما يحصل عليه ثمناً لصادراته من النفط الخام .

٤ ـ ان القطر العربي السوري ، بتصميمه على إقامة قاعدة اقتصادية سليمة ، يكون أساساً راسخاً لبناء الدولة الاشتراكية العربية ، لابد له من الاعتماد على القطاع الصناعي اعتماداً جذرياً . وإن صناعة البترو كيميائيات يمكن أن تكون إحدى أعمدة القطاع المذكور ، كما أشار الى ذلك المنهاج المرحلي .

٢ ـ الحوافز المختلفة بالنسبة لمجموعة البلدان العربية :

١ ـ ان مختلف الأقطار العربية التي ظهر البترول في أراضيها ، ويتم استخراجه وتصديره واستثماره من قبل الشركات الأجنبية أو من قبل المؤسسات

النفطية الوطنية ، هي من زمرة البـلدان النامية ، وهي بتطلعاتها نحو تحقيق مستقبل أفضل ، عن طريق تجاوز حالة التخلف التي تعيشها ، وعن طريق اقامة مشاريع انمائية ، تكفل العمل للأيدي العاطلة والغذاء الكافي للأفواه والمعد الجائعة ، إنما تقف على أولى درجات سلم التحول من الواقع المؤلم الى المستقبل المشرق .

٢ – ان عملية التحول هذه تتطلب الكثير من الجهد والوفير من رؤوس الأموال ، وكلا من العاملين يمكن تأمينه عن طريق الإرادة الصلبة والرغبة الصادقة والتخطيط العلمي الصحيح . فالجهد عملية ذاتية ، والشعوب العربية ذات التاريخ العظيم والأمجاد الكبيرة تتطلع بنفوس ملؤها الأمل والرجاء والكبرياء لاستعادة هـذا التاريخ وتلك الأمجاد ، فهي لا تبخل إذا بالجهد مهما كان شاقاً لتحقيق أهدافها . ورؤوس الأموال أدوات مكتسبة ، والثروات البترولية التي تملكها البلدان العربية ، تمكنها من أن توفر رؤوس الأموال اللازمة ، فلقد جاء في احصائية أن شركات استثمار البترول العربي تحقق سنوياً ربحاً قـدره / ٢٥٠٠ / مليون دولار وأن هذا المبلغ يفوق كثيراً ما تحصل عليه البلدان العربية من عائدات .

٣ – ان مختلف الأقطار العربية المنتجة للبترول شأنها شأن القطر العربي السوري في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية تحتاج للعديـد من المشاريع الانمائية والعمرانية ، كما تحتاج هـذه المشاريع لأنواع شتى من المنتجات البتروكيميائية ، وهي تضطر لاستيرادها من الخارج وتسديد قيمتها بالعملات الحرة . بحيث تدفع أضعاف ما حصلت عليه من عوائد ، فبينما لا يتجاوز سعر طن النفط الخام في الخليج العربي ١٫٨٠ دولاراً فإن سعر طن البنزين يصل الى

٢٥ دولاراً . وهـذا يوضح أية أرباح يمكن أن تحققها البلدان العربية من جراء إقامة فرع واحد من فروع الصناعـة البتروكيميائية في بلادها ، وأية خسائر يمكن تفاديها عن طريق التخفيف من مستورداتها من هذه المنتجات المصنوعة من الخارج .

٤ ـ وهذه الأقطار مضطرة حتماً ، من أجل الخلاص من حالة التخلف التي تعيشها واللحاق بركب الدول المتقدمة التي تعيش حضارة القرن العشرين ، أن تأخذ بطريق التصنيع سبيلاً لبلوغ هذه الغاية . وليس هناك من ظروف ملائمة للأقطار العربية المنتجة للنفط أفضل من أن تبدأ مرحلة التصنيع لديها ، بإقامة مشاريع للصناعة البتروكيميائية . وذلك لتوفر المادة الأولية لديها ، ولأن استخراج هذه المادة يتم بأقل التكاليف إذا ما قيس بتكاليف البترول الامريكي أو بترول فنزويلا ، أو بتكاليف المصانع والشركات الأوربية التي تستورد هذه المادة من البلدان العربية أو الامريكية .

٥ ـ إن الأولوية في سلم المشاريع الصناعية التي يمكن أن تعمل الأقطار العربية المنتجة للنفط على تحقيقها ، يجب أن تأخذ بعين الاعتبار ، وعلى درجة كافية من التقدير ، تلك الصناعات التي تسد الاحتياج المحلي لسلعة من السلع مما يكون استهلاكها واسعاً ومتواصلاً ، كتلك المنتجات ذات الاستعمال الستراتيجي كالبنزين والغازأويل والزيوت والشحوم اللازمة للدفاع وللصناعة والزراعـة والاستعمالات المنزلية المختلفة .

٦ ـ ان اتساع مساحة الوطن العربي وامتداده من الخليج في الشرق الى المحيط الأطلسي في الغرب ، وتوزع مناطق انتاج البترول فيـه وتعددها ووقوعها في مناطق جغرافية متنوعة ، كساحل الخليج العربي حتى المحيط الهندي

وساحل البحر الأحمر وساحل البحر الأبيض المتوسط وعلى امتداده من قناة السويس حتى ليبيا فالجزائر ، يتيح للبلدان العربية المنتجة للنفط أن تقوم بعملية رائعة في مجال تنسيق عمليات التنقيب والاستخراج والتوزيع للنفط العربي ، بما يؤمن ويحقق التكامل الاقتصادي لجانب هام من ثرواتها . ذلك أن أعمال التنقيب واستخراج النفط و كذلك عملية نقله سواء بطريق الانابيب أو بواسطة الناقلات وأمور توزيعه وتصريف الفائض منه . لا تقل في أهميتها والنتائج والارباح التي تحققها عن أعمال إقامة فروع للصناعة البترو كيميائية .

٣ - تطور نمو الصناعات البتر كيائية في العالم وعلاقتها بالنفط العربي :

لقد أدى إرتفاع مستوى المعيشة في عدد من بلدان العالم وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وعدد من بلدان أوروبا وفي اليابان ومناطق أخرى ، الى زيادة الطلب على المواد الاستهلاكية بشكل ملحوظ جداً وخاصة في الستينات من هذا القرن وما بعده ، وباتت المصانع تتسابق لإنتاج كميات متزايدة من هذه السلع وإلى العمل على تخفيض أسعارها بما يؤدي الى إيجاد الحوافز المادية والنفسية لدى المستهلك للاقبال على شراء هذه السلع ، ولقد ساعد هذه المصانع على بلوغ غايتها تلك ، ماأفسحه التقدم العلمي والتقني من مجالات لدخول منتجات جديدة وعديدة الى الأسواق من مشتقات ومركبات البترول ، ساهمت بشكل فعال في زيادة الاستهلاك من منتجات وسلع أخرى كانت تعتمد على مواد أولية طبيعية كالقطن والصوف والحديد والفولاذ ، لم يكن بالمستطاع التأثير على أسعارها المرتفعة من حين لآخر ، فجاءت المنتجات الجديدة التي طرحتها الصناعة البترو كيائية في الأسواق ، بأسعار منخفضة اذا ماقورنت بأسعار المنتجات المماثلة السابقة ، لتحل من مشاكل الانتاج والاستهلاك التي كانت الصناعات الأخرى قد بدأت تواجهها .

فلقد استطاعت الصناعة البترو كيميائية أن توفر العديد من المنتجات والمواد اللازمــــة سواء في مرحلة التصنيع الأولي او التصنيع الوسيط أو الانتاج النهائي .

١ – فهناك منتجات بترو كيميائية أساسية يمكن استخدامها كمواد أولية لصناعات أخرى كالفحوم الهيدروجينيــــة وغاز الاستيلين والنشادر والأتيلين والبوتاديين وهباء الفحم والكبريت وفحم البترول .

٢ – وهناك المنتجات البترو كيميائية الوسيطة التي يمكن ان تستخدم مع منتجات اخرى في انتاج أنواع جديدة من السلع والمنتجات، ومنها : البولي أتيلين، البولي بروبلين المطاط الصناعي والنايلون والنشادر .

٣ – أما بالنسبة للمنتجات البترو كيميائية النهائية فيمكن ان يلحظ منها مجموعة من السلع والأنواع المطروحة في الاستهلاك المباشر كالأسمدة الآزوتيـة والخيوط الصناعية من البوليستر والنايلون ، والمصنوعات المطاطية والبلاستيكية والمنظفات .

وفي كل يوم تطلع علينا الصناعة البترو كيميائية بأنواع ومنتجات جديدة، وفي كل يوم تزيد المصانع في مختلف البلدان التي تقوم فيها هذه الصناعة انتاجها من السلع والمنتجات البترو كيميائية وتوضح الأرقام التالية تطور الاستهلاك العالمي لبعض هـــذه الأنواع والكمية بآلاف الأطنان ، (باستثنـــاء استهلاك البلدان الشيوعية) :

العام	أسمدة آزوتية	مطاط صناعي	خيوط بوليستر ونايلون	مواد بلاستيكية
١٩٦٢	١٦٠٨٤	١٩٠٠	١٠٧٩	٨٨٥٠
١٩٦٦	٢٥٧٤٥	٢٤٠٠	٢٠٣٥	١٦٠٠٠
١٩٧٠–تقدير	٣٤٠٠٠	٣١٠٠	٤٣٠٠	٢١٠٠٠

مما يتضح معه أن نسبة الزيادة التي ينتظر تحقيقها في عام ١٩٧٠ تبلغ أكثر من ١٠٠٪ في بعض المنتجات عما كانت عليه في عام ١٩٦٢ وهي نسبة عالية تعبر عن مستقبل تطور هذه الصناعة ومجالات نموها .

وتعزى الأسباب في نمو هذه الصناعة وتطورها بهذا الشكل الملحوظ لعدة اعتبارات أهمها :

١ – توفر البترول الخام في العالم وانخفاض اسعاره بشكل ثابت ومستمر .

٢ – ازدهار وتقدم صناعة تكرير البترول في بلدان عديدة من العالم .

٣ – توفر المشتقات البترولية والغاز الطبيعي نتيجة نمو وازدهار صناعة الاستخراج والتكرير بكميات كبيرة وأسعار منخفضة .

٤ – التطور العلمي والفني في الصناعات الكيميائية والبتروكيميائية وظهور نظريات وطرق وأفكار جديدة في هـــذا المجال مما ساعد على اختراع واكتشاف عدد من المنتجات لم يكن من المتيسر الحصول عليها في السابق ، مما كان لها الدور الأكبر في صناعة عدد من المنتجات والمواد الاستهلاكية .

٥ – تطور المدنية الحديثة ، وارتفاع مستوى المعيشة ، مما أدى لزيادة الطلب على المواد الاستهلاكية .

٦ – تطور الطاقة الانتاجية لمصانع البترو كيميائية نتيجة استخدام المكتشفات والاساليب الحديثة مما كان له اكبر الأثر في تخفيض تكاليف الانتاج لهذه المصانع . بحيث أصبحت الطرق القديمة غير اقتصادية ، فلقد بلغت نسبة التخفيض نتيجة هذه التحسينات نحو ٥٠٪ مما كانت عليه ، الأمر الذي يساعد على سرعة استرداد رأس المال الموظف في الصناعات البترو كيميائية وبالتالي على تخفيض أسعار المنتجات ، مما يجعلها قادرة على أن تبقى منافسة المنتجات المماثلة المعتمدة على المواد الأولية الطبيعية .

إن هذا التطور الذي تحققه الصناعة البترو كيميائية ، سواء في مجال انتاج أنواع جديدة من المواد الأساسية والوسيطة والاستهلاكية ، أو في نطاق زيادة الانتاج للأصناف التي توصلت حتى الآن لانتاجها ، وما ينتظر أن تتوصل اليه في المستقبل نتيجة تزايد المكتشفات والمستحدثات العلمية والفنية . من شأنه أن ينعكس على الثروة النفطية في العالم وبصورة خاصة في الوطن العربي ، باعتباره يملك نحو ٦٠٪ من المخزون العالمي للنفط . وهذا ما يجعل موضوع توحيد الجهود العربية في مجالات التنقيب عن النفط في الأراضي العربية واستخراجه واستثماره وطنياً على جانب كبير من الأهمية ، لما يمكن أن يتيحه للدول العربية من مجالات واسعة في نطاق تحررها الاقتصادي والسياسي وفي سبيل تحقيق حركة تنمية متسارعة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية .

٤ – مدى توفر الأسس الكافية لاقامة صناعة بترو كيميائية في البلدان العربية :

ليست الصناعة البترو كيميائية كغيرها من الصناعات الخفيفة التي اقيم عدد

منها في بعض البلدان العربية ، كصناعات الأقمشة والنسيج والكبريت ، والسكاكر والمحفوظات الغذائية وما يماثلها وانما تعتبر من زمرة الصناعات الثقيلة التي لا يمكن إقامتها بدون توفر عدد من الأسس الاقتصادية والفنية الكافية لنجاحها ، وهو ما تتطلبه صناعات اخرى ولكن على نطاق ضيق ومستويات أدنى . ويأتي في مقدمة هذه الأسس الآتي :

١ - المادة الأولية ، وتتألف بمعظمها من النفط الخام والمكرر ، وغني عن البيان أن البلدان العربية المنتجة للنفط تملك مخزوناً هائلاً من هـــذه المادة ، فكما سبقت الى الاشارة الى ذلك ، فان هذا المخزون يشكل نحو (٦٠٪) من المخزون العالمي ، كما أن الانتاج العربي يبلغ نحو (١/٣) ثلث الانتاج العالمي . وتعتبر تكاليف استخراج النفط العربي أدنى من تكاليف استخراج أي نفط آخر في العالم ، إذ تبلغ تكاليف البرميل الواحد نحو ٨٠ سنتاً في الخليج العربي بينما تبلغ تكاليف استخراج البرميل في فنزويلا (١٫٥٢) دولاراً ، وفي الولايات المتحدة (١٫٦٥) دولاراً .

مما يتضح معه أن الظروف المتوفرة لدى البلدان العربية للحصول على المادة الأولية لا يمكن أن تفضلها أية ظروف تتوفر لدى بلدان أخرى بهذا الصدد ، سواء من حيث الكمية أو السعر أو قرب المسافة بين أماكن استخراج المادة الأولية ومراكز التصنيع .

٢ - رؤوس الأموال اللازمة لاقامة الصناعة البتروكيميائية ، ذلك أن مثل هذا النوع من الصناعات يتطلب توفر رؤوس أموال كبيرة ، لا تتطلبهـــا صناعات أخرى ، كالصناعات التي قامت في بعض البلدان العربية مما سبقت الاشارة اليها ، والتي لا تتطلب سوى مبالغ محدودة لكل منها قد لا تصل الى مليون

دولار في العديد منها . ومن المعروف أن الأرصدة العربية التي يجري استثمارها في المصارف البريطانية أو السويسرية أو الأمريكية أو الفرنسية كبيرة جداً ، بحيث يمكن أن تقوم بتمويل عدد لا بأس به من الصناعات البتروكيميائية في البلدان العربية . وهي بذلك تكون قد أدت خدمة مزدوجة بمثل هذه الاستثمارات. إذ من جهة تسهم في دعم الاقتصاديات العربية عن طريق توسيع القاعدة الصناعية فيها باقامة فروع جديدة لصناعات حديثة وضرورية . كما أنها من جهة اخرى تحصل على عوائد أفضل من تلك التي تحصل عليها من المصارف الأجنبية . فبينما لا تزيد الفائدة التي تدفعها هذه المصارف عن الأموال المودعة لديهـا على ٧٪ في أفضل الظروف ، فان معدل الأرباح التي تحققها مثل هذه الصناعات تصل في أسوأ الأحوال الى ١٨ - ٢٥ ٪ .

٣ - الخبرات الفنية ، وتتمثل في مجموعة المهندسين (الكيميائيين والفيزيائيين) والاداريين الذين لابد من توفرهم في الصناعة البتروكيميائية بأعداد كافية ومستويات عالية ، ربما لا تتطلبها على هذا القدر فروع صناعية اخرى . ذلك أن هذا النوع من الصناعة يقوم بالدرجة الأولى على البحث العلمي وتطبيق الأساليب والنظريات الحديثة في الكيمياء والفيزياء من جهة ، كما يقوم على اتباع أفضل الطرق التي تم التوصل اليها في الادارة والامور المالية والاقتصادية . فلقد ثبت مؤخراً أن المؤسسات الصناعية للمنتجات البتروكيميائية التي أخذت بالاساليب والنظريات الحديثة قد استطاعت أن تخفض من تكاليف انتاجها عن تلك المؤسسات التي تأخذ بالطرق القديمة بنحو (٥٠٪) .

واذا كانت الخبرات الفنية في الدول العربية لم تتوفر بعد بأعداد كافية بالنسبة لهذا النوع من الصناعات ، فان ذلك ليس بالعسير ، فالمرحلة الجديدة التي

يمر بها الوطن العربي ، وتطلعاته نحو تغيير بنيته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية تجعل من الملائم جداً ، وفي هذه المرحلة بالذات ، البدء باعداد الاطارات العلمية والفنية اللازمة لهذه الصناعات وعلى أفضل المستويات ، خصوصاً وأن اقامة الصناعات المذكورة لايمكن أن يتم بين عشية وضحاها ، اذ لابد من الوقت الكافي لاعداد الأبنية الخاصة واستيراد الأجهزة والمعدات اللازمة من الخارج وتركيبها وتجريبها وهو مايمكن كسبه في ايفاد عدد من أبناء البلدان العربية الى الخارج ، لتعليمهم واعدادهم لتسلم مهام العمل في هذه المؤسسات الجديدة ، وفي هذا المجال ، يمكن الاستفادة الى حد بعيد من احكام اتفاقات التعاون الاقتصادي والفني المعقودة بين العديد من البلدان المذكورة والبلدان المتقدمة صناعياً أو من اتفاقات جديدة يمكن أن تعقد لهذه الغاية في معرض الاتفاقات التي تجري من أجل استيراد التجهيزات والمعدات اللازمة لهذه المؤسسات ، مما يمكن أن يوفر للبلدان العربية المجموعات الكافية من المهندسين والأخصائيين في هذه الفروع .

ومن ذلك يتضح أن مايمكن تصوره مشكلة تقف حجر عثرة في طريق اقامة مثل هذه الصناعات ليس في الواقع سوى مجال يمكن الاستفادة منه في تهيئة الاطارات الفنية والعلمية والادارية التي تحتاج اليها البلدان العربية في مراحل تطورها الآنية والمستقبلة .

٤ - الأيدي العاملة ، وهي ماتتطلبه أية صناعة من الصناعات بأعداد متفاوتة تبعاً لحجم ونوع هذه الصناعة . واذا كانت بعض الدول المتقدمة صناعياً تعتمد في تأمين الأعداد الكافية من الأيدي العاملة على ماتستورده من الخارج ، فإن مايمكن ملاحظته في البلدان العربية ، أن بعضها يصدر الى الخارج جانباً من الأيدي العاملة المتوفرة لديه والتي لاتجد مجالات العمل الكافية في بلادها . وهذا

يعني أن اقامة صناعات جديدة في بعض البلدان العربية كالصناعات البترو كيميائية من شأنه أن يمتص فائض اليد العاملة العربية ، ويجعلها تتجه الى البلدان التي ستقوم فيها تلك الصناعات بدلاً من أن تتجه نحو البلدان الأجنبية . ومن المعروف أن مثل هذه الصناعات من شأنها أن تتيح الأيدي العاملة : الخبرة اللازمة ، والظروف المعيشية والاجتماعية الملائمة ، والأجور التي تتناسب وما يمكن أن تحصل عليه في البلدان الأخرى ، بعد مراعاة مستوى الأسعار والحياة المعيشية في كل من هذه وتلك البلدان .

٥ - أسواق ومنافذ تصريف الانتاج ، إذ تشكل عملية تسويق أية منتجات سواء كانت زراعية أو صناعية إحدى الجوانب الهامة التي لابد من تذليلها عن طريق تأمين حاجات الاستهلاك المحلي ، وفتح الأسواق الكافية أمام فائض الانتاج . ولكن هذه العملية تبدو أكثر تعقيداً وتشابكاً بالنسبة للمنتجات الزراعية . وهي أشد في اطار الصناعات الاستهلاكية . ومن هنا تبدو الميزة التي تتصف بها المنتجات البترو كيميائية ، وخصوصاً تلك التي تعتبر منتجات أساسية أو منتجات أساسية أو منتجات وسيطة . فان كون هذه المنتجات من المواد الأولية للعديد من فروع الزراعة والصناعة يجعل مجال تسويقها أكثر سهولة ، وخاصة بالنسبة للبلدان العربية . ذلك لأن عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي باشرها عدد من الدول العربية ، تتطلب في ميدان التنمية الزراعية ، كميات كبيرة من الأسمدة ومواد المكافحة التي تعتبر من منتجات الصناعة البترو كيميائية ، وقد بلغت قيمة ما استوردته البلدان العربية من الأسمدة في عام ١٩٦٦ ماقيمته نحو أكثر من (٢٠) مليون جنيه استرليني .

كما تتطلب في ميدان التنمية الصناعية العديد من منتجات الصناعة المذكورة

كالمطاط الصناعي والخيوط الصناعية من البوليستر والنايلون والنشادر والبولى آتيلين وغير ذلك من المنتجات الأخرى ، الى جانب منتجات التكرير اللازمة كطاقة لتشغيل المصانع والمعامل العديدة وحاجات الاستهلاك المنزلية ووسائل النقل المختلفة . وهذه الحاجة المبرمة والمتزايدة لمثل هذه المنتجات لاتقتصر فقط على البلدان العربية وانما يماثلها في ذلك عدد وافر من البلدان النامية ، التي تسير في طريق التنمية ، وأيضاً بلدان أخرى متقدمة صناعياً ولا تتوفر لديها هذه المنتجات أو بعض منها ، وتحتاج اليها في الصناعات الأخرى المتوفرة لديها .

ومن ذلك يبدو جلياً أن منتجات الصناعات البتروكيميائية التي يمكن أن تقام في البلدان العربية سوف لاتجد صعوبات تذكر في مجال تسويقها في داخل الوطن العربي أو في الأسواق العالمية الأخرى بالنظر لتزايد الحاجة اليها ، تبعاً للتطورات العلمية والتقنية ، ولارتفاع مستوى المعيشة في أنحاء عديدة من العالم .

٥ - تنسيق وتوحيد الجهود العربية في القطاع النفطي :

إن توفر الأسس والعوامل الملائمة لاقامة صناعات بتروكيميائية في البلدان العربية ، على الشكل الذي أوردناه آنفاً ، لايشكل لوحده سبباً كافياً لنجاح مثل هذه الصناعات ، فلقد سبقت الاشارة الى أن مثل هذه المشاريع الكبيرة تحتاج لرؤوس أموال وافرة واطارات فنية على جانب عال من الكفاءة والخبرة ، يقابل ذلك انتاج وافر من عدد من المواد والمنتجات .

ولهذا كان لابد قبل الاقدام على هذه المشاريع من أن تهيأ لها الأرض والمناخ الملائمان ، وذلك بقيام تنسيق بين الدول العربية المنتجة للنفط في السياسات البترولية التي يمكن أن تنتهجها ، وفي الجهود التي يجب أن تبذل في مجال استثمار

واستغلال الثروة النفطية وطنياً بأفضل الظروف والشروط إذ أن انفراد كل من تلك الدول في استثمار ثروتها البترولية بعيداً عن الأخرى من شأنه :

١ - عدم تمكينها من اقامة المشاريع الوطنية لتصنيع تلك الثروة،لعدم توفر الأسس والعوامل اللازمة لنجاح مثل هذه المشاريع لديها ، وفي حال توفر جزء منها ، فانها سوف لاتتمكن من اقامة مشاريع كبيرة على أسس اقتصادية سليمة تتيح لها الحصول على الفوائد المرجوة من ذلك .

٢ - ان عدم تمكن تلك الدول من اقامة تلك المشاريع من شأنه أن يجعلها خاضعة دوماً لهيمنة وتسلط الشركات الاستعمارية ، ولما تفرضه من الشروط وما تلجأ اليه من وسائل وسبل نهب واستغلال ثرواتها الوطنية بعيداً عن مصالح الشعوب صاحبة الحق فيها .

٣ - ان اقامة مشاريع صغيرة في بعض البلدان لاستغلال النفط وطنياً، عدا عن كونه يرهق الاقتصاد القومي بأعباء بالغة ، فإنه يعرض منتجات هذه المشاريع لمزاحمة كبيرة من منتجات البلدان الأخرى التي تتوفر لديها مشاريع ضخمة لمثل هذه المنتجات مما قد يعرضها لخطر التوقف أو انخفاض معدلات أرباحها .

٤ - ان اقامة مشاريع مماثلة في أكثر من بلد عربي للمنتجات البتروكيمائية ، من شأنه تعطيل جانب من رؤوس الأموال العربية في مشاريع سوف تجد نفسها وجهاً لوجه تتزاحم في أسواق ضيقة مما قد يضطرها الى اغلاق حدود كل منها في وجه منتجات البلد الآخر .

ولقد سبق لجامعة الدول العربية أن بحثت موضوع قيام تنسيق وتوحيد لجهود الدول العربية المنتجة للنفط في مجالات استثمار وتسويق النفط ورسم سياسات عربية موحدة بهذا الشأن ، وقد تبلورت هذه الأبحاث عن وضع مجموعة من الاتفاقات نذكر منها :

١ ـ اتفاقية انشاء الشركة العربية لناقلات البترول وتستهدف القيام بعمليات النقل البحري للبترول الخام ومنتجاته ومشتقاته وتصريفه ، وقد عقدت في عام ١٩٦٣ برأس مال قدره (٣٥) مليون جنيه استرليني .

٢ ـ اتفاقية تنسيق السياسات البترولية ، وتهدف الى توثيق التعاون بين البلدان العربية فيما يتعلق بقضايا البترول وخاصة تنسيق سياساتها البترولية والعمل على اصدار قانون موحد لاستغلال البترول ومشتقاته وتبادل الأخصائيين والوثائق والمعلومات البترولية فيما بينها ، وكذلك تبادل الخبراء والفنيين ، والعمل على توحيد نظم الحسابات المتعلقة بصناعة البترول واتباع الأساليب الملائمة للانتاج بشكل يحافظ على احتياطي الزيت وعلى مستوى أسعاره ، وأن يكون مرور أنابيب الزيت ومشتقاته والغاز في بلاد عربية ، وألا تنتهي هذه الخطوط إلا في موانىء عربية ، والسعي لالزام الشركات العاملة في البلدان العربية بعدم تغيير الأسعار المعلنة دون موافقة الدولة مانحة الامتياز ، وألا يقل عدد العمال من المواطنين العرب لديها عن ٩٠٪ . وقد عرضت هذه الاتفاقية على الدول العربية في كانون الاول ١٩٦٣ ووقعت من عدد من هذه البلدان هي، سورية ، العراق، المتحدة ، الاردن .

٣ ـ اتفاقية الشركة العربية لخطوط أنابيب البترول ، وتهدف هذه الاتفاقية الى انشاء هذه الشركة برأسمال قدره (٥) ملايين دينار عراقي بغرض القيام بتمديد خطوط أنابيب لنقل البترول الخام والمكرر ومنتجاته ومشتقاته من أي بئر أو معمل للتكرير في البلاد العربية وغيرها ، وشراء واستئجار الأراضي اللازمة لمد هذه الخطوط ، وانشاء محطات الضخ والمباني اللازمة لذلك ولأعمال صيانة تلك الأنابيب والمساكن اللازمة للموظفين والعمال وشراء وبيع البترول

الخام والمكرر ومنتجاته بقصد نقله وتسويقه . وقد تم انجاز هذه الاتفاقية في أواخر عام ١٩٦٣ .

٤ – مشروع الاتفاقية الخاصة بانشاء المعهد العربي لبحوث البترول . ويقوم هذا المعهد باجراء ودعم البحوث المتعلقة بشؤون البترول في البلاد العربية على النحو الذي يكفل تطوير وتحسين طرق التنقيب والانتاج والتصفية والتصنيع والنقل والتسويق بغية المحافظة على الثروة البترولية بما فيها الغاز الطبيعي وزيادة العائد منها . وقد طرح هذا المشروع على الدول العربيـــة للتوقيع عليه في عام ١٩٦٦ .

٥ – مشروع اتفاقية شركة البترول العربية ، وتهدف هذه الاتفاقية الى انشاء هذه الشركة التي ستكون أغراضها ، البحث والتنقيب عن البترول والمواد الهيدروكاربونية الأخرى واستخراجها وتكريرهـــا وكذلك انشاء الصناعات البترولية والبترو كيميائية ، وعمليات نقل البترول وتوزيعه وتسويقه أو زيادة الفعاليات العربية في صناعة البترول والبترو كيميائيات وتنمية وتطوير الموارد البترولية في البلاد العربية وتأمين كفايتها الذاتيـــة منها ، والقيام بالاستثمارات البترولية في الأسواق الخارجية ، ودعم شركات البترول الوطنية القائمة مالياً وفنياً وذلك فيما لا يتعارض معها أو يؤثر على نشاطها . وقد أنجز مشروع هذه الاتفاقية في عام ١٩٦٥ وطرحت على التوقيع في العام المذكور .

تلك هي بعض أوجه التعاون التي وضعت مشاريع اتفاقاتها سواء من قبل المجلس الاقتصادي العربي أو مؤتمرات خبراء البترول العرب في نطاق جامعة الدول العربية ، الا أن ما تجدر إليه الاشارة أن هـذه الاتفاقات بقيت في حيز الأفكار والأماني المخطوطة ، وأن بعضها لم يوقع عليه العدد الكافي من الدول

العربية ليصبح ساري المفعول بحقها ، كما أن الاتفاقات التي وقعتها الدول اللازمة لم تقترن حتى الآن بتصديق السلطات الدستورية في بعض منها الأمر الذي جعل هذه الاتفاقات بحكم المعطلة .

وفي اعتقادنا أن مثل هذه المشاريع لا يمكن أن تفي بالغرض اذا لم يسبقها اتفاق بين الدول العربية على قيام تنسيق وتكامل صناعي في صناعات البترول والبترو كيمائيات وأن الاسراع في عقد مثل هذا الاتفاق هو ضرورة قومية ووطنية ومبرمة في آن واحد . وذلك بعد أن باشرت بعض الدول العربية القيام بمشروعات صناعية بترولية وبترو كيميائية في نطاق اقليمي وبعيداً عن أي تعاون أو تنسيق مع الدول العربية الأخرى المنتجة للنفط . وما من شك أن هذه المشروعات سوف لا تصطدم في المراحل الأولى بأية صعوبات غير توفير رؤوس الأموال والفنيين والخبراء ، وإذا كان الأمر بالنسبة لدولة تملك معيناً كافياً من رؤوس الأموال كالكويت مثلاً ، فان مشكلتها سوف تبقى في اطـــار الفنيين والخبراء ، في حين أن الدول الأخرى كالعربية المتحدة والعربية السورية والعراق سوف تواجه مشاكل التمويل والاطارات الفنية . وسوف تواجه مختلف هذه الدول في مستقبل قريب بقية الصعوبات الناجمة عن المزاحمة وعن ضيق الاسواق المحلية ، وعن تجميد رؤوس أموال كبيرة في مشاريع متشابهة ، كان يحسن أن تبدأ بالتنسيق والتعاون في هذا القطاع ، بدلاً من أن تنتهي الى الشقاق والمزاحمة والتنازع . خصوصاً وأن فروع الانتاج في قطاع الصناعة البترولية والبترو كيمائية عديدة وواسعة ويمكن توزيعها بين مجموعة الدول العربية المنتجة للنفط بما يحفظ جهودها واستثماراتها ويؤمن لكل منها الفائدة والقوة اللتين ترجوهما .

سمات الاقتصاد العراقي

د. محمود محمد الحبيب

العراق

الحديث عن سمات اقتصاديات العراق ، واهم ملامح البنيان الاجتماعي والتركيب الاقتصادي فيه تبدو سهلة لأول وهلة ، ولكن حينما يبدأ الباحث بالعمل ويعالج سمة أواثنتين، فانه يلاحظ انها ستتفرع الى جهات اخرى تشكل عالماً جديداً يحتاج بدوره الى التحليل.. بعبارة أخرى ، ان العلاقات المتلاحمة بين القطاعات المختلفة وبين المؤسسات القائمة على الامتدادين الأفقي والعمودي تصبح من التشعب والتعقيد بحيث يصعب القول بصورة جازمة أين يبدأ الباحث وبأي المعالم ينتهي . وسنلاحظ

ان الخصائص العامة لاقتصاديات بلادنا تشبه الى حد كبير سمات اقتصاديات الدول النامية ، رغم أن لدينا موارد طبيعية غنية كالنفط والكبريت والغاز الطبيعي والمياه وخصوبة التربة واستراتيجية الموقع ، ثم موارد بشرية تتجلى في شعب فني وذكي ايضاً ..

الخصائص في اطارها العام

اولاً : انتاج المواد الأولية : يتميز العراق بأنه اقتصاد يقوم على أنتاج المواد الأولية . ومعنى هذا ان الانتاج الرئيسي يتكون من المواد الخام كاستخراج النفط الخام ، والمواد الزراعية المختلفة .. وقطاع تعديني وزراعي كهذا يتميز بنسبة عالية من العمال الزراعيين فيه والتي تصل الى ٦٠٪ من القوة العاملة في العراق كما قدرتها بعثة البنك الدولي للاعمار والانشاء ، وقد تصل الى ٨٠٪ كما جاءت في دراسات اخرى . كما انه يتميز بسمة اخرى ان قطاع التعدين يقوم كلياً ، او في غالبيته ، على استثمارات اجنبية سواء في الكشف عن المعادن او استخراجها فانتاجها فتسويقها كما نلاحظ في الصناعة النفطية .

ثانياً : انخفاض الانتاجية : رغم ان الاقتصاد يعتمد على انتاج المواد الأولية ، كالزراعة مثلاً ، ولكن القطاع الزراعي تسوده ظاهرة انخفاض الانتاجية الزراعية وذلك بسبب عدم كفاءة الاساليب الانتاجية ، وقلة استعمال الاسمدة النتروجينية التجارية ، وملوحة التربة والماء وعوامل بشرية .

ويشير الكتاب السنوي لسنة ١٩٥٦ الذي اصدرته منظمة التغذية والزراعة في هيئة الأمم المتحدة .F.A.O انه في الوقت الذي استعملت اوربا فيه ٤٠٪ من مجموع الأسمدة التجارية النتروجينية ، والولايات المتحدة ٣٢٪ منها ، فان دول

الشرق الأوسط مجتمعة لم تستخدم الا ٣٪ من هذه الاسمدة فقط .. ويرى كل من ماير وبولدوين في كتابها (التنمية الاقتصادية) انه بامكان العراق ، بفضل الري الحديث ، ان يزيد مساحة الارض القابلة للزراعة من ٦ ملايين فدان الى ٢٠ مليون .

ويشخص الدكتور محمد سلمان حسن في كتابه (دراسات في الاقتصاد العراقي) الوضع الزراعي بأربع ظواهر أساسية هي :- ضآلة استغلال الأرض، وانخفاض الانتاجية الزراعيـة للدونم والفلاح، وفائض السكان في الريف والهجرة الى المدن ، وأخيراً ظاهرة الفلاحين المعدمين من ملكية الأرض .

ثالثاً : تخلف السكان : المقصود بالدرجة الأولى هنا ان السكان كعنصر انتاجي يتسمون بانخفاض كفاءة العمل وقلة الانتاجية في كافة القطاعات الاقتصادية دونما استثناء ... وقد اشار كالنص وليشتاين في دراسة مقارنة ان كفاءة العامل الانتاجية في الدول النامية تبلغ ٢٠ ٪ فقط من كفاءة العامل الاميركي ..

هناك اسباب جمة لضعف مستوى الانتاجية للعامل في الساعة ومنها : —

سوء التغذية المؤدية بدورها الى تردي الصحـــة فهبوط المقاومة الجسدية وتدهور الصحة النفسية . ومنهـا الأمية والجهل المتفشي ، ونقص التدريب المهني والحقلي ، ثم ظاهرة عدم تنقل العمل Labor mobility بين المهن والمناطق حينما ترتفع الحاجة أو الطلب الى صنف من العمل الفني والماهر ، او حينما تتوفر فرص عمل أحسن .. وهناك الظاهرة ، بل العلة ، المألوفة وهي ازدراء العمل اليدوي او العضلي وتفضيل الوظائف الكتابية مهما كانت ولو درت مورداً ضئيلاً حتى بين خريجي الدورات المهنية الصناعية والمدارس الزراعية والاعدادية ...

وهناك ما يدعوه الخبراء بـ « الجهل الاقتصادي » ، أي جهل المواطنين

بالموارد الطبيعية المتوفرة في العراق ، وجهلهم بأوضاع الأسواق (أسواق طلب العمل) والخبرات المطلوبة فيها ، ثم الامكانيات الانتاجية لأداء عمل ما في احدى الفعاليات الاقتصادية في قطاع خاص او عام . . . ويتحدث الدكتور و . ارثر لويس في هذا الصدد عن اهمية المعرفة الاجتماعية ، اذ قد اعطاها عين الأهمية كالمعرفة التكنولوجية كأساس للتطور الاقتصادي .

ويعود سبب تخلف السكان ايضاً الى التخلف في فهم فعاليات الاقتصاد السوقي وما تجري فيه من عمليات تقوم على أساس الاقتصاد النقدي Money economy بدلاً من الاقتصاد العيني ، فالصفة المميزة في المجتمعات التقليدية هي ان هذه المجتمعات لا تزال مشدودة الى الاعراف السائدة والتقاليد الموروثة في محيط اشبه بالمتحجر منه الى المرن ، والذي يهيمن على الاقتصاد ، بدلاً من اتاحة المجال الى الاستقلال الاقتصادي الفردي .

ولم تقف المؤشرات عند هذه الحدود ، اذ يمكن الاشارة الى عدم فصل القضايا الدنيوية البحتة من القضايا الدينية والروحية ، لقد كان الدين وتعاليمه ولا زال القوة الاجتماعية ـ الاقتصادية المسيطرة على طريقة معيشة الأفراد وسلوكهم ونمط فعالياتهم الانتاجية ونظرتهم الى القضايا الاستهلاكية المادية .

وهناك عراقيل المقاومة القوية التي تخلقها البيئة التقليدية (في الريف والمدن على السواء ، فالهجرة قد جلبت الريف بعاداته الى المدن وعمرتها فيها) لكل تغيير جديد يأتي مع التكنولوجية الجديدة والمعرفة وتطور العلوم وزحف الحضارة الصناعية والعلمية والثقافية ... وهذه المقاومة تبرز لوجود بيئة ثابتة ومستقرة تسيطر عليها التقاليد وتسودها روح الجماعة والنعرة القبلية وتحجرات بعض القيم ، بحيث اصبحت جميعاً عائقاً صلداً امام التطور ..

ومن تخلف السكان نجم ما اكد عليه الاقتصادي جوزف شمبيتر وأسماه بانعدام وجود الرواد Entrepreneurs النشيطين والحساسين تجاه الحوافز الاقتصادية والفرص المفتوحة في معظم المجالات ، والقادرين على تنسيق عناصر الانتـــاج الأخرى لغرض خلق السلع الجديدة والصناعات الجديدة ، والذين هم ، في حقل الريادة ، يشكلون قوة دفع Push - factor في التنمية الاقتصادية كما يقول شمبيتر Shumpeter في كتابه « نظرية التنمية الاقتصادية » .

لقد لعب الرواد دوراً ريادياً مهماً في الصناعات والاستثمارات والادارة والتنظيم في الاقتصاد الغربي في الدور الأول من التنمية الاقتصادية . ولكن دول الشرق الأوسط تفتقر كثيراً الى هـذا العنصر الريادي الكفء المستعد لتحمل عبء المجازفة او المخاطرة في استثمار رساميله في مشاريع جديدة لم تجرب من قبل. وسبب غياب هــذا العنصر الريادي هو ان مجتمعنا لم يزل تقليدياً ، ويقف من الابتكارات الجديدة Innovations موقف الرفض احياناً ، وموقف الحـــذر في كثير من الأحايين . بَيْدَ انه اذا نجح المشروع فإن الاخرين يقلدونه كما نلاحظ في صناعة السمنت والسكائر والنسيج . . . الخ . وهكذا فإنه اذا غاب الرواد فإن الحكومة نفسها تلعب دور الرائد في مجالات التنمية ، كما فعل المصرف الصناعي ومجلس الأعمار ومجلس التخطيط .

رابعاً: شحة الرساميل : ليس المقصود بهذا العنوان انعدام وجود او قلة رأس المال بصورة عامـــة ؛ فالعراق يعتبر من الدول الغنية بوارده النفطية وما تدره من عوائد . . ان ما نعنيه بشحة رأس المـــال هو ذلك الجانب المهيأ لأغراض استثمارية في الرساميل المنتجة وفي رأس المال الاجتماعي . . ويقدر الخبراء

ان البلدان العربية تحتاج الى استثمارات سنوية تقدر بـ ١٤ ٪ من دخلها القومي لتستطيع ان تسير بعمليات التنمية ..

خامساً: الاندفاعية نحو الاستهلاك المظهري . وهذه سمة بارزة جداً في اقتصادنا وسلوكنا كمستهلكين . وقد تحدث الاقتصادي الاميركي تورشتاين فبلن عنه Conspicious Consumptiou، وفحواه اننا نحاول تقليد الجيران فيما نبتاع ارضاءاً لغرورنا ومنزلتنا وزوجاتنا ..

وتحدث عنه اقتصادي اميركي (جان دوزنبري J . S . Duesenberry) في كتابه القيم (الدخل والادخار ونظرية المستهلك ١٩٦٢) .. لقد حلل الدكتور دوزنبري ما دعاه بعامل المحاكاة أو تأثير المحاكاة Demonstration effect وفحواه ان هناك علاقة ايجابية بين كل من دخل العائلة السنوي ونسبة ما يخصص منه لغرض الادخار . ومعنى هذا ان الميل الى الادخار Propensity to Save وبالتالي الميل الى الاستهلاك لا يتوقف على المستوى المطلق للدخل ؛ بل يعتمد بالإضافة الى ذلك على مستوى دخل الآخرين ونسبة انفاقهم .

مثلاً : عائلة البغدادي ذات دخل ٨٠٠ دينار وتدخر منه ٥٪ ، وجيرانها عائلة البصري تنفق كل دخلها البالغ ٤٠٠ دينار سنوياً .. لنفرض ان دخل عائلة البصري ارتفع الى ٨٠٠ دينار (عين دخل الجار) فماذا سيكون سلوكها ؟ يرى دوزنبري انها لن تدّخر ٥٪ منه كعائلة البغدادي بل تنفق كافة الدخل . ويعلل السبب ان الزيادة في حجم الدخل المطلق سوف تلتهمها الرغبة في (محاكاة) الجار البغدادي ، اي تقليده في استهلاكه ، في طراز معيشته ، وفي اقتناء سلع استهلاكية كالتي يملك ..

ويقول المؤلف : تزداد ظاهرة المحاكاة عندما يتسنى لاصحاب

الدخول الواطئة نسبياً ان ترتفع دخولهم . ويستنتج من هذا أن الادخار، كعامل مهم في تكوين الرساميل الاستثمارية ، سيبقى ضعيفاً كمصدر تمويل في التنمية .

وفي دراسة للدكتور نركسه فانه لاحظ ان تأثير عامل المحاكاة لايقتصر على الدول الغنية ، بل انه يعمل بعين القوة نسبياً في الدول النامية .. واني اتفق مع كل من دوزنبري ونركسه . فان المحاكاة – وادعوها في محاضراتي ظاهرة الكشخة – تعمل بقوة في العراق ، فغالبيتنا نقلد الجيران في استهلاكنا المظهري ...

سادساً : العقلية الزراعية : ان صفة الاستثمارات في القطاع الخاص يسودها مادعاه الدكتور سعد ماهر حمزة بالعقلية الزراعية ، أي تفضيل الاستثمار في الاراضي الزراعية وفي شراء العقارات وبناء المساكن السكنية والعمارات ذات الشقق التجارية ، ثم الاتجاه الجديد وهو الاهتمام بتجارة الاستيراد الخاص بالسلع الاستهلاكية . وهكذا فان نسبة ضئيلة من الاستثمار تذهب الى التصنيع بالمقارنة مع الغرب .

ومن عوامل الاستثمارات المحدودة ضعف الادخارات الفردية ، وتفضيل الاكتناز ، وعدم انتشار اجهزة النظام المصرفي ، وتوجيه معظم الائتمان المصرفي الى خدمات الموسرين والتجار ..

ان ضعف الميل الى الاستثمار الصناعي الخاص يعود ايضاً ، كما نفهم من جان مينارد كينز ، الى انخفاض كفاءة رأس المال الحدية .. ان الاستثمار يميل الى الزيادة اذا هبطت نسبة الفائدة على القروض ، او اذا ارتفعت كفاءة رأس المال الحدية .. وكلاهما ، كما قيل ، لايتحققان ، مما يجعل الرواد يحجمون عن استثمارات كهذه ...

سابعاً : ظاهرة التبعية الاقتصادية : ومعناها اعتماد الاقتصاد القومي في تطويره على عوامل خارجية تصعب السيطرة عليها ، وهكذا تترك اثارها على حجم الانتاج وحجم العمالة ومستوى الاسعار بتأثير قوى الطلب الفعال الخارجي على السلعة الرئيسية التي يصدرها البلد كالنفط والناتج الزراعي .. وظاهرة تبعية اقتصادنا تتجلى بارتباطه القوي بدور التجارة الخارجية ، ونموها بدرجة تفوق نمو الدخل الوطني ، ثم دور رجال الأعمال من المصدرين والمستوردين .. ثم جاء دور النفط الخام فجعل التجارة الخارجية تتضاءل الى المرتبة الثانية ،كما يقول الدكتور محمد سلمان حسن .

ويرى المؤلف الدكتور حسن ان بروز ظاهرة التبعية الاقتصادية في العراق يعود الى ثلاثة اسباب : تفاقم التخلف الزراعي ، استمرار التخلف الصناعي ، ثم اختلال توازن التركيب الاقتصادي .. وتتألف التبعية من العناصر التالية :– التبعية في الاستثمار كما في نفط العراق والكويت ، والتبعية المصرفية أي أن الجهاز المصرفي يكون أجنبياً أو فرعاً لها حيث تستثمر الودائع فيه في انتاج سلعة التخصص كالقطن وتمويل استيراد سلع الاستهلاك ، ثم هناك التبعية النقدية كاستعمال الروبية في قطر آخر كعملة رسمية كما حدث في مطلع تاريخ العراق الحديث .

ثامناً : مشكلة عرض العمل : يتسم عرض العمل في بلادنا بعدم التنقل وخاصة الفني والماهر منه . وهذا يذكرنا بدراسة قام بها الدكتور دبليو . ارثر لويس واستنتج منها عدم استجابة قوة العمل لحوافز الدخـــل وتفضيل الفراغ . ويقول ان منحنى عرض العمل يتجه الى اليسار فيصبح سلبياً (مثل حرف د) رغم تصاعد الأجور . . وقد لاحظنا مثل هـذه الظاهرة في الحصول على أساتذة

التدريس في جامعة البصرة ، فغالبية العائدين من الدراسة من الخارج يفضلون العمل في جامعة بغداد .

تاسعاً : ظاهرة الهجرة السكانية من الريف الى المدن : ازدادت هذه الظاهرة منذ الحرب العالمية الثانية ، واشتدت منذ ثورة سنة ١٩٥٨ . وتتجسم خطورة الهجرة من المناطق الزراعية الى المدن الكبرى ، وخاصة بغداد والبصرة ، اذ كانت نسبة الشباب بين المهاجرين عالية جداً حيث اشارت دراسة الدكتور محمد سلمان حسن ان ٨٥ ٪ من العمال الزراعيين قد تركوا الزراعة كما عبر عن ذلك مسؤول في وزارة الزراعة في سنة ١٩٥٦ .

عاشراً : سرعة التبدل : أي سرعة الغــاء أو تحوير أو الغاء التشريعات الخاصة بالقضايا الاقتصادية والضريبية والاجتماعية ، وتناقضها احياناً بسبب تبدل الحكومات ، وتعدد العقائد السياسية ، وعدم الاستقرار الاقتصادي والسياسي الذي ألفه العراق منذ الحكم الملكي ، والذي استمر ، كما كان ، في العهد الجمهوري منذ ١٩٥٨ .

وقد نجم عن هذه البلبلة في التشريعات الحكوميــة اضرار بالمخططات الاقتصادية وخطط التنمية وعوائد الحكومات من الضرائب .. ومن جراء ذلك ايضاً فإن نسبة عالية من واردات الدولة كانت تأتي عن طريق الضرائب غــير المباشرة (بعكس الدول المتقدمة) والرسوم الجمركية التي هي ذات طبيعة نزوليــة او انحدارية Regressive ومع هذا فتأثيرها كبير على ذوي الدخل الواطىء .

أما الضرائب التصاعدية Progressive Taxes أو المبــاشرة وضرائب التركات فمن النادر ما تم تطبيقها ، وخاصة قبل ثورة ١٩٥٨ . فمثلاً بلغت واردات

العراق من الضرائب الكلية ٥١ مليون دينار في سنة ١٩٥٣ ولكن نسبة الضريبة المباشرة منها كانت ٧ ملايين دينار فقط .. ولم نر تبدلاً في السياسة الضريبية إلا بعد الثورة ، إذ اهتمت بضريبتي الدخل والتركات ، وأصبحتا تصاعديتين جداً وخاصة في قوانين التحول الاشتراكي ١٩٦٤ .

أحد عشر : عدم الاستقرار السياسي : ان من البدهي ان هناك علاقة وثيقة بين الاستقرار الاقتصادي في العراق وبين الاستقرار السياسي . ولكننا لم نر إستقراراً سياسياً طويلاً منذ بدء الحكم الوطني .. فمثلاً بعد ان تصرمت ٢٢ سنة على ميلاد العراق ، شهدهذا الوطن ٣٣ تبدلاً وزارياًو٨٥ تقلدوا مناصب وزراء ، ونال نوري السعيد حصة الأسد في رئاسة الوزارات .. أما بعد ثورة ١٩٥٨ فلم تكن الحال أحسن ، إذ ان تبدل الوزارات أصبح مألوفاً ايضاً .. وكل هذه التبدلات تعكس آثارها السلبية على مسيرة التطور الاقتصادي وتنفيذ مخططات التنمية وضمان الاستقرار الاقتصادي ..

اثنا عشر : طغيان المجتمع التقليدي : أي مشكلة الضياع بين مجتمع تقليدي وإحتضان الأساليب التقنية الحديثة .. وبينما يذهب علماء الاجتماع إلى ان تبني الحضارة الغربية معناه تطبيق هذه الحضارة بكافة جوانبها في حياة المجتمع ، فان الكثير من مثقفي الشرق الأوسط يعتقد ان قضية إستيعاب هذه الحضارة وأساليب تقنيتها وابتكاراتها وصناعاتها يجب ان يكون محدوداً في أطر واقع هذه البلدان ..

الحقيقة ان جوهر القضية لايقوم على تطبيق متطرف لواحد من قطبين : أما حضارة غربية كاملة ، أو مجتمع تقليدي مقفل .. ان السبيل هي إتخاذ طريق وسطية . والملاحظ ان التكنولوجية الجديدة التي زحفت على العراق منذ

العشرينيات قد غيّرت وجهه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والصحي ، وليس من السهل مقاومتها .

لعل ماخفّف حدة التخلخل الاجتماعي هو ان التغيير قد اقتصر في أول الفترة على المناطق المدنية ، وعلى الطبقة الغنية المترفة في الهرم الاجتماعي والاقتصادي . وعليه ، ففي رأي المختصين أن المؤسسات الجديدة والأساليب الجديدة لم تحدث تحدّياً قوياً للحياة التقليدية في العراق . ولكن التصادم ظهر بعد الحرب العالمية الثانية بكل وضوح ،حين فرض التغيير طابعاً تحولياً شمل غالبية طبقات المجتمع ومعظم اجزاء الوطن .

ان الحضارة التكنولوجية والثقافية وطراز المعيشة ونمط الاستهلاك وأساليب الإنتاج قد جاءت عن سبيلين : ١ ـ سبيل مباشرة لقدوم الغربيين أنفسهم الى العراق كمستشارين ومهندسين وإداريين ومعلمين ٢ ـ سبيل غير مباشرة عن طريق الابتكارات والآلات أو العدد والسلع الاستهلاكية الجديدة التي لم تكن مألوفة أو متداولة في بيوتنا ، والكتب والمجلات والرقوق السينمائية ... الخ.

ان الطريقة المباشرة هي التي سببت الهزات والتخلخل في الكيان الاقتصادي والاجتماعي ، وأشاعت البلبلة والتذمر ، وجسّمت قضية عدم العدالة الاجتماعية وعدم تكافؤ الفرص الاقتصادية بين فئتين إنشطر المجتمع بينهما ، وهما: ١ ـ فئة الذين يملكون الثروة Haves التي تحقق لهم اشباع الرغبات والحاجات الاقتصادية المتنوعة الكمالية منها ، والضرورية ٢ ـ الفئة التي نطلق عليها مصطلح Have - nots أي الفئة المعدمة الفقيرة والتي يقع معظم أفرادها في أسفل سلم الدخول . هذه الفئة تمثل السواد الأعظم من الشعب العراقي ، ولا زالت هناك .

وهي التي تمثل عين الطبقة في كافة البلاد العربية والدول النامية .. ان التحدي الذي خلقه الموقف غير المباشر للحضارة والتكنولوجية الجديدة كان عاملاً أساسياً في تحريك عجلات المجتمع التقليدي الى هدف جديد هو حياة اقتصادية أرفع وأحسن .

ظهور الطبقة الوسطى : — لم تقف مشاكلنا عند هذا الحد من قصة التفاوت الاقتصادي بين فئة « من يملك » وفئة « من لا يملك »، بل ان التقنيات الجديدة ومعالم الحضارة التي تعرضنا لموجاتها المتعاقبة منذ الحرب العالمية الأولى بصورة خاصة ، قد بدأت تخلق في الهرم الاجتماعي طبقة جديدة هي الطبقة الوسطى Middle Class التي لم يكن لها ثمة وجود مميز الملامح في السابق، إذ كان التركيب الاجتماعي — الاقتصادي القائم Socio- economic Structure مكوناً من :

أ — الطبقة العليا Higherclass المؤلفة من الأغنياء ورجال الأعمال والصناعيين الكبار والاقطاعيين الزراعيين والعقاريين وأفراد البيوتات الكبيرة الذين تألفت منهم طبقة الوزراء ورجال البلاط الملكي ، والذين جند منهم الحكم القائم رجال الإدارة في مختلف الوزارات والسلك الدبلوماسي ... الخ .

ب — الطبقة الدنيا Lower class التي هي القاعدة الشعبية الجماهيرية الفلاحية والعمالية والتي تؤلف قرابة ٩٧ ٪ من الشعب .

ان ظهور الطبقة الوسطى في المجتمع العراقي وان بدت معالمه منذ الثلاثينيات — وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية التي أتاحت فرص الثراء الى الكثيرين عن طريق مشروعة وغير مشروعة — ولكن بروز هذه الطبقة بقوة وبحيث أرست قواعدها قد كان في الأربعينيات؛ إذ ملأت جيوباً وفراغات في التركيب الاقتصادي والتجاري والاداري والمهني والقوات المسلحة بمختلف صنوفها ..

هناك أسباب جمة يجيد صوغها المختصون في علم الاجتماع أحسن منا ، ولكن اقتصادياً مثلي يستطيع الاشارة الى إنتشار فرص الثقافة والعمل والتحلي بروح الرواد (الشومبترين ، نسبة الى جوزف شمبيتر) والثروة وهجرة يهود العراق الى إسرائيل . لقد عملت هذه القوى ، وغيرها طبعاً ، بصورة جماعية لخلق طبقة جديدة على المسرح الاجتماعي ، والتي إحتلت مكاناً اقتصادياً ومعاشياً بين الفئتين الأخريين .. وتتكون هذه الطبقة من الموظفين وصغار التجار والمهنيين وأرباب الحرف في القطـــاع الخاص والمعلمين وباعة المفرد وضباط القوات المسلحة ... الخ .

طبقة عمال صناعيين : وثمة ملامح جديدة على وجه المجتمع العراقي كانت ظهور طبقة جديدة نبعت من صميم الطبقة الدنيا واصبحت في التركيب الاجتماعي فوق مستوى الدنيا مباشرة ، ولكن دون الوسطى اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً .. انها التي تدعى في التقسيم الطبقي الاجتماعي [1] Social Stratification بمصطلح The upper lower c'ass هذه الطبقة الجديدة هي فئة العمال الصناعيين

---

(١) لا نرمي من وراء ابراز هذه الملامح للمجتمع العراقي والتغيير الذي صاحبه اننا نؤيد تقسيم المجتمع الى طبقات فننظر الى اعلى الهرم بالاكبار ، والى الطبقة الدنيا بعين الصغار .. اننا نستخدم علم الاجتماع هنا لتوضيح حركية المجتمع وكيف انه لم يبق نموذجاً ستاتيكياً ساكناً Static model بل نموذجاً حركياً Mobile بحيث اذا تهيأت الفرص والعدالة، فان الفروق الاقتصادية والاجتماعية والطبقية تبدىء بالاضمحلال، وان كنا لا نقول بالتلاشي نهائياً .. وقد اثبت المجتمع العراقي ان طابعه المميز هو الحركية وان الطبقة الدنيا تستطيع أن ترتفع الى الاعلى ، وان الوسطى تستطيع الظهور وتندمج مع العليا .. والعراق اليوم قد اصبح مجتمع طبقة وسطى بالدرجة الاولى، فهي المتنفذة عسكرياً وقيادياً واقتصادياً وثقافياً ، وخاصة بعد ثورة تمرز ٩٥٨ .

الذين نما عددهم مع نمو الصناعة والتصنيع في القطاعين العام والخاص، وحالياً القطاع المختلط .. انهم المعروفون في الادبيات الماركسية « بروليتاريا » .

لم يكن ظهور طبقة العمال الصناعيين غير متوقع ، فالتصنيع الذي بدأ بصورة محققة منذ الثلاثينيات كان السبب المباشر . كما ان صناعة النفط ، وهي أول صناعة ثقيلة، قد خلقت اعداداً كبيرة من العمال الصناعيين ، ولو ان الغالبية من هؤلاء كانوا من فئات العمال غــير الماهرين .. ولعبت صناعات الغزل والنسيج والحياكة والسكاير والزيوت والسمنت والجلود .. الخ دوراً هاماً في تهيئة المناخ الملائم لظهور هذه الطبقة التي هي نتيجة طبيعية للثورة التقنية الصناعية في العراق ، ان صح التعبير .. ومع هذا فان عدد افراد هذه الطبقة في تركيب قوة العمل لم يزل صغيراً ..

نستقطب من هذا التحليل ظهور مستويات جديدة في الهرم الاجتماعي والبنيان الاقتصادي ملأتها فئات جديدتان .. إذن اين تقع المشكلة ؟

المشكلة التي لمسها المراقبون من رجال علم الاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية والادارة والانتروبولوجي هي ان الطبقة الوسطى في العراق (وعمرها لا يزيد على عقدين من الزمن) لم تر في القيم والمعايير والمثل التقليدية المألوفة لدينا Traditional Ways مخططاً يستطيع ان يحل المشاكل المعقدة التي قذفها المسرح الجديد في وجهها .. وبعين الوقت ، وفي ذلك محنتها الكبرى ، فانها لم تستطع احتضان الحضارة الغربية واساليبها الانتاجية وانماط تكنولوجيتها ومخططاتها الاقتصادية المختلفة ككل ، ودونما رد فعل قد يصل احياناً الى الرفض القريب من المطلق .. ان الطبقة الوسطى الجديدة في العراق قد ظلت تائهة بين تيارين قويين وفلسفتين عتيدتين ..

وقد تفاقمت المشكلة لأن الصناعة ومخططات التصنيع التي جاءت بعد أن القت الحرب الثانية اوزارها كانت ذا طابع يتصف بالسرعة النسبية لما الفنا في العراق ، ولم تكن البلاد متهيئة لها ذهنياً وفنياً ومالياً واداريا وثقافياً كما يجب .. ومن جرّاء هذه القوى المتفاعلة ، والفعل وردود الفعل ، واصطراع القيم والمعايير والفلسفات وقوة ركائز المجتمع التقليدي بجموده المألوف ، وانكماشه القوي ، وبدائيته الراسخة ، فقد تمّ تبلبل اجتماعي وقيمي ..

ومع هذا وكما ارى ، فان التكنولوجية – كقوة دفع Push Factor قد أدّت غرضها ، فخلقت طبقة وسطى تجارية وصناعية وفنية ، رغم ان هذه الطبقة لم تكن (وربما لا زالت) ذات مخطط ثابت ، وبلا مخطط علمي حتى اليوم .

لقد قال أحد المسهمين في وضع تشريعات التأميم لسنة ١٩٦٤ في العراق ما يلي : « افادت نتائج تجربة التطبيق ان الاشتراكية في العراق قد فشلت في تحديد موقف واضح من الطبقة الوسطى ، وخاصة الصغيرة منها .. وقد وقفت معظم هذه الطبقة موقفاً عدائياً وسلبياً من عملية التحول الاشتراكي بسبب عدم وعيها لموقف الايديولوجية الاشتراكية منها ، او لعدم وضوح هذا الموقف أصلاً ، ولنجاح الرأسمالية في التأثير عليها (على الطبقة الوسطى) وتوجيهها لما يخدم مصلحة تلك الطبقة » .

ورغم ايماني شخصياً ان الطبقة الوسطى لا زالت غير مستقرة نهائياً في مواقفها ، ولكن هل هناك طبقة وصلت الى قرارات جدية سواء بالنسبة الى الاشتراكية كنظام ، والى التأميم كمرحلة من مراحله ، او الى أية قضايا اخرى؟

اني لا اتفق مع هذا الرأي الصارم المبين اعلاه في اتهام الطبقى الوسطى ككل بموقف سلبي ، فعدائي ، كسبب هام في تعثر قرارات التأميم .. ولعل

معظم الاسباب تعود الى طبيعة القرارات نفسها ودوافعها وطرق تنفيذها والاجهزة التي قامت بالتطبيق .. ان معظم الفشل ، كما اراه ، يعود الى علتنا الكبرى — التخلف السكاني في العراق بكافة اشكاله .

ثلاث عشر : طغيان الاستثمارات الأجنبية كأهم قوة اقتصادية محركة في الهيكل الاقتصادي العراقي .. نحن لا ننكر أهمية الاستثمارات والرساميل الانتاجية الاجنبية ؛ فانها تهيء التمويل المطلوب والذي لا يتوفر لدى البلدان النامية ، وتعين على تدريب الموظفين والعمال والاداريين والفنيين ، وتجلب الى البلد المعرفة التقنية Know - How ، كما انها تخلق فرص العمل وتقلل من صب الاستثمارات الوطنية في ذلك القطاع نفسه ، بحيث يمكن توجيه هذه الاستثمارات الى مجـــالات أخرى ، فتقضي على مشكلة ندعوهـا في الاقتصاد بالاختناقات ، او اعناق الزجاجات Bottle necks ، وتعبد الطريق للوفورات الداخلية والوفورات الخارجيـــة Enternal and external economies وهناك فوائد أخرى كخلق اسواق جديدة تمد الصناعة الأجنبية بما تحتاجه من سلع وخدمات ، ومواد اولية لبعض فعالياتها الانتاجية ، وكخلق صناعات تكميلية ..

هذا حق لا ينكر ... ولكن الاستثمارات الأجنبية ذات وجهين : اولهما الجميل الذي اشرنا الى قسماته ، وثانيهمـا القبيح ، فالاستثمار الأجنبي في في العراق كان منذ منطلقه قبل قرن الى قرنين من الزمن منصبـــاً على الصناعة الاستخراجية والقطاع التصديري فقط ، كما رأيناه في التأكيد على النفط والناتج الزراعي والحيواني ، بحيث ربط اقتصادنا بتبعية اقتصادية لم تزل تلتوي على سفودها .. والاستثمار الاجنبي دائماً وابداً يميل الى الاستغلال الاقتصادي والسياسي ونهب خيرات البلاد وتقوية مراكز الاقطاع والرجعية وجيوب المقاومة لكل محاولات

التحرر الوطني ، ثم التدخل السافر والمستتر في شؤون بلادنا الداخلية ، واستخدام الضغط الاقتصادي والاحتكار الدولي ضدنا .

اذا أضفنا الى هذا ما اسميناه في الفقرة (٧) بتبعية الاستثمارات ، وما تحدثنا عنه في الفقرة (١) عن اعتماد البلد النامي في تصدير سلعة واحـدة يعتمد عليها الاقتصاد القومي في حوالي ٨٠ ٪ من ايراداته في الميزانية العامة ، فإن خطورة الاستثمارات الاجنبية تبدو من الوضوح بمكان بحيث لانحتاج الى مزيد من الشرح .

لنكن على مستوى عالٍ من الصراحة في مجابهة الواقع فنتذكر ماحدث عندما توقف ضخ نفط العراق الى موانىء البحر المتوسط ، وعند حدوث أزمة قناة السويس، وعندما حلت نكسة حزيران ١٩٦٧ . ان شركات النفط الاجنبية العاملة في العراق بإحجامها عن رفع مستوى الانتاج السنوي ، وبعدم تسويتها بصورة سريعة قضية خلافها مع الحكومة في الجمهورية العربية السورية حول عوائد مرور النفط ، وبتلاعبها في احتساب حصة العراق من العوائد ، وبهبوط الانتاجية بعد تشريع القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١ قد اضرت بدخلنا القومي واقتصادنا وحقنا المشروع في نفطنا عوائدنا ، خاصة وأن ٥٠٪ الى ٧٢ ٪ تذهب الى سد نفقات الدولة ، و ٢٨ ٪ الى ٥٠ ٪ تذهب لأغراض التنمية الاقتصادية من هذه العوائد .

واذا ادركنا اننا شعب استهلاكي بالدرجة الاولى فالمصيبة اعظم (١) .

---

(١) للبرهنة على اننا شعب استهلاكي فان عدد موظفي ومستخدمي الدولة بلغ في نهاية سنة ١٩٦٦ ، حوالي ٣١٢ الف (عدا منتسبي وزارة الدفاع) تقاضوا ١١٣،٥ مليون دينار سنوياً . المصدر دائرة الاحصاء المركزية في وزارة التخطيط . =

ومن هنا تتبع اهمية انبثاق صناعة نفط وطنية مستقلة ، وصناعات في حقول الكبريت والغاز الطبيعي ومشتقات النفط، وصناعات اخرى لملء الفراغ ورفع سيف شركات النفط المصلت على رقبة اقتصادنا القومي .

اربع عشر :- ظاهرة التضخم النقدي Monetary inflation التي لازمت طبيعة الاقتصاد العراقي منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم، وان كانت بمستويات متفاوتة . والاسباب الرئيسية التي تكمن وراء هذا التضخم هي عدم ملاءمة السياستين المالية والنقدية Monetary and fiscal Policies ، وعدم استقرار التشريعات الصادرة في توجيه الحياة الاقتصادية في البلاد ، ثم الانفاق الكبير الذي يقوم به القطاع العام على الخطة الخمسية الأولى والثانية في الخمسينيات ، والخطة الاقتصادية المؤقتة وما تلاها .. ومن المعروف في النظرية الاقتصادية ان

جهة التوظيف	عدد المنتسبين	مجموع الرواتب السنوية (دينار)
وزارة البلديات والاشغال	٣٣،٦٠١	٨،٨١٣،٤١٧
وزارة المواصلات	٤٥،٩٩٨	١٤،٨٣٥،٧٠٠
وزارة الداخلية	٦٣،٣٧١	١٥،١٨٠،٥٦٤
وزارة التربية	٦٨،٤٩٣	٢٤،٤٦٥،٥٣٦
اجانب	١،٥٧٦	١،١٩١،٣٣١
ومعنى هذا :-		
١ - الدوائر الرسمية	١٨٥،٢٤٣	٧٣،١٧٣،٧٨٦
٢ - الدوائر الخاصة وشبه الرسمية	١٢٦،٦١٢	٤٠،٢٧٠،٨٧١
مجموع الفقرتين	٣١١،٨٥٤	١١٣،٤٤٤،٦٥٧
(عدا وزارة الدفاع ومنتسبيها)		

المصدر : كما نقلته جريدة النور البغدادية (العدد ٣٠ بتاريخ ١٤/١١/١٩٦٨) نقلاً عن نشرة لوزارة التخطيط - قسم الاحصاء المركزي .

كتنا السياستين قوة فعالة في خدمة الأغراض التالية : آ ـ التأثير على كيفية توزيع المصادر الانتاجية ب ـ تغيير نسب توزيع الدخل القومي على هذه المصادر الانتاجية جـ ـ الحد من تفاقم ظاهرة التضخم وما ينجم عنها من آثار على الفعاليات الاقتصادية والدخول الفردية (١) .

خمس عشر : **التركيز على التجارة الخارجية** : وهو مما اشرنا اليه بالتبعية الاقتصادية ، ومعنى ذلك ان الهيكل الاقتصادي يعتمد في اطر قطاعاته المختلفة على انتاج مواد اولية لغرض التصدير ، والحصول على موارد مالية وعملات صعبة لدعم نفقات البلد وتطويره .. وقد اظهرت الدراسات والبحوث المختلفة على ان ميزان المدفوعات التجاري كان سلبياً منذ سنوات طويلة ، واننا شعب يستورد اكثر مما يصدر (٢) ، رغم ان تصدير النفط الخام يشكل نسبة كبرى من صادراتنا في هيكل التجارة الخارجية . ولم تنجح مختلف السياسات في التقليل من هذا الاتجاه . ولعل اهم الاسباب عدم استطاعة الصناعات المحلية سد حاجة السكان ، وتصاعد كلف الانتاج ، والمنافسة الأجنبية .

ويقول الدكتور محمد سلمان حسن إن نمو الاستيراد الاستهلاكي قد انذر بتدهور الصناعات اليدوية المحلية في اوائل القرن الحالي في العراق ، كما ان

---

(١) لتلخيص مركز في موضوع التضخم، نظرياته ، اسبابه ، فوائده، اخطاره ، وهل يصلح كسياسة تمويلية في التنمية الاقتصادية ، راجع الدكتور محمود محمد الحبيب « نظريات التضخم في الفكر الاقتصادي » مجلة عالم الاقتصاد ، بغداد العدد الخامس ، شهر تموز ١٩٦٨

(٢) من الدراسات القيمة في هذا الباب : « التطور الاقتصادي في العراق » للدكتور محمد سلمان حسن (بيروت ١٩٦٧) وهي رسالة الدكتوراه . وراجع الدكتور عبد الرحمن الحبيب : تطور تجارة العراق الخارجية ١٩٤٠ - ١٩٦٥ القاهرة ١٩٦٧)

الصناعات الاستهلاكية كالزيوت النباتية والبيرة وغيرها ، والصناعات الانتاجية كالسمنت لاقت تخلفاً زمنياً امتد الى ٢٠ سنة .. كما ان العراق خلال الفترة ١٨٦٤ – ١٩٥٨ كان يكيف تركيب اقتصاده التقليدي ، كما يقول ، الى السوق الرأسمالية العالمية التي اصبحت مفتوحة له بسبب تطور وسائل النقل الحديثة ، وبحكم التوسع والتغلغل الرأسمالي الاستعماري ، فانتقل من الاقتصاد « الجنيني » الى اقتصاد « متطور تابع الى النظام الرأسمالي العالمي »[١].

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥٣ . لمعرفة تطور التركيب الاقتصادي العراقي راجع ص ٤٥٣ - ٤٦٤ في عين المصدر .

الاشعار ..

ماقالته .. ومالم تقله !

خناميـنه

للشاعر الفرنسي بول ايلوار عبارة تقول : على الشعر أن يمنح الرؤية للناس .. وبول ايلوار شاعر ومناضل كبير ، لم يكتف بالقصائد التي تمنح الرؤية للناس ، ولا بالتغني بالحرية التي كتب اسمها على كل شيء : طـاولته وكتبه ودفاتره وأوراقه .. بـل كان هو نفسه ، ذات صباح ، المشعل الذي أضاء لينير دروب الرؤية ، والانسان الذي وطـأ الموت بالموت [1] ، وقرع باب الحرية بقبضـة الشهادة ، فكان أعظم قصيدة لأعظم رؤية ، أو كما قال عمر فاخوري عن الشاعر الشهيد عمر حمـد [2] : « القصيدة التي رفعتها الأرض الى السماء » صلاة على اسم الحق ، وحربة له في جنب الباطل .

(١) قاوم النازيين ابان احتلالهم لفرنسا في الحرب العالمية الثانية فأعدموه .

(٢) قاوم العثمانيين ، فأعدموه مع شهداء ٦ ايار ١٩١٦ في بيروت .

وقـــد ألحت عليّ عبارة ايلوار إلحاحاً وأنا أحضر مهرجان الشعر في بغداد ، وأستعرضُ العدد الكبير من الشعراء الذين سجلوا أسماءهم للإلقاء ، في جلسات خمس ، تبدأ ببغداد وتنتهي فيها ، مروراً بالناصرية والبصرة والحـــلة والزبير ، أي بمعدل خمسة وعشرين شاعراً تقريباً للجلسة الواحدة .

في الاقتصاد ان العملة الرديئة تطرد الجيدة . وقلت في نفسي : أواه ! أنكون في بورصة الشعر أم عكاظه ؟ ولم يطل التساؤل : إعتذرأدونيس ، وكان سابقي في الجلسة الأولى ، لأن قشر الشعر ، الذي ستعصف بـــه كف الحماسة العمودية وتصعد بـه زوبعة نقعية ، سيغطي سطح بحيرة لامارتين ويحجب جمالاتها . وكان على خطأ في تقديره ، لأن سلافة الحجاوي ، الشاعرة التي رغبت عن عمودية الشعر ، وعن قافيته ودويّه ، قد ثبتت بالهمسة للزوبعة ، وصنعت لنفسها زوبعة اخرى ، واعية وصادقة ، وأكدت الحقيقة الكبيرة لهذا المهرجان، وهي أن الشعر شعر ، عمودياً كان أم غير عمودي .

غير أن الشعر كالموسيقى ، كالخمرة ، كالجمال ، كالسنار ، حين نبلغ منه حداً أقصى ونزيد ، يتجاوز مرحـــلة الامتاع الى الإشباع ، وبعد ذلك يستوي الجيد والرديء ، ينقلب الى الضد . وهواة التحف يعرفون هذه الحالة ، فيحجبونها زمناً ليستمتعوا بها زمناً . والذين يدهشون لفتور رجل أمام جمال زوجـــه ، لا يأخذون في حسابهم أن العين تمل ، والأذن تمل ، واليد تفقد لذة الملامسة الحريرية ، إذا واصلت ملامسة الحرير ، حقيقة ومجازاً .

لجنة الشعر ، التي أقرت قبول هذه الكثرة من الشعراء – وخاصة من القطر العراقي – قد تكون معذورة ، لان الشعر في العراق خبز يومي للناس ، ولأن الشعراء ينتمون الى فئات واحزاب ومدن وأقاليم وقبائل . ورفض شاعر

- مهما يكن مستواه ، « اهانة » تتعدى شخصه الى جماعته وقبيلته ومدينته . فكان على اللجنة أن ترفع صولجان الشعر على رأس اصبعها وتحافظ على توازنه . وقد حافظت ، ولكن على حسابنا ، ورغبت في أن تكون ذكية فكانت . ولكنها ، بهذا الذكاء ، أظهرت أنها لجنة ناجحة لتنظيم الحفلات لا لتقييم الشعر ، لان الاحتفاظ بالشعراء المبدعين الى أواسط الجلسة أو نهايتها ، يعني ارغام الناس ، أو اغراءهم ، بالبقاء ، حتى تنفق « البضاعة الشعرية » الكاسدة ! وقد تبين ان ثمة حركات شعرية تنتظر « سوقاً » من هذا النوع .

من بين هذا العدد الكبير من الشعراء ، الذين خاطبهم الجواهري بقوله: (يا قادة الفكر ، ويا قادة الشعر ، لو لم يكثر العدد) برزت أسماء هي من شعرنا الكلاسيكي والحديث في المستوى المشرف حقاً . واذكر من الذين مثلوا العراق وبرزوا : محمد مهدي الجواهري ، مصطفى جمال الدين ، حارث الراوي ، الفريد سمعان ، محمد سعيد الصكار ، فاضل عزاوي ، نازك الملائكة ، عبد الرزاق عبدالواحد ، وطائفة اخرى من الشعراء الشباب . ومثل مصر محمود حسن اسماعيل ، محمد مصطفى الماحي ، العوضي الوكيل ، محمد التهامي ، عبده بدوي ، احمد عبد المعطي حجازي ، روحية القليني ، ملك عبد العزيز . ومثل سورية سليمان العيسى ، ومحمد الحريري ، وممدوح عدوان ، وعلي كنعان . ومثل فلسطين : ابو سلمى وسلافة الحجاوي . ولبنان : ادونيس ، وخليل الحاوي ، وفؤاد الخشن . والسعودية : عبد الله القرشي . والاردن : عبدالله الروسان ، وليبيا : راشد السنوسي ، وغيرهم . وجاء نزار قباني بدعوة من الحكومة المضيفة ، وأعلن منذ وصوله ، وسط ضجة في الصحافة وضجة في الأروقة ، انه سليقي قصيدة عمودية ، ويثبت انه شاعر ،

بأية طريقة تكتب الشعر . وقلنـــا أنعم وأكرم . وانتظرنا القصيدة لنحكم لها أو عليها .

سوف أعترف انني لم أستطع متابعة كل الشعر الذي قيل . استشعرت ، أحياناً،أن الكلمات مطارق على الصدغين ، وان أبيات القصائد تتحلل الى مسارب مائية في صحراء لاصخرة فيها ، وان هذه المسارب تتحول الى سواقي ، والسواقي الى روافد ، وهذه الى نهر متدفق سيغرقنا . ورحت أبحث ، بالاظافر في أرض موات ، عن النبت الشعري لأسقيه من دمعي وحبي ، وحين أيأس اغادر القاعة لاستنشق الهواء .

القصائد كلها التقت عنـــد جرح فلسطين . كانت سياسية اذن ، وهنا الصعوبة والسهولة ، لأن الجرح الذي في الصدر غير الوشم الذي على الكف . وكان تصوير هذا الجرح ، في غوره وصدق دمائه ، هو العلامة المميزة للاضافة الشعرية الجديدة، وقد قدمها اصحابها بصفاء الحقيقة وبساطتها معاً . أماالآخرون فكانوا يصرخون ، وحين يكون صراخ لايكون فن ، لايكون شعر ، ولا رؤية شاعرية .

محمد الحريري كان الوحيد الذي قدم قصيدة غزلية رائعة في الناصرية ، فكانت قطرة الندى على عشب البادية في معركة ستالينغراد ، على ما دونت المذكرات ، ووسط الهول الأكبر الدماء ، رأى جندي وردة على طرف خندق، فقطفها وعلقها وراء اذنه . كان انساناً ، وكان مقاتـــلا ، ولأنه كذلك صبر وانتصر . انما الحب ، في بعض معانيه ، اعزاز للحياة . ومن لايعز الحيـــاة لايستبسل في الدفاع .

وسليمان العيسى ، في رحاب دار المعلمين التي شهدت دراسته وصباه ، استهل قصيدته مستغفراً أرض المعركة أن يعود الى الاطلال ، وأنشد :

خذي شفتي يادار وليركع الحب   يسلم عند الباب بالدمعة الهدب

وقد سألني كاتب بولوني ، جاء المؤتمر مراقباً ، عما اذا كان المهرجان ، في ختامه ، سيختار أفضل قصيدة لأحسن شاعر ، فقلت له : لا ، وقلت في نفسي : ماذا يحدث لو أقدم المهرجان على فعلة كهـــذه ؟ ذلك أن أكثر الشعراء كانوا سيجدون أنفسهم مقبولين ، لان كلا منهم جاء المهرجان وفي جيبه قصيدة يحسبها كافية لربح معركة فلسطين . ومن هنا انطوت اكثر القصائد على المباشرة ، ولم نفز الا بباقة منها ، كانت ذات قضية ، وذات رؤية ، وذات شاعرية بالأصل .

من هذه سأذكر قصيدة الجواهري ، وقصيدة سليمان العيسى ، واحمـــد حجازي ، والصكار ، وعبد الرزاق عبد الواحد ، وسلافة الحجاوي ، ومصطفى جمال الدين ، وممدوح عدوان ، ونزار قباني . أما الجواهري فقد ركز على ناحيتين : محنة الحرية في أوائل الستينات ، وقصور الادباء ، في مؤتمراتهم ، عن التصدي لها . ثم قضية الاخلاق ، ومفهومنا القياني لها ، وذلك في قصيدته الثانية في الناصرية ، التي قال فيها تعليقاً على قرار وزير عراقي بمنع الميني جوب بحجة انه يتنـــافى مع العفاف :

نبئت انك ترسع الازياء عتاً واعتسافا
تقفو خطى المتأنقات كـائر الاثر اقتيافا
وتقيس بالأفتار اردية بحجة ان تنـــافى
ماذا تنافى ؟ قل لنا هل ثم من خلق ينافى
حوشيت ،أنت ارق حاشية ولطفاً وانعطافا

أترى العفاف مقاس أقمشة ؟ ظلمت اذن عفافا
هو في الضمائر ، لا تخاط ولا تقص ولا تكافى
من لم يخف حكم الضمير فمن سواه لن يخافا

ولسوف تفسر قصيدة الجواهري هذه على انها « قضية ميني جوبيه » ، كما ستفسر قصيدته في بغداد على انها موقف شخصي من الحرية ، وكلا التفسيرين خاطىء . فالحرية لا تتجزأ ، والتزمت لا يتجزأ . والحديث عن نكساتنا يظل في المطلق ، اذا نحن لم نضع أصبعنا على بعض اسبابه . ومنها الحجر على الكلمة . والحفاظ على « العقلية القماشية » للشرف والعفاف ، والتقوقع في سراديب الماضي ونحن نواجه تحدي العصر . ان الذين يحصرون الشرف في الجنس وحده ، يصح ان نذكرهم بفضيلة بعض الحشرات . قال انكلز : إذا كان الشرف ، في مفهوم بعض الناس ، هو الجنس وحده ، فالمجد اذن للدودة الوحيدة » .

لقد كان الجواهري ، ودون حسبان سوى للشعر ، صوتاً هادراً ، من الحاضر ومن وراء ألف عام ، يذكر بالمتنبي في قوة الشعر وفحولته ، ويذكر بايقاع العصر ، في جدة النظرة ومستقبلية الطموح . وكان ، وهو ابن السبعين ، فتى في الروح والتدفق والجرأة ، بلغ من شأنه انه كان في مظاهرة من المعجبين حيثما اتجه . وكان الناس يحيونه ويهتفون له ، وقد خرجوا عن الحد مرة فحطموا أبواب وزجاج جامعة البصرة يريدون رؤيته . هو الذي دخل القاعة وليس له من متاع الدنيا سوى مجده الشعري . اما عندما وقف يلقي في بغداد ، فقد سيطر على القاعة بجناحي نسر ، نافضاً هرم السنين كساحر اسطوري .

وشاعر آخر كان رائعاً في إلقائه وشعره ، هو أحمد عبد المعطي حجازي . صورة سينفونية مهيبة لنكسة حزيران ، تتبعت خطوطها من رمال سيناء ،

وتتجمع على قرار أناشيد الجوقات في المسرح الروماني ، حيث تحمل التراجيديا في ذاتها هول المأساة وروح الملحمة ، ثم تتلاقى الخطوط في لوحة للفاجعة لا لليأس ، في نداء للثأر الذي تقول الاسطورة ان ضحاياه لا يرقدون في قبورهم حتى يتم :

ها نحن من يونيو
نسير ولا نزال
نسير ، نغوق ، ثم نطفو في الرمال .
البدو قالوا مصر صوب الغرب
لكن الليالْ ،
تمضي وتتبعها الليالْ
ومصر لايبدو شعاع من مآذنها الطوالْ .

. . .

ها نحن من يونيو نسير ولا نزال
راياتنا اهترأت وجفت فوق أعظمنا الجلود
حتى تشابهنا كأنا من أب
أو مثلما يتشابه الموتى بأعماق اللحود
موتى .. كأنا قد قتلنا دون أن ندري
فما زلنا نسير
وكأنما لايسقط الموتى .. اذ الموت اغتيال
ونحن من يونيو نسير ... ولا نزال .

ويجيء ، بعد انتظار ، دور نزار قباني في قصيدته العمودية . ان نكران

شاعرية نزار كسكران الحقيقة، ومن المؤسف ان الكلام على هذا الشاعر يصطبغ دائماً باللونين الابيض والاسود . قبول ككل ، أو رفض ككل ، مدح حتى لا مزيد ، وقدح حتى لا مزيد ، مع ان أعماله الشعرية ، تستحق نظرة أخرى ، جدية ، محصورة في شعره لا في شخصه – وان كان لا انفصال – ومقصورة على أعماله في وقتها ، لا قبلها ولا بعدها

الناقد المصري غالي شكري صرح في المهرجان : « شعر نزار نرجسي قبل النكسة، سادي بعدها » وقد يكون هذا صحيحاً – في الحصيلة العامة – ولكن ما البرهنة على صحته ؟ ان الذين يتجاهلون الطبقة التي ينتمي إليها نزار ، عند الكلام على شعره، يضيعون مفتاح هذا الشعر . الطبقة البورجوازية المتوسطة هي التي أعطت هذا الشاعر . وكان في وسعه ان يكون، بوصفه مواطناً وانساناً، في الموقف الوطني والانساني الذي اتخذه جزء من هذه الطبقة ، في أوقات معينة ولظروف معينة . لكنه لم يكن ، بل ظل، في موقفه الطبقي ، بالاتجاه الآخر، المرتبط بالبورجوازية الكبيرة ، اليمينية غالباً .

ان الملكية الخاصة تشكل الاساس المادي النهائي للاحساس البورجوازي، وتجبر « الانسان البورجوازي » على النظر الى الطبيعة والمجتمع من زاوية العلاقة النفعية الخارجية فقط . اما الشعور الذي تنتجه – وتأمره – فهو المحدودية في الرؤية . وتظهر هذه المحدودية عند الانسان البورجوازي ، قبل كل شيء ، في أن « الأهواء كلها ، واي نشاط يجب ان يغرق في شهوة الكسب[1] » . وتشكل الملكية الخاصة ، الكبيرة ، والمال ، في هذه الحال قوة افساد للفرد كما للعلاقات

---

(١) راجع كتاب الجمال في تفسيره الماركسي ص ١٣٢ - ١٣٣ ، مطبعة وزارة الثقافة السورية .

الاجتماعية . فهما يحيلان كل شيء الى ضده ، ويحدثان اضطراباً عاماً واختلاطاً في الاشياء جميعها ، ويجعلان النظرة الى الطبيعة والانسان نظرة احتقار ، لان شهوة الغنى والظمأ الى التملك وتكديس الثروة يخلقان في الانسان البورجوازي الروح النفعية الفظة والتفاهة والعجرفة والهوس المجرد نحو الملذات .

ونزار ، الذي ارتبط ، منتمىً ومصلحةً وعقليةً وثقافةً وشعراً ، بالطبقة البورجوازية الكبيرة ، وتبنى مواقفها ، ورأى الاحداث بمنظارها ، قد انعكست روح هذه الطبقة النفعية ، الفظة ، المتعجرفة ، المهووسة هوساً مجرداً بالملذات ، في شعره قبل النكسة :

لم يبق نهد أسود أو أبيض	الا زرعت بأرضه راياتي
فصلت من جلد النساء عباءة	وبنيت أهراماً من الحلمات

ونزار ، وهذا تشكله وموقعه ، هو الذي عبر عن روح الجزع بعد النكسة ، وعن الميل الى التشفي وتجريح الذات ، ونشر الخور واليأس والشعور بالعجز امام المصاعب ، فقال :

نحن خائبون
نحن مثل قشرة البطيخ تافهون
نحن كالنعال منخورون

وحتى عندما قال في قصيدته « فتح » :

ياشعرنا كن غاضباً
يانثرنا كن غاضباً
ياعقلنا كن غاضباً

ظل غضبه بدون هوية : مع من وضد من ؟ فاذا رجعنا الى قصائده وجدنا هذا الغضب في اتجاه يدعو الى الريبة ، تتلامح في ثناياه ، وربما دون تقصد، بل بدافع من الحس البورجوازي اليميني الذي أشرنا اليه، ايماءات للشماتة وتشهيرات مبعثها الحقد الطبقي والاحتقار للآخرين ، الذين لا يمكن أن تجمعه معهم وحدة مصالح الأمة ، لأن الامة ذات الطبقات ، تسرف طلائعها في الوهم إن هي اعتقدت أن المصالح الطبقية واحدة ، حتى في المسألة الوطنية ، وحتى في المسألة المصيرية ، وقد برهنت الأحداث على ذلك .

ونحن نريد أن ننصف نزار قباني . شاعر هو ؟ نعم ، ولكن ماهو الموقف الشعري لديه ؟ في أي طرف ، من ساح المعركة ، يزرع راياته ؟ لنعد الى شعره بعد النكسة قال في هوامشه :

شعراء الأرض المحتلة
يا من أوراق دفاتركم
بالدمع مغمسة والطين
يا من نبرات حناجركم
تشبه حشرجة المشنوقين
يامن ألوان محابركم
تبدو كرقاب المذبوحين
نتعلم منكم منذ سنين
نتعلم منكم
كيف يغني الغارق من أعماق القبر
كيف يسير على قدميه القبر

نتعلم كيف يكون الشعر

فهل تعلم نزار ، من أوراق شعراء الأرض المحتلة ، كيف يكون الغناء من أعماق البئر ، وكيف يسير على قدميه القبر ، وكيف يكون الشعر ؟ سوف نرى ..

سميح القاسم ، وهو من شعراء الأرض المحتلة . قال بعد النكسة :

« نحن في الخامس من حزيران ولدنا من جديد »

وقال أيضاً :

هذي الحروف المدلهمة . ياسيدي أحزان أمة
فاشحذمداك على جراحي لأنني قربان كلمة

وقال :

مقطوعة الضفائر ياحبيبتي
في الوحل ياحبيبتي
في الشوك في الحفائر
مقطوعة الوريد ياحبيبتي
مقطوعة الأظافر
ولم يزل جبينك المنارة
في عتمة الضمائر
ولم يزل صوتك ياحبيبتي
فضيحة القاتل .. بعد ليلة الخناجر
ولم أزل أنتظر الاشارة
لأشعل المجامر

لأنني مازلت ياحبيبتي
اومن في فجيعتي
بالضوء والانسان والحضارة .

ومحمود درويش ، وهو شاعر آخر من الأرض المحتلة ، يقول من أعماق زنزانته :

وطني يعلمني حديد سلاسلي عنف النسور ورقة المتفائل
ما كنت أعرف أن تحت جلودنا ميلاد عاصفة وعرس جداول
سدوا علي النور في زنزانة فتوهجت في القلب شمس مشاعل

. . .

اغمدت في لحم الظلام هزيمتي وغرزت في شعر الضياء أناملي
والفاتحون على سطوح منازلي لم يفتحوا الا رعود زلازلي
لن يبصروا الا توهج جبهتي لن يسمعوا الا حرير سلاسلي
فاذا احترقت على صليب عبادتي سأعود قديساً بزي مقاتل

وهو يقول ، وقد هزته مذبحة الطغاة في قرية كفر قاسم :

يا كفر قاسم
من توابيت الضحايا سوف يعلو
علم يقول :
قفوا ..
قفوا ..
واستوقفوا ..
لا لاتذلوا ..

دين العواصف أنت قد سددته

وانهار ظل

يا كفر قاسم لن ننام

وفيك مقبرة .. وليل

ووصية الدم لاتساوم

ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم

أن نقاوم .

وشاعر ثالث من الأرض المحتلة هو توفيق زياد ، يقول :

يا أمي التي في عنقها الاغلال

ياشعبي الذي يريده الطغاة

أن يقبل النعال ..

ياشارعاً تزحم فيه بعضها مواكب الرجال

يا اخوتي العمال

أحييكم جميعكم

أحب كل قبضة مهزوزة

في أوجه الأنذال

وكل جبهة شامخة في ساحة النضال

وكل كلمة جريئة .. تقال .

وتقع النكسة فيهتز لها وجدان هذا الشاعر ، لكنه لاييأس :

.. ثم ماذا بعد ؟ لا ادري ، ولكني ..

كل ما ادريه ان الارض حبلى والسنون

* * *

فارفعوا ايديكم عن شعبنا
لاتطعموا النار حطب
كيف تحيون على ظهر سفينة
وتعادون محيطاً من لهب ؟

* * *

كبوة هذه ..
وكم يحدث ان يكبوا الهمام
انها للخلف كانت خطوة
من اجل عشر للأمام .

* * *

انكم تبنون لليوم وانا ،
لغدٍ نعلي البناء
اننا اعمق من بحر وأعلى
من مصابيح السماء
ان فينا نفسنا
أطول من هذا المدى الممتد
في قلب الفضاء .

هؤلاء ، باعتراف الجميع ، من اكبر شعراء الأرض المحتلة ، فماذا تعلم منهم نزار ، وقد أكد في هوامشه ، بلهجة التلميذ – استغفر الاستاذية – ، انـه

تعلم ؟ « نحن خائبون - يقول - نحن مثل قشرة البطيخ تافهون ... نحن كالنعال منخورون » فأين رأى ، هذا « التلميذ » ، الخيبة والتفاهة والنخر عنـــد هؤلاء « الاساتذة » ؟ وحين جاء الى مهرجان الشعر في بغداد ، تطلعنا الى ما يحمل من عطاء ، من أمل خدعنا به انفسنا ، فماذا قدم لنا ؟ صعد برج الاشراف ، ومن عليائه ، خارج المعركة ، راح يشتم جميع من فيها :

وحدويون والبـــلاد شظايا كل جزء من لحمها أجزاء
قرشيون لو رأتهم قريش لاستجارت من رملها البيداء
لا يمين يجـــيرنا او يسار تحت حد السكين نحو سواء
لوقرأنا التاريخ ماضاعت القدس وضاعت من قبلهـــا الحمراء

اما اننا لم نقرأ التاريخ فهذا شطط ، واما أننا لم نقرأه كما ينبغي فهذا مفهوم . وعلى كل ، فالتاريخ ، في ابسط مفاهيم العـــلم ، مواقف لا كلمات . والتاريخ ، مع مسار الوقائع ، في خط التقدم ، فأين موقف نزار من كل ذلك؟ لا يمين ولا يسار ، هذا مساو ، بمعنى ما ، لقولة : لا جاهلية ولا اسلام . وقد كان المؤمنون ، في التاريخ ، ضـد الجاهلية ومع الاسلام ، ولم يضع نفسه ، خارج صراع الحق والباطل ، الا الحائر او العائش على هامش دنياه ، وما نحسب نزار حائراً ، ولا هو في الهوامش ، ولكنه « مقاتل » في الجبهة الأخرى !

نظرة واحدة على خريطة عالمنا ، تعطينا الجواب على هذا السؤال : من الذي يقف ، عربياً ودولياً ، ضد الاستعمار والصهيونية ، وضد التخلف والرجعية اليمين أم اليسار ؟ ان المساواة بين الخير والشر ، لغة قديمة في خدمة الشر وتجميله والمساواة بين اليمين واليسار - وقـــد طرح القضية هو - تبرئة لذمة اليمين ، تزويق له ، وفي اضعف الايمان ، إلقاء غلالة الشعر على عورته . فالمصلحة من نفعل

ذلك ؟ واذا كان لاحدنا خلاف ، او رأي ، في موقف بعض فصائل اليسار ، فهل نهاجم اليسار كله ؟ وماذا يكون وقع هذا الهجوم على شعراء و كتاب اليسار في العالم ، الذي يؤيدون قضيتنا المصيرية ، ويساندون كفاحنا ؟ ثم هل يجهل نزار من الذي اضاع — في الأصل — القدس ، واضاع الحمراء ، وافرغ الوحدة من محتواها وعمل للانفصال ؟ و خيراً ، هل يجهل ان شعراء الأرض المحتلة ، هؤلاء الذين « تتعلم منكم منذ سنين » هم في اليسار لا في اليمين ، وهم في اقصى اليسار لا في وسطه ولا مبتداه ؟

لتكف الأسئلة ، فالذي يقول في قصيدته — اياها — « ذهب الرجال ولم يبق إلا النساء » يريد ان يقول لنا ، ببساطة ، استسلموا فقد قضي الأمر ، يريد ان يزرع رايات اليأس في الطرقات كما زرع رايات الجنس في الحلمات . ونحن نعلم ان لدينا مادة للنقد ولكن ليس لدينا مادة لليأس ، لأننا قرأنا التاريخ ، وعرفنا مساره ، وهو الى جانب الحق ، الى جانب الشعوب ، طال الزمن او قصر . ونحن يساريون في نقدنا ، لأن « نقد اليسار تقدمي وثوري ، وهو ايجابي ، وبناء عبر الآن السلبي للنقد الجذري . اما نقد اليمين فهو نقد رجعي ، ينصب الماضي ضد الحاضر [1] » ولا رؤية له باتجاه المستقبل .

قبل النكسة جنس ، وعجرفة ، واحتقار . وبعد النكسة جزع ومرارة وتمزيق للذات ، أليست هذه هي العقلية البورجوازية ذات المنطلقات النفعية والذاتية ؟ أليس هذا ، في التحليل الأدبي ، موقفاً طبقياً ، لايمكننا ان نعثر على مفتاحه الشعري ، إلا في معرفة المواقع التي يدافع عنها الشاعر الطبقي ؟

ان جزع مثل هذا الشاعر ، على قضية ما ، وطنية كانت او مصيرية ،

---

(١) هنري لوفوفر ، في دراساته عن فكر لينين

هو بعض الجزع اما جزعه على مواقع طبقته ، فهو كل الجزع ، وهو ما يجعله يرى المستقبل اسود ، مسدوداً ، بينا يراه غيره نيراً مفتوحـــاً ، برغم الضبابية الآنية والمصاعب الحالية .

* * *

وبعد .. عفو الشعراء الذين نوهت بهم ، ووجدت في قصائدهم اضافات ورؤى . ولكن الكلام على الشعر طال ، وانا مضطر الى الاكتفاء بهذا المقدار فعسى ان تكون لنا معهم وقفة اخرى ، جادة ، صادقة ، مثـــل قصائدهم ، مثل رؤاهم .

حول مفهوم

الوحدة والتحرر الثقافي

محمد زفزاف

تقترح ظروف الراهنة للعالم العربي طرح عديد من الأسئلة ، وكلها باعتقادنا تتلخص في هذا السؤال : ما العمل للوصول إلى ثورة حقيقية فوحدة ؟ أي ما العمل لتوحيد الاهتمامات لدى طبقة المثقفين وطبقة الحكام ، والجماهير الشعبية العربية ، أعني البروليتاريا .. فما دام هناك انقسام في المجتمع العربي يتحدد على وجه العموم في ثلاث فئات هي : المثقفون ، والحكام ، والجماهير الشعبية التي نسميها تجاوزاً بروليتاريا (١) لأن البروليتاري عندنا يختلف

---

(١) حيث أن البروليتاري « هو شخص لايملك مايعيش به سوى مردود عمله (الأجهزة) ، ويمارس عملاً يدوياً ، وله مستوى منخفض نسبيا داخل المجتمع » انظر قاموس : Petit RoPert .

عن نظيره في اوربا ، فهو لايمارس عملاً يدوياً في الأغلب ، ومستواه المعيشي منخفض جداً وليس نسبياً كما هو في التعريف . قلت : فما دام هناك هذا الانقسام في المجتمع فان بعض المثقفين حاولوا أن يتبينوا سر الهوة بين هذه الفئات الثلاث ، وهذا الانفصال اللامبرر بينهم وبين الجماهير الشعبية من ناحية، وبينهم وبين الحكام من ناحية أخرى .. وكما سنرى فان المثقفين هم أقدر على تلمس هذه الأخطار لقد ثبت أن لهم آثاراً فعالة في تسيير دفة التاريخ والتأثير في الساسة والحكام ،وإن تظاهر بعض السياسيين أنه للقضاء على فعالية المثقف يجب إهماله وعدم الالتفات إلى أقواله وآرائه . وهذه سياسة طالما اتبعها الإنجليز ، وإن لم يتبعها زملاؤهم الأمريكان ، على أن هناك من زعم أن القضاء على نشاط المثقف أمر ليس بالعسير [1] . فعلى الطبقة الحاكمة وحليفتها البورجوازية أن تقرّبا المثقفين وتتركاهم في أمور تسيير الدولة . وكان من أبرز من نادى بذلك الكاتب الفرنسي المعروف ريمون آرون في كتابه « أفيون المثقفين » [2] .. ولقد نجحت هذه الدعوة لدى الأقلية . بل إن منهم من تحول إلى يميني متطرف بعد أن كان يسارياً متطرفاً ، وادعى أن يسارية الأمس تتحول بالضرورة إلى يمينية ، اليوم . وهذا بطبيعة الحال منطق مردود من أساسه ، وهو ليس سوى حصيلة تكوين

---

(١) لأن المثقفين كما جاء في مسرحية « الأيدي القذرة » لسارتر : يحلمون دائماً بالنشاط ، وهكذا حتى لو منعوا من ممارسة هذا النشاط فانهم يحلمون بممارسته ، والحلم إنما هو رغبة في التخطي .

(٢) كان قد صدر هذا الكتاب منذ سنوات ، وترجمه إلى العربية الأستاذ عادل زيتوني . وبعد الحوادث الأخيرة في فرنسا أعيد طبعه . وسوف نتعرض في محاولتنا هذه بين فينة وأخرى إلى بعض آراء هذا الكاتب التي تعتبر فريدة من نوعها .

بورجوازي سطحي . إنه إذا كان المثقف يستمد أصالة فكره من الشعب ، فهو سيظل وفياً لهذا الشعب حتى النهاية . وهنا تبرز مسألة أخرى : ماحدود مفهوم الثقافة والمثقف ؟

كانت هذه المسألة قد أثيرت وتثار الآن ، وأعتقد أنها ستثار في المستقبل. وليس من العيب في شيء تطوير مفهوم ودلالة المصطلح وفق اللحظة والمكان الحاضرين . فاذا كان البعض قد تساءلوا عن جوانب من ثقافتنا . فان من حقنا أن نتساءل ؛ لأن الفكر ليس ملكاً لأحد في لحظة معينة من التاريخ[1] .. وإذا لم يكن من حظنا الجواب فإن من حظنا السؤال ؛ ألم يكن سقراط يتساءل باستمرار ويتساءل فقط ؟ إن هذه الأسئلة التي يثيرها المثقف الجاد لن تعدو كونها في نظرنا مجرد استفسارات . والاستفسار هو في حد ذاته وعي بأن الأشياء ليست على مايرام . وإعطاء الجواب النهائي هو مجرد احتكار طفولي . فالجواب دائماً يقرره مجموع بشري واع بشمولية المشكل ، أي بجوانبه وبإحراجاته .

لقد أثارني أن المثقفين العرب اليوم يحاولون إعطاء الحلول النهائية .. إن مجرد إعطاء الحل هو تعسف فكري ، بله « الحل النهائي » . ذلك أن كل مافي إمكاننا أن نفعله دائماً هو أن نستفسر ونقترح ، وفي ظل هذا المنطلق نبدأ ثورتنا الفكرية . ما الدوافع التي جعلت الانفصال قائماً بين الحاكم والبروليتاري والمثقف ؟ هل هو الحقد الذي تتميز به كل فئة من هذه الفئات الثلاث ، أم هو الحسد والنفور ؟

---

(١) بناء على هذا المفهوم سنحاول أن نثير قضية أخرى معروفة جداً وهي علاقة الإيديولوجية بالالتزام ومدى تمسك الكاتب بها .

لقد حاول بعض المفكرين الغربيين أن يفسروا التاريخ من وجهة نظر « حقد فئة على أخرى » . على أن هـذا العامل النفسي الذي استخدمه بعض المفكرين كان معطلاً بالأساس . فاستعمال علم النفس لتفسير « علم » التاريخ هو بنظرنا، كما هو بنظر البعض الآخر ،مجرد سفسطة . ولقد اعتقد بعض القادة السياسيين في نظرية الحقد هذه : الطبقة الحاكمة تحقد على البروليتاريا ، وبالمثل فالبروليتاريا تحقد على الحكام والمثقفين معاً ، وتعتبر هؤلاء الأخيرين خونة ومتعاملين . فمنذ سنوات كثيرة كان قد تحدث الجنرال دوغول – وكان مازال إذ ذاك كولونيلاً في الجيش الفرنسي – في كتاب له عن « الحقد الحديدي » الذي يجب أن يتميز به القائد والسياسي ؛ ذلك أن الحقد إنما هو ضرورة من ضرورات قيام مجتمع ناجح . ولا شك أن بعض المثقفين العرب قد استمدوا نظرتهم وموقفهم الراهن من نظريات من هذا النوع . وأعتقدأن هذه المواقف إنما هي نتاج تشوش ذهني وفكري ، وهي بطبيعة الحال ليست سوى إحباط لمفهوم القيم الثورية التي يوضحها المفكر ويحللها ويجزئها بحيث لاتختل وحدتها . وسنرى مثلاً أن هذا الرأي لمثقف عربي إنما هو نابع من حقد حديدي تجاه الجماهير الشعبية . لقد كتب أدونيس يقول : « ... إن جماهيرنا العربية ليست في مستوى الثورة . إنها بعامة جماهير تسيّرها الأفكار والقيم اللا ثورية . وحين تستلم لها الثورة تخون نفسها . »[1] فهذا نوع من حقد حديدي بارز ، ليس لدى طبقة الحكام ، ولكن لدى المثقفين الذين هم بالأساس أبناء البروليتاريا ، إذ لايمكن أن يفهم دور المثقف – كما سنوضح ذلك فيما بعد – إلا وسط مجموع بشري مضغوط ومحتقر .

---

(١) أدونيس – الرئيس جمال عبد الناصر والثقافة ، مجلة « الآداب » اللبنانية العدد السادس . حزيران ١٩٦٨ .

إن مواقف من هذا النوع ، تضع أمام العربي اليوم عدة إشكالات ، وأقول العربي دون تحديد . لأنني هنا كمغربي أضع نفسي في مواجهة أعداء الشعب العربي ، سواء في اليمن أو في عدن أو في سوريا أو في العراق أو في المغرب ، لذلك فانني أرى من حق المثقف أن ينطلق من هذا الأساس بعيداً عن الأحقاد . فرغبتنا اليوم هي بناء وحدة على مستويات : في مفهوم الثورة ، وفي مفهوم المصير ، وفي مفهوم إعادة بناء كيان سياسي بلا أحقاد حديدية .

لقد دعوت في مقالتي «الأدب المدافع»[1] إلى تخطي هذا الهذر الفكري . الذي سببه اصطدام عنيف بواقع عنيف . وكنت أعني بالأساس وضع نفسي داخل الزمرة المتعقلة – هكذا وبكل غرور علمي – كي نستطيع المساهمة في بناء كيان جديد ، خصوصاً وأن مفهوم الثقافة والوحدة والثورة ، هو من غير شك مفهوم يخضع لاعتبارات تاريخية ونفسية محضة : أعني اعتبارات ذاتية وموضوعية في اللحظة والمكان . وبما أن المثقف هو سيد الوعي في المجتمع ، فهو وحده الذي يستطيع أن يفرض هذا المفهوم أو ذاك .. لذلك كان المثقف العربي مدعواً لأن يخطط ويبرمج وفق حضور كامل إزاء الإشكالات والإحراجات الطارئة . ويستطيع لكي يتأكد من فعاليته أن يجرب الخوض – وكان الكثير من المثقفين قد جربوا – في لولبية التاريخ . من هذا المنطلق . كنت شخصياً أريد أن تفتح النافذة على فضاء فسيح ، وبعيداً عن مفاهيم مستوردة ، ومعان للتاريخ أملتها ظروف وأمكنة مخالفة تمام المخالفة للأمة العربية . لقد وضعت بعض النظريات الانسان خارج التاريخ .

---

(١) محمد زفزاف – الأدب المدافع والمسألة الفلسطينية – مجلة « المعرفة » السورية . عدد ٨٤ – فبراير ١٩٦٨ .

وجعلت أخرى التاريخ فوق الانسان ، ونحن لانريد لانساننا العربي سوى تسييره للتاريخ وتحكمه فيه . والاعتراف بعدم جدارة وقدرة هذا الانسان على الفعالية انما هو سلبية مريضة ، والاختيار يفرض الموقف الإيجابي في القضية ، لأنه وحده – أي الاختيار – كفيل بأن يعطي معنى للتاريخ . وليس أقدر على تفهم كل هذه المشاكل من المثقف .

إننا إذ نواجه عوائق متعددة تكتنف شروط الثورة وظروفها ، نحاول بقدر الامكان تجاوز هذه العوائق ، ورصد « المجال الادراكي » لنقطة المنطلق . فتعريفات وتحديدات القيم لها ارتباط أساسي برصد هذا المجال .

والتعريف أو التحديد إنما يأتي لإعطاء معنى ، ولتحويل القيمة كتجريد إلى قانون خاضع بالأساس إلى إرادة المثقف . ليس معنى هذا أن القانون لن يتغير بعد ذلك ، ولكنه قابل لأن يكون قاعدة أو أساساً لقوانين أخرى . فالإرادة البشرية أقوى من تحكم الجمود في الفكر ، وهذا ماحاول أن يعلنه للعالم مفكرون أحرار من الغرب والشرق . فالجمود السلبي والتعلق الأعمى بابتكارات الأسلاف إنما هو عبادة لأرواح الأجداد ، وهذه من مخلفات المجتمعات البدائية ، حيث كانت العشائر ترتقب حلول الأرواح الوهمية في مرافق الحيـــاة التي تغيرت ، وتتغير باستمرار . وهذا ماتفسره ظواهر الهزات في أوروبا الغربية . لقد أصبح الرفض من شيم المفكر الحر ، بل المفكر المبدع الخلاق . وإن سيادة الفكر العشائري المجتمع العربي هي ظاهرة تستحق الالتفات . وسيادة الرجعية الفكرية هي أيضاً ظاهرة أخرى تستحق الالتفات كذلك . إن المثالية المغرقة في التطرف تسيطر الآن على فكرنا وتنفي عن العربي صفة الإبداع والخلق . ولعمري فهذا وحده كاف لتفسير ماقاله المؤرخون من أن الحضارة العربية الإسلامية بناها أجانب .

إن ميول المثقف العربي الثوري لن تكون بذات جدوى إذا لم تتخلص من هذا الاندماج المثالي السائد الآن في المرافق العلمية . أليس أن الهزات الأخيرة في أوروبا إنما هي احتجاج على سيادة الفكر المثالي في هذه المرافق لأنه من مخلفات القرون الماضية ؟ إننا نعرف أن هناك بيننا متطرفين . لكن الى جانب هؤلاء هناك من يعيش في ظل مثالية مغلقة ، وأستطيع أن أقول إن روحنا الشرقية إنما تعيش في ظل المستوى الثاني ، أعني أنها أقرب إلى المثالية منها الى المادية . فحتى أطيب هؤلاء المفكرين قلباً وأنقاهم سريرة وأكثرهم حباً للوطن يغرقون في هذه المثالية . وهذه خاصة من خصائص هذا الشرق الحالم .

لقد أعجبت شخصياً بتلك النزعة الانسانية التي تتميز بها روح ذلك الطبيب المصري المدعو « إبراهيم الحكيم »[1] .. لكن الحل – للأسف – في نظره لخروج العالم العربي من التخلف الاقتصادي كان هو التمسك بالروحانيات . لقد كتب في مذكراته ص ٤٧ مايلي : « إن الجواب الوحيد هو أن الحياة قوة روحانية ، ومن غير هذه القوة ليس هناك سوى الوحل » . لقد اخترت الإشارة إلى هذا النموذج لأنه يمثل صورة المثقف العربي المعاصر الذي يتفانى في حب الوطن ، وكلنا نحب الوطن ، والذي لا يحبه إنما هو خائن ، والخائن لا يخون غير نفسه كما يقول جان كوكتو .

من مشاكلنا الفكرية : أدب مغربي أم أدب عربي !

إن الكاتب الحقيقي هو الذي يصدر عن ذاته . والأدب الأصيل إنما هو نتاج تجارب الكاتب داخل المجموع . على أن الإلزام القهري هو الذي يفقد الأدب

(١) John Knittel-le-Docteur-Ibrahim Le Livre de Poche . 509 pages

أصالته ومعناه . ولقد تطرف كثير من المتعصبين ، واعتبروا الأصالة تحديداً للمواضيع الأدبية ، وكان من أبرزهم جدانوف ، إذ نادى بإعدام كل أدب غير تربوي . وهكذا نسبوا له فقالوا الجدانوفية Jdanovisme وتفكهوا بهذا الرأي ونسبوه لكل رأي شوفيني متعصب . غير اننا اليوم نعرف جميعاً أن الكاتب يتميز بحريته . وحريته في التزامه لا في إلزام الغير له . لذلك فقد تنبه كثير من المفكرين الى هذا، وعلى رأسهم المفكر الفرنسي المعروف روجي جارودي فنادى بواقعية بلا ضفاف ، أي بالتزام حر .

إننا نطرح هذه القضية لأن مجتمعنا يجتاز مرحلة من أعوص المراحل ، والمفروض في كاتب يعيش تحت ظل أوضاع معينة أن يلتفت لقضية من هذا النوع .

لقد تحدث بعض المفكرين العرب في مؤتمر هافانا مؤخراً عن وضعية المجتمع العربي ، وحللوا بناء على معطيات الواقع تجارب المراحل التي جاءت بعد الاستقلال . وأكد بعضهم أن العالم العربي يدخل الآن المرحلة الثانية [1] ، بعد تجاوز المرحلة الأولى التي تجيء عادة بعد الاستقلال ، وهذه المرحلة تتطلب – في نظرنا – وعياً بعيداً عن الالتباس كما هو في الأخلاق الوجودية .

---

(١) تفسير هاتين المرحلتين كما أورده الأستاذ أنطون المقدسي : « مرت الثورة العربية بمرحلتين : الأولى مرحلة التحرر القومي من الاستعمار السياسي ، لعبت فيها البورجوازية دوراً اساسيا . والثانية ، مرحلة التحرر الاقتصادي والشعبي تقوم بها الآن جماهير شعبية أخذت تمارس تدريجياً حقوقها السياسية » . انظر : الثورة والثقافة في مؤتمر هافانا – « مجلة المعرفة . آذار ١٩٦٨ . وطبيعي أن هذا القول يحتاج إلى مناقشة . فبعض البلدان العربية لم تتجاوز بعد المرحلة الأولى، مرحلة التحرر من الاستعمار بشكله القديم ؛ وتبدو بعيدة عن دخول المرحلة الثانية ، مرحلة نزوع البروليتاريا إلى المساهمة الهادفة والمشاركة في بناء حياتها، بينما هي بعيدة كل البعد عن المشاركة .

إنه إذا كانت هناك دول عربية اجتازت المرحلة الأولى ودخلت المرحلة الثانية فإن المغرب مثلاً مازال يعيش في ظل المرحـــلة الأولى التي جاءت بعد الاستقلال ، وهذه المرحلة تتميز بإرهاصات عنيفة تتطلب ردود أفعال تتفاوت بين الشدة واللين وبين القوة والضعف . إن أصالة أدبنـا هي في أصالة الشعور المحتد بتناقضات البيئة وبتناقضات الطبقة الاجتماعية . فنحن نعيش مثلاً - هنا في المغرب - في ظل المرحلة الأولى . وإذا لم يكن هناك اعتراف بهذه المرحلة من طرف الكاتب ، فإن مهمته ستكون مختلة ، ووعيه عـــاجزاً ، وليس هناك أخطر من هذا العجز في الوعي .

لقد أشيعت اليوم في الوسط الأدبي المغربي نزعة إقليمية محلية ، بدعوى أن العالمي إنما هو في الأساس اقليمي . وها إننـــا نرى اختلاق فكرة « أدب المغرب العربي » . وهذه الدعوى إنما هي من مخلفات الاستعمار الجديد ، حيث أن الاستعمار القديم كان يذكي بجميع الوسائل تلك النزعة الفولكلورية السياحية في أدب المغرب العربي ، وكان إلى جانب ذلك يحاول إقحام موضوعات أخرى من هذا النوع واستنتاج رؤى قبائلية في الأدب الجزائري أو أمازيغية في الأدب المغربي . فالى جانب هذا البحث الدائب عن تراث مزيف ومقومات مغلوطة من طرف الاستعمار، هناك أيضاً اهتمامات وحشية لتقويض وحدتنـــا الثقافية . ففي فرنـــا هناك مجلة بعنوان « أمازيغ » . واذا كان هناك هدف من إصدار هـذه المجلة فانما يتلخص في نشر البلبلة والعنصرية، وإحباط فكرة الوحدة والتضامن على مستوى العالم العربي . ومهمات الكاتب المغربي هي الوعي التام لقضايا من هذا النوع . فأصالته تتجلى في التفتح على مشاكل العصر، وفي التنديد بالمحاولات العنصرية التي تختفي وراء « المساهمة العلمية » أو « البحث العلمي النزيه » أو « التعاون

الثقافي » . فاذا حاولنا ان نتحدث عن أدب مغربي أصيل ، فانما نتحدث عنه كجزء من الأدب العربي كله . ولا يفهم أبداً الحديث عن أدب مغربي لا علاقة له بالأدب العربي(1) .

إن أصالتنا تتجلى في التنديد بالتفرقة سواء على المستوى الداخلي أو على مستوى الأقطار العربية ، وهذه المهمة لا يقوم بها سوى المثقف ، لأنه لا يمكن بأي حال التخلي عن المفكر أو الكاتب ، إذ هو الذي يعي متطلبات الجماهير ، ويعي أيضاً مقومات الوحدة والاستقلال الفكري . وإذا كان في الإمكان التخلي عن عشرة من القادة السياسيين، أو عن عشرة من القادة العسكريين، فإنه لا يمكن التخلي عن عشرة من المفكرين والمثقفين ، وهذا قول مأثور لسان سيمون . فالمفكر وحده يستطيع أن يعيد بناء العالم وهو في حالة انهيار ، لأنه هو وحده الذي يستحضر التاريخ ، ويستجمع ثقافة الأمم فيقدمها بشكل تجارب ناضجة . إن المستعمر القديم يتحول بالضرورة الى مستعمر جديد . لقد أثبت الكاتب اليهودي التونسي ألبير ميمي وآخرون في كتابهم « الفرنسي، هل هو عنصري؟ » أن أي فرنسي إنما هو عنصري ، الفرنسي لا يحب سوى الفرنسي ، أي نفسه . وتتجلى هذه العنصرية لدينا نحن مثلا في المغرب العربي في محاولة عدم الثقافة القومية وبعث تراث متداول ، هذا اذا اعتبرنا أنه تراث بالفعل . فالاستعمار استطاع أن يستنتج ، أو بالأحرى أن يبتدع ، قضايا أربع نوجزها فيما يلي :

---

(1) ربما التبس على البعض أننا ندعو إلى عالمية محضة . وهذا غير صحيح .. فالأديب السوري عندما يكتب ، إنما يضع في ذهنه أنه عربي ، وكذلك الكاتب السوداني يضع في ذهنه نفس الاعتبار ، وبالمثل نقول ذلك عن الكاتب المصري والليبي والجزائري .. الخ . وهكذا يهدف الجميع إلى وحدة ثقافية وبناء موحد لكياننا الاجتماعي .

١ – أدب المغرب العربي يختلف عن أدب العالم العربي .

٢ – في المغرب الاقصى هناك أدب أماز يغي أصيل . كذا . وقد حاولوا أن يستنتجوا ذلك في كتابات محمد خير الدين[١] والمجوبي أحرضان[٢]. وفي السابق كانت فكرة أدب فولكلوري سياحي عند أحمد الصفريوي[٣] .

٣ – في الجزائر لا يستمد الأدب أصالته الا من نزعة قبائلية .

٤ – وفي تونس ، هناك أدب يهودي يمثله ألبير ميمي ، وهو يدافع عن الأقلية المضطهدة .

هذه هي النقط الأربع التي ابتدعها مفكرون استعماريون . والهدف منها كما هو واضح بعث التفرقة وإشاعة التعصب القبلي وطمس روح الأصالة في فكرنا وفي مقوماتنا . واذا كنا اليوم ننشد أصالة في أدبنا ، انما ننشدها على ضوء الوحدة الاجتماعية والفكرية معاً . إن الاهتمام البعيد للانسان الليبي او السوري او اليمني لا يختلف في جوهره عن الاهتمام البعيد للانسان المغربي . فما دام هناك تاريخ مشترك فإن هناك حاضراً مشتركاً كذلك . ونحن اذ نؤكد هذا فانما نتجاوز تلك الاهتمامات اليومية العادية . حتى اذا انطلقنا أساساً من هذه الفكرة ، كنا بحق أصلاء في تفكيرنا وفي سلوكنا ، في نظرياتنا وفي تطبيقاتنا . وليس هناك حل وسط . لأن الحل الوسط انما هو من صفات المفكر العاجز ، والحياد الفكري انما هو نفاق ، والمثقف قبل كل شيء هو قوة ايجابية ، أي أنه يفكر بوعي وبجرية

---

(١) صدر له بالفرنسية « أغادير » و « جسم سالب » ، وبعد كتابين آخرين للطبع .

(٢) صدر له ديوان شعر بعنوان « ذاك يبقى ذاك »

(٣) صدر له منذ سنوات « سبحة العنبر . » .

ويعرف أن حريته في التزامه وتفحصه لمشا كل شعبه . إن للبورجوازية أخلاقها، وهي التي أعطت وتعطي أدباً مشوشاً بائساً، وفكراً مبلبلاً أسود . وأدبنا يستمد أصالته من الابتعاد عن كل هذه الأمراض الفكرية جميعها . ولقد تفشت هذه الامراض كثيراً، ولم تكن الا نتاجاً لسيادة فكر مثالي يستعبد الفقير ويستعلي الغني . وكان على المفكرين بطبيعة الحال، المفكرين الأصلاء، أن يشجبوا كل هذه الأخلاق التي لا تمثل الأغلبية الساحقة .

لقد تحدثت ذات يوم (١) عن كتيب صغير بعنوان « حياد فلسفي » لصاحبه الدكتور يحيى هويدة ، وأشرت أنه ليس هناك حياد فلسفي ، فإما أن نكون ماديين أو نكون مثاليين (٢) ، وليس هناك فلسفة محايدة . وما هذا الحياد في الفلسفة الا نفاق وخلاصة لفكر مزيف غير أصيل .

وادبنا لن يستمد اصالته الا بتجاوز الأخطاء التي سقط فيها مفكرون سابقون ، سواء في الشرق او في الغرب . ذلك أن السفسطائية تقتل الفكر . وما هذه البدع الفكرية الا من قبيل السفسطائية التي هي خلق من اخلاق طبقة تدعي انها مختارة، ذلك لأن عوامل النبل متوفرة فيها . كذا . وهذه البورجوازية هي التي تختلق هذا الفكر المشوش في كل مكان . وتحاول أن تتخذ هذا النوع من الفكر ذريعة لها ، غير أنها تتخلى عنه ما إن تتاح لها أقرب فرصة لاستعمال

---

(١) في مذكراتي الأدبية التي أكتبها لجريدة « العلم »

(٢) هذا هو رأينا ، ولقد اختار البعض هذا الموقف التلفيقي (موقف الأستاذ يحيى هويدة .) ورأى أننا لسنا مرغمين لأن نكون في الوسط ، كما أننا لسنا مرغمين أن نكون مثاليين أوماديين . تبقى المسألة مسألة مرحلة ، من جهة ، ومسألة اختيار من جهة أخرى .

القوة . وهنا فقط ، يتم الاستغناء عن المفكرين الرسميين [1] . ونحن كمغاربة ، لنا ارتباطاتنا الخاصة بالأرض وبالتاريخ ، نرفض أن نكون أداة ، ولا نستجيب بطبيعة الحال الا لصوت ضميرنا . فكما كان قدماء اليونان يلجأون الى معبد دلفي ليستمعوا الى اصوات الآلهة كي تزجرهم او ترشدهم ، نلجأ نحن ايضاً الى ضميرنا الحي . فحيويته لا تستمد ذاتها الا من الرفض . وهذا الضمير وحده هو الكفيل بإرشادنا . والمثقف الاصيل هو الذي يسير بهدي ضميره . واذا كان صوت المثقف مزيفاً، فإننا سرعان ما نكتشف به بحة واختناقاً، ذلك ان هذا النوع من المثقفين لا يكتشف في نفسه الشجاعة والجرأة على اتخاذ موقف ، ومثال ذلك « الدكتور ابراهيم » . ألم يقل في المذكرات التي نشرها جون كنيتل إنه الآن يجد الشجاعة الكافية في أن يعبر عن رأيه لأنه على ابواب الموت ولأن المجتمع لن يستطيع ان يعدم جثة ميتة ؟ ان هذا الموقف موقف جبن .

ولقد أفقد المثقف اصالته التي تتجلى اساساً في اختياره . فمن اجل هذا نعمل نحن في ميدان الكلمة . ان موقف ابراهيم الحكيم هو موقف سلبي . ولعل سلبيته هذه ترجع اساساً الى ايمانه المغرق في الروحانيات . يقول في مذكراته : ص ٣٦ : « ان الاعتراف بالانسان ككائن روحاني ، من بين باقي الكائنات ، هو اول خطوة تقودنا نحو الخلود » .

إننا نتساءل إزاء هذا ، اين الاصالة ، اصالة الموقف وأصالة الرأي ؟ هل هي في التقوقع والانطواء على الذات الفردية وسبر أغوارها ؟ [2] لا أعتقد

---

(١) انظر : سيمون دو بو فوار في كتابها : « الفكر اليميني ، اليوم »

(٢) تعتبر سيمون دو بو فوار عقلية هؤلاء الكتاب المتقوقعين نتاجاً لعقلية الطبقة البورجوازية ، فهي التي صنعتهم لتتخلى عنهم فيما بعد . انظر كتابها كذلك : « الفكر اليميني ، اليوم »

ذلك . ان موقفاً من هذا النوع يعتبر مرضاً عضالاً ، وخطورته لا تختلف كثيراً او قليلا عن خطورة فكرة الالزام القهري . صحيح ان احـــداً لم يلزم المثقف بشيء ، ولكنه لم يعرف كيف يستمع الى صوت ضميره كما استمع قدماء اليونان الى صوت الآلهة في معبد دلفي .

ان اصالة ادبنا اليوم لن تتجلى بحق الا في المواجهة على شتى المستويات ، وان الهروب سواء كان بهذا الشكل او ذاك انما هو ترف ذهني بورجوازي . ومن المعروف جداً ان لكل جماعة مثقفة في الطبقة المختارة اخـــلاقاً مستوردة . وهم يدافعون عن انفسهم باتباع اساليب بيزنطية مرفوضة من الاساس . فكما بكى بعض المفكرين الغربيين سقوط حضارتهم مثل جورج دهاميل وشبنجلر ، وكما دافع مونترو وريمون أرون وهنري دو مونترلان عن اليمين المتطرف في العالم الغربي، فإن لنا نحن ايضاً مثقفينا الرسميين. فكما قلت ، ان البورجوازية ترفضهم ما إن تمتلك القوة.

تخطي هذه المشاكل :

وتعترض المثقف العربي صعوبات جمة في محاولة النهوض بالمجتمع الحالي وتحويله الى مجتمع الكفاية والعدل . ومن جملة هذه الصعوبات المثال أعلاه: أدب مغربي أم أدب عربي ؟ وبالمثل : أدب مشرقي أم أدب مغربي ؟ إن هذه المشاكل التي تثار على صعيد إقليمي محلي هي أيضاً قضايا خطيرة تستحق الالتفات. وإحساس المثقف بهذه المشاكل وتفهمه لها شيء ضروري للاسهام في تحويل دفة التاريخ . إن الحديث عن الثورة دون تفهم لأسبابها ودوافعها هو - برأينا - خيانة لهـــا . ونعني بالحديث عنها : تفسيرها وفتح المجال أمامها للتحرك بكل حرية ضمن سيولة

ممهدة ومدروسة . فبما ان الثورة ليست مجرد انتقال طارىء للبروليتاريا ، بل هي انتقال وتحول دائمان ، أي « ثورة دائمة » وتنظيم دائم ، فان المثقفين مدعوون أيضاً للتحرك داخل هذا المجال باستمرار . لقد اعتقد البعض في وقف الأدب على لحظة معينة . إذا انتصرت البروليتاريا فلنغن" انتصارها. لكن هذا ليس بصحيح. فالأدب هو ثورة دائمة . لقد تحـدث المفكر المعروف هنري لوفيفر في كتاب له مؤخراً عن « الثورة الثقافية الدائمة » . لأن الوقوف على شيء في لحظة إنما هو موت . والثورة في ديناميكيتها الدائمة لاتفترض الموت ، وإنمـا تفترض الخلود . وهذا جانب أساسي من مفهوم الثورة يطرح أمام المثقف العربي بصفة عامة . فهو في ظل هذه الديناميكية ، وبحثاً عن أصالته ، يغامر بكل ما أوتي من قوة عقلية لتخطي جميع المشاكل المحلية الاقليمية بمعناها الضيق . ولكي أكون واضحاً أكثر أقول : إن المحلي لا يقوم إلا في ظل مـا هو عربي . وبعد ذلك نكون على أتم استعداد لمواجهة باقي الأخطار الأخرى . فالمثقفون العمليون هم على أتم الاستعداد دائماً لذلك . لقد كان تروتسكي « نبياً مسلحاً » على حد تعبير أحد مفكري العصر . وكان شهيد المغامرة الفكرية . والمثقف العربي أمام اخطار الاستعمار ، وأمام أخلاق البورجوازية التي تحاول أن تستهويه مدعو لأن يتسلح في يقظة دائمة . هذه أشياء تغيب عن أذهان بعض « المثقفين » هنا في المغرب . ولقد انساق أغلبهم لشعار « التعاون الثقافي » فحولت تفكيرهم وآراءهم جمعيات وبعثات أجنبية ، أقل مايقال عنها انها تخدم المصادر التي خلقتها . ولاشك أن مثل هذه الجمعيات المصنوعة بجواز « التعاون الثقافي » مبثوثة في كل مكان . لذلك فالمثقف العربي يبدو اليوم أمام عدة مشاكل . وقد يتساءل بعض اليائسين كيف يستطيعون أن يوزعوا اهتماماتهم ، كأن ينادوا بتحرير فلسطين وبالتحرير الداخلي من أخلاق الاستعمار والبورجوازيات الوطنية ، ثم أن يعملوا

من أجل وحدة عربية . ولكن هذا التساؤل لايقبل في نظرنا سوى جواب واحد حاسم : كل هذه المشاكل التي يواجهها المثقف هي أهون بكثير من انغماسه في تيار الرجعية، حيث أن هذا التيار بمثابة المتاهة الكبرى. لذلك نجد أن المفكرين الرسميين يجدون أنفسهم عاجزين عن إعطاء وضوح لرؤاهم واهتماماتهم. فالبورجوازية تطالبهم بالدفاع عنها دون تساؤل عن ماهية هذا الدفاع وأسبابه . إنهم خدام وعبيد ، وهكذا بالمقابل ، فالمثقف غير الرسمي هو سيد نفسه يعي متطلبات حاضره وموقفه . وهو في عمله نحو تحقيق مجتمع الكفاية والعدل يستمد وجوده وحريته واختياره . ولن نتساءل مرة اخرى عن كيفية العمل ، فهو وحده يعرف كيف يعمل، لأن رغبته في هذا العمل نابعة من قلبه ومن ظروفه، وبالتالي من شروط الإطار الحضاري الذي يسربل لحظة ومكان العمل . واللحظة في نظرنا هي هذا النزوع المستمر نحو الثورة العربية ، أما المكان فهو هذه الرقعة الكبيرة من الوطن .

الأديب العربي

ودوره في بناء المجتمع العصري

حسن جواد الجشي

– البحرين –

قبل الهزيمة كانت الاتهامات تشرع في وجه الاديب العربي على استحياء أحيانا ، وبصراحة أحيانا أخرى . ولكنها كانت على كل حال تكتسي بالحرير قبل أن تلقى في وجهه ، إما خشية من ابتذاء حسه المرهف ، أو اطمئنانا الى أن دوره في معركة الوجود العربي ثانوي . واذن فليغرق الاديب في الضباب ، وليتعلق بأذيال النجوم ، فلاضير في ذلك ما دامت القافلة سائرة به وبدونه ..

وجاءت شمس حزيران فاكتسحت الجنان الموهومة ، ومزقت الاقنعة عن الهررة وهي تحكي صولة الليث .. وفجأة وجد الاديب العربي نفسه محاصرا في غابة موحشة من الاتهامات : رومانسيه هشة .. ضياع مفتعل ... عبث مستورد ... الى آخر هذه القائمة من الاتهامات التي قد لاتجافي الحقيقة ، ولكنها قطعا أهملت بعض جوانبها الايجابيه .

وقد مارس بعض الادباء أنفسهم دورا حقيقيا في عملية المحاصرة هذه التي سرعان ما تحولت الى مكاشفة جادة بين هؤلاء الأدباء الذين كانوا يصرخون في نزق وانفعال كمن استيقظ من كابوس رهيب ، وبين الجماهير المولولة ، المعذبة في جمر الهزيمة ..!

لقد كان النصل حادا واللحم مترهلا مكشوفا ، فلاعجب اذا ما انفغرت الجراح

---

(١) بحث قدم إلى مؤتمر الأدباء السابع المنعقد في بغداد من ١٩ – ٢٢ /٤/ ٦٩.

وتزفت الدماء وغامت الرؤية ، فاختلطت النتائج بالاسباب ، وتعذر فرز الحقائق عن ركام الاوهام ..!

أما وقد هدأت سورة الانفعال ، واستعادت النفوس طاقتها على اجتياز منطقة الضبـــاب الى مجالات الوضوح القادر على التمييز ورسم الابعاد ، فان من الحق ان نقول ان الاديب العربي ، بوجه عام لم يكن قبل هزيمة حزيران في مستوى الرسالة المنوطة به بالقدر الواجب والمنتظر ، في مجتمع يواجه أعتى وأقسى التحديات التي تهدد وجوده من الداخل والخارج معا . يستوى في ذلك من هربوا في كبرياء زائف الى مجاهل الذات يعانقون أطياف هلوساتهم في استغراق متهالك يسلمهم الى مايشبه الغيبوبة أو الغيبوبة ذاتها ! ومن تراجعوا الى كهوف الصمت يرقبون نذر الكارثة في استسلام مهين ! ومن أصموا آذانهم عن هذه النذر أوعميت ابصارهم عن التقاطها فراحوا ينمقون الحديث عن : الرياحين ، حيث لاينبت غير الشوك ، انتهازا للظروف المواتية وجريا وراء مغانم المنصب والكسب المادي ، أو ايثارا للسلامة !

ولا استطيع ان أتجاهل ، بل لايجوز ان اتجاهل اولئك النفر النزر من الادباء الذين امتطوا صهوة العاصفة وهي في عنفوانها وطوحوا بأقدارهم في مهبها بجرأة الثوري المناضل ، لايهمهم غير صدق الكلمة وشرفها .

ومهما يكن من أمر فلا يهمنا أن نعود هنا الى الماضي ننبش دفائنه ، بمقدارما يهمنا ان نواجه الحاضر في استشراف واع مسؤول للمستقبل ، بالرغم من ادراكنا بأن تجاهل الماضي القريب وهو التربة التي نمت فيها المواهب المرشحة للعطاء الادبي البناء في الحاضر وبالتالي في المستقبل ، فيه شيء من التعسف . بيد أن مايعزينا عن ذلك ويخفف من وطأة هذا التعسف على انفسنا ، أن بعض الادباء قد شرعوا فعلا في عملية مراجعة تقييم . صامته ومعلنة ، لماضيهم الادبي كله . وهي مراجعة نلمسها من خلال التحولات . التي بدأت تطرأ على انتاجهم من حيث الاهداف اوزوايا الالتقاط ، سواء في مجال القصة او الرواية او الشعر او المسرح .

على أننا لانريد ان يفهم من كل ماتقدم اتناتهم ثقافتنا العربية الحديثة بالتخلف المطلق عن ممارسة بعض الفعالية في مواجهة المتطلبات التي فرضتها ظروف المرحلة المتوترة الصعبة التي عاشتها الامة العربية عندما كان وجودها العقلي والنفسي المعبر عن أصالتها يواجه تهديدا ، مباشرا أو غير مباشر ، بالطمس والتشويه ، مما دفع بالطاقات لتحتشد في عملية من عمليات البعث والاحياء ، حماية للوجود والتراث القوميين . ولاشك ان بعض

جوانب هذه العملية كانت هادفة وايجابية ولكن بعضها الاخر كان ساذجا غير واضح الاهداف ، أو منطلقا من مفاهيم رجعية تتشبث بالماضي في احتضان صوفي مطلق جاهلة بأن حماية الوجود المهدد ، انما تكون من اجل صيرورة هذا الوجود ودفعه في معارج التقدم والتطور ، لامن اجل صلبه فوق مستنقعات الجمود والتحجر ! وبأن بعث التراث الجدير بالبعث والاحياء ، لما يتمثل فيه عن عناصر الخلود والارفاد (وليس كل التراث كذلك) ، انما يتخذ حافزاً لاستثارة روح الاصالة في الامة وربط خطاها المنطلقة الى الامام ، لا المراوحة في مكانها ، بخطى ذلك الجانب الخلاق من التراث ، من خلال عملية استلهام ، واعية بأبعاد العصر وروحه ، ومحيطة بالاساليب التقنية الحديثة في البناء الفني .

* * *

لعل من أهم نقاط الخلاف الاساسية التي احتدم حولها الجدل خلال تطور الفنون الادبية ، تلك التي تتصل بغايات الادب واهدافه :

هل غاية الادب هي البحث عن الحقيقة المجردة والانتصار للخير المطلق في معركته المحتدمة مع الشر المطلق وعرضها في اطار من الاحترام للتقاليد والعقائد ، وضمن حدود صارمة من قواعد الصياغة ؟

هل الادب تعبير عن ذات الاديب واشواقه الجنحة وصبوات روحه الهائمة في آفاق الطبيعة ؟

هل الادب تحليل متجرد للنفس البشرية وتشريح لاهوائها وتقص لالوان الشذوذ في الاخلاق ؟

هل الادب غاية في ذاته لاتأثير للمجتمع عليه ؟

هل الأدب ظل للمجتمع أم فاعل فيه ؟

هل وهل الى آخر ما هنالك من تساؤلات !

على ان الذي لا ريب فيــه هو ان تطور الفكر الانساني وتبلور الرؤية الثورية وازدياد وضوحها قد حسم هذا الخلاف الى حد كبير . ولم يعد هناك اليوم بين حملة الفكر التقدمي الواعي ، ولا سيا في العالم الثالث من يحاول أن يلقي أي ظلال من الشك حول اجتماعية الادب وواقعيته ، بما هو انعكاس ديناميكي حي لروح المجتمع ومعاناة صادقة لآلام الجماهير وتطلعاتها وأشواقها ، وتفاعل خلاق مع معطيات الحياة المتجددة والتعبير عن كل ذلك من خلال الذاتية المنفعلة بصدق وحرارة وبلغة ، هي في جوهرهــا شيء

آخر غير السمات الظاهرة لتلك المعطيات..هي الفن بخصوصيته وبشموله معاً ..! وبالتالي لم يعد هناك من يخامره الشك حول دور الاديب في المجتمع .

ولا ريب انه من السذاجة في التفكير ان يتبادر الى ذهن أي انسان أننا نقصد بهذا الدور أن يكتب الاديب أو الفنان في الموضوعات التي تطلب منه أو التي تلقى استحساناً من هذه الفئة أو تلك من الناس . وانما نقصد ان الاديب وهو يستوحي موضوعه من الحياة الممتزجة بوجدانه ، لا يستطيع ان ينسى ان لانتاجه وظيفة اجتماعية ذات أثر فعال ، بما للفن من قدرة على العدوى التي لا تتريث لتستأذن رقابة العقل.ومن هنا قدرة الفن الاصيل على التغيير والتحريك . وفي رحاب التاريخ الادبي لكل الشعوب مجال واسع للاستشهاد بصدق هذه القضية .

وعلى كل فانه اذا كان من خلاف حول واقعية الادب فهو منصب على قضايا قد تكون جوهرية ولكنها لا تنحرف عن الخط الثوري للادب . وهي قضايا تتعلق بانفساح النظرة أو انغلاقها في فهم حقيقة الواقعية ، ابتداء من الاصرار الضيق على نقل صورة الواقع ومحاكاة نشاطه ، وانتهاء باعتبارها ، أي الواقعية « مشاركة في البناء الخلاق لعالم ما يزال في طور التكوين مع اكتشاف ايقاعه الداخلي» على حد تعبير روجيه جارودي. وعلى العموم فهي قضايا تتعلق بعد ذلك بأسلوب التناول الفني ، بما فيه منهج الاقتراب من الموضوع ، وبالقدر اللازم توافره من الذاتية او الموضوعية في الاثر الادبي ، الى غيرها من القضايا المماثلة ...

والواقع ان الاديب الحقيقي لم يعد قادراً على أن يكون ذلك الناسك المتبتل في محراب وجوده الخاص في انقطاع جزئي او كلي عما يصطرع حوله من قضايا ومشكلات ولا سيما في فترات الانعطاف التاريخية الحاسمة التي تمر بها الشعوب المتيقظة الطامحة الى تدعيم وجودها وبنائه بتبيح لها ان تشارك في معركة الانسانية مع أقدارها ، التي هي في الواقع معركتها مع كل القوى التي تحاول ان تعوقها عن قهر هذه الاقدار واخضاعها للمشيئة الثورية المتطلعة الى الافضل .

في مثل هذه الفترات التاريخية الحاسمة — والامة العربية تجتاز احداها — تخضع الشعوب واقعها الموضوعي والذاتي لعملية تأمل عميقة وشاملة في محاولة جادة لتجاوز هذا الواقع وتحويله ، وذلك باعادة بنائه واطلاق تيارات الفتوة في أوصاله الهرمة .

وليس هناك أدنى شك في أن الاديب العربي يستطيع ان يلعب دوراً هاماً وحيوياً في تغيير ملامح واقع الامة العربية المتخلف ، اذا توافر فيه شرطان :

١ — موقف ثوري قادر على الرفض والانفصال عن تيار الوجود المحيط به ،ومن

ثم الحكم عليه وذلك في عملية تحليلية – بنائية متكاملة ، يعي من خلالها حقيقة مطالب المرحلة الراهنة ويتجاوزها في اللحظة ذاتها الى وعي أبعاد المستقبل فتكتسب أعماله بذلك دلالة نضالية هي في الواقع روح هذا التجاوز .

٢ – رؤية شاملة تستوعب التناقضات التي تسود قانون الحياة ، وتفهم طبيعة المسار التاريخي ، وتلم بالمنطق الذي يحكم تطور المجتمعات ، مدركة ان هذا التطور ليس وليد الصدف أو الحركة التلقائية وانما هو ثمرة جهد وصراع جدلي عبر أجيال متلاحقة ، على ان يؤطر هذا الفهم كله تفاعل حي واع مع أحداث العصر وتياراته الفكرية الكبرى . ومثل هذه الرؤية هي في الواقع نتيجة حتمية للموقف الثوري السليم ، تتفاعل مع مكوناته وتمنحه بدورها عمقاً فيه شفافية الرؤيا وكثافة المنطق في آن واحد .

والحقيقة ان الاديب العربي الذي تتوافر له هاتان القدرتان الى جانب الموهبة الفنية طبعاً هو الأديب الجدير باداء رسالة البناء في المجتمع لانه على وعي تام بحركة التغيير السريعة التي تتسم بها كافة أشكال الحياة ، الامر الذي ينعكس على فنه ، حضوراً في قلب الأحداث واستشفافاً للعوامل الدفينة التي تسيرها ، ومواجهة للحقائق من خلال معايشته لها ومعاناته لمشكلاتها في انسجام تام مع معاناته – كفنان – لمشكلات الكون الشاملة التي تستمد ايقاعها في نفسه من موقفه كمثقف ثوري مشبع الرؤية .

ان مثل هذا الاديب ، بموقفه الثوري ، هو الذي باستطاعته ان يمنحنا رؤية واضحة للواقع لانه يرفض ان يهزنا في أرجوحة الدوار الغيبي ، بهروبه الى الداخل ودورانه ضمن أسوار ذاته . انه يرفض المثالية لانها منافية للعلم والعقل ، ويرفض العبث لانه موقف معاد للحياة . وتنأى تجاربه الفنية عن ان تقع فريسة للشطحات الصوفية التي تتباهى ، زوراً ، بأنها تمهد للآتي عن طريق الحدس واختراق حجب المستقبل ، بينما الحقيقة ان أي رؤية جديدة للوجود الانساني لا يمكن ان تنطلق الا من خلال تمثل واقعي مستوعب لمشكلات الحاضر وهمومه . ومن يتجاهل الحاضر في استعلاء بغيض لا يصح له الادعاء بأنه يرصف السبيل الى المستقبل ! وأي مستقبل هذا الذي ترسم ملامحه في ضباب الرؤية المترنحة الغارقة في نهر الذهول ؟ !

ولما كان الفن رؤية جديدة للحاضر تتجاوزه الى الآتي فهو اذن تمرد على الواقع المهترىء ، وهو بالتالي حرية يمارسها الفنان الانسان ازاء الحياة والطبيعة .

واذا لم يكن الفن هو الحرية كما يرى البعض ، فان الحرية من أقدس القيم التي يعنو لها الفن لانها سر ابداعه ، بل وسر وجوده . ويبدو لنا أن الحرية هي من أعقد المشكلات

التي يواجهها الفنان في كل المجتمعات ، سواء منها الاشتراكية أو الرأسمالية أو المتخلفة ، وان كانت تلك المواجهـــة على أشكال ومستويات تختلف باختلاف طبيعة النظام ومكوناته الايديولوجية .

ففي البلاد المتخلفة يواجهون هذه المشكلة بحل (جـــذري !) على طريقتهم الخاصة ، حيث يعمدون الى تحطيم الاقلام ، واخراس الألسنة وبناء مزيد من السجون . انهم يهيلون الرماد على النار بنشوة المنتصر المتحكم في زمام الموقف ! ولكن النار ، وهي في مكمنها ما تلبث أن تستشري وينداع لهيبها من حيث لا يقدرون ، فتحيل السجانين أنفسهم الى رماد ، ولكن لا لبواري النار هـــذه المرة وانما ليقلع مـــع رياح العدم الى الأبد !

اما في المجتمع البرجوازي ، وهو المجتمع الذي مافتيء يردد أن الحرية هي العمود الفقري لبنائه العقائدي والفكري ؛ فان نظرة نافذة غير مأخوذة بالمظاهر الخلابة قمينة بأن تكشف لنا حقيقة الحرية في هذا المجتمع ، حيث نلتقي بها مسحوقة تحت وطأة التنظيمات السرية ، واجهزة الدعاية الرهيبة ، والاحتكارات المهيمنة على الصحافة ودور النشر ، والتكتلات الاقتصادية وغيرها من وسائل الارهاب غير المنظور . ولسنا نقول هذا جزافا ، وانما نستند في ذلك الى شهادات كثير من المفكرين الغربيين من ابناء هذه المجتمعات نفسها . يقول المفكر الانجليزي هارولد لاسكي ، في كتابه « الديمقراطية الامريكية » وذلك في سياق حديثه عن سيطرة رجل الاعمال الامريكي « .. أصبح دوره هو تنظيم المجتمع الامريكي بما يحقق اقصى حرية ممكنة لكسب الارباح وفي سبيل هذا عليه ان يضع الرموز والشعارات لهذا المجتمع حتى لاتظهر عقبات تعرقل مهمته ، » ويستطرد قائلا : ... « وحتى الفنان والكاتب يجد نفسه مضطراً الى تقبل قيم رجل الاعمال ، والا فليس أمامه سوى الرحيل عن المجتمع الامريكي كما حدث عندما انتقل الكاتب الامريكي هنري جيمس الى أوروبا » .

اما في انجلترا فاني احيل القاريء الى كتاب لهارولد لاسكي اسمه « بزوغ الحرية في اوروبا » ليتبين حقيقة الحرية هناك ! وهي في أسمى حالاتها حرية داخلية مثالية تفصل بين الفكر وبين الموقف !

اما في المجتمع الاشتراكي حيث لاتعلو قيمة على قيمة الجهد الانساني وحيث المفروض ان يوضع كل شيء في خدمة الانسان ، فاننا نواجه معادلة صعبة : عدالة يجب ان تتحقق للجميع في ظلال من المساواة تحت راية النظام السائد . وقوى معوقة ضخمة ؛ وتحرك مضاد يستمد أنساغه من بقايا القيم المندحرة في الداخل ومن القوى المعادية في الخارج ،

وهي قوى تتربص بالنظام لتشوهه أو تطيح به . والنتيجة كما ذكر خروتشيف في تقريره الشهير « مزيد من الارهاب الجماعي حتى في مستويات الحزب العليا والادارة ، ومحو كل نقد حتى في اعلى التسلسل البيروقراطي ، وتهجير السكان ومن بينهم الشيوعيون ، وتأليه الزعيم » .

ولا شك ان هذا الاسلوب في المواجهة لايختلف عن الاسلوب الذي تمارسه المجتمعات الاخرى ... ، ولكن المجتمعات الاشتراكية بعد ان تجاوزت المراحل الصعبة في البناء ، تتجه الان ومنذ المؤتمر العشرين في روسيا ، بخطى متفاوتة السرعة ، نحو منح الفرد مزيداً من الحرية في محاولة لحل هذه المعادلة الصعبة ، وذلك بالسعي للمواءمة بين الحرية التي هي جوهر الوجود الانساني وبين العدالة التي هي قوام هذا الوجود . تلك هي المشكلة الكبرى التي ماتزال تتحدى هذه المجتمعات .

يتضح لنا مما تقدم ان الحرية التي ننشدها للاديب العربي ليست تلك الحرية المجردة ، اي ليست احساسا داخليا منفصلا عن المواقف الملحة ، وانما هي تجسيد لهذا الاحساس من خلال الارتباط بموقف محدد . واذن فهي حرية تنعكس في الفعل وتحقق وجودها في التفاعل مع متطلبات الحياة . ولذلك فان الاديب الثوري هو الذي يناضل من اجل الحرية لا ليرفعها كشعار ، ولكن ليحقق عالم الحرية ، الذي هو عالم الثورة ، بكل ابعاده التقدمية والنضالية .

ان الحرية بهذا المعنى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاحساس بالمسؤولية ومن شأن هذا الاحساس ان يقود الى الاختيار الواعي . ولا بد ان ينسجم هذا الاختيار مع مضمون فهم الاديب للحرية . وهو بالضرورة مضمون ثوري لانه مرتبط بموقف ثوري . وهذا هو الالتزام . وهو شيء يختلف تماما عن الالزام .

وقد لانعدو الصواب اذا قلنا ان هذا الالتزام ، او هـذا الاحساس العميق بالمسؤولية قد يلعب دورا كبيرا في حل ازمة التناقض بين الفرد والمجتمع ، بين الفرد والسلطة الثورية ، سواء في المجتمعات الاشتراكية او في المجتمعات التي ماتزال تمارس التحويل الاشتراكي ... ذلك ان الحرية لاتؤخذ لتمارس ضد مصلحة الجماهير ، ارضاء لنزوات فردية وانما لتكرس من اجل: خدمة الانسان والارتقاء بروحه ووجدانه وارهاف مشاعره الجمالية وصقلها وربطه بالقيم الثورية المتفتحة دوما على آفاق التطور ، والمتمردة دوما على كل تحجر أو جمود عقائدي . وضمن هذه الدائرة المتسعة التي يرسمها الاديب حوله بقناعة المسؤول عما يختار ، يستطيع أن يبدع أروع الاثار الادبيـة

وأخلها ، بغض النظر عن الشكل الذي يسبغه عليها ، واقعيا أو رمزيا ، قصصيا أو غنائيا ، أو غير ذلك .

ان الاديب العربي بعد الهزيمة وفي هذا المنعطف التاريخي المصيري الذي تمر به الامة العربية مطالب بأن يرتفع الى مستوى التحديات التي تواجهها امته وهي تحديات بالغة الخطورة تهدد وجودها المادي والحضاري معاً . ولقد كشفت الهزيمة عن حقيقة الخواء الذي كنا نواجه به هذه التحديات ، وليس اقدر من الاديب الثوري على مجابهة هذا الخواء وتعرية أوصاله لتستعيد الامة العربية عافيتها وقدرتها على التكيف مع ظروف العصر وبالتالي قدرتها على العطاء والمشاركة الخلاقة في البناء الحضاري .

ولا شك ان هذا الاديب سيواجه مقاومة ضارية وهو يمارس عملية الهدم والبناء هذه ، وسيجد نفسه واقعا تحت ضغوط مختلفة اهمها :

ضغط التقاليد ، والضغط السياسي ، والضغط الرجعي المتستر وراء الدين . ولكنه وهو ذو الحس الثوري قادر على أن يعي دوره الكبير في معركة بناء المجتمع العصري . ومن هذا الوعي يستمد صموده في وجه كل هذه الضغوط . وبذلك يحيل احساسه الداخلي بالحرية الى موقف ثوري تمتزج فيه الذات بموضوعها . وهذا هو محك الثورية الاصلية !

• • •

ان من أهم التحديات التي تواجهها الامة العربية وهي تحاول أن تزيح عن كاهلها أثقال القرون ، لتبني مجتمعها العصري ، وتلحق بالركب الانساني المتقدم وتكون عند مستوى رسالتها كأمة عريقة ، هي كما يبدو لنا : الصهيونية ، والاستعمار ، والتخلف . وكلها تحديات تتفاعل فيما بينها بحيث قد يصعب احيانا اعطاء الاهمية الاولى لهذا التحدي او ذاك ، فمجابهة الصهيونية تستنزف الكثير من الجهد العربي ومن موارد الامة العربية وهي موارد كان من الممكن ان توجه الى مجالات البناء لتسهم في تطوير الامــة . والاستعمار يدعم الصهيونية من جهة ، ومن الجهة الاخرى يقاوم كل الحركات التحريرية في الاقطار العربية التي ماتزال في قبضته أو السائرة في ركابه . وفي الوقت ذاته يسعى لتغذية قيم التخلف ومفاهيمها بكل مالديه من وسائل ماكرة . ومع ذلك فان القضية ليست بهذه السهولة التي تبدو بها في أول وهلة فهناك كثير من الاقطار العربية الــتي تحررت فعلا من نير الاستعمار ولم تستطع أن تتحرر من قيم التخلف بعد . وهناك اقطار لاتقع ضمن مجال التهديد الصهيوني ولا تنفق على الاستعداد لمواجهته ومع ذلك

فقيم التخلف هي السائدة فيها . لابد ان المرء يلمس في كل الاقطار العربية المتحررة وغير المتحررة صولة هذه القيم التي تشكل بسلبيتها عاملا مهما في عجزنا عن دحر الاستعمار ومواجهة الصهيونية بالقدر اللازم من الكفاءة .

واذا لم اكن مخطئاً فان التخلف ، وان أسهم الاستعمار في ترسيخ قواعده يشكل اليوم التحدي الخطير الذي يجب أن تحشد كل قوى الفكر الثوري لمواجهته وتصفية رواسبه .

لقد اخترت كلمة التخلف لتكون عنوانا كبيراً يندرج تحته كثير من ادوائنا النفسية والفكرية والاخلاقية وهي ادواء يشير استشراؤها الى ان النفس العربية مازال تعاني من الانهزام الحضاري وان تناقضاتها مازال خطيرة ورهيبة .

ليس المجتمع العصري مصانع متراميه ، وسدوداً ضخمة ومنشآت مادية تخلب الألباب فحسب . وانما هو قبل كل شيء انسان يعيش في قلب العصر ويتمثل العقلية التي تتفتح عن منجزاته الرائعة ، انسان قادر على العطاء والتحدي معاً لأنه قادر على المشاركة في صنع الحضارة وتقدمها والتفاعل مع حقائقها الكبرى .

واذا كان المجتمع العصري هو انسان هذا المجتمع اولا وقبل كل شيء فماذا ينقص الانسان العربي المعاصر ، وماذا يجب ان نتغير فيه ليكون قادراً على بناء هذا المجتمع ؟

ان الاجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر اليسير ، فالشخصية الانسانية الفردية منها والجماعية ليست شيئاً بسيطاً وليد الصدفة ، وانما هي تركيب معقد تتضافر على خلقه وتحديد سماته كثير من العوامل . وايفاء الموضوع حقه يقتضي منا عرضاً وتحليلا لكل العوامل التي دخلت في نسيج الشخصية العربية المعاصرة ، وذلك غير ممكن في هذا المجال المحدود ولذلك سنكتفي بالإشارة الى بعض الظاهرات السلبية في تركيب هذه الشخصية والتي تعوق تحول المجتمع العربي الى مجتمع عصري وذلك من خلال عرضنا للمشكلات الأساسية الكامنة وراء التخلف .

في اعتقادي أن الهزيمة التي منيت بها الامة العربية في حزيران لم تكن هزيمة الجيوش في الميدان بمقدار ما كانت هزيمة النفس العربية ذاتها . وعوامل الهزيمة في هذه النفس عديدة ، الا أن بالامكان تصنيفها وحصرها في ثلاث مشكلات جوهرية هي : -

مشكلة التفكير العلمي - ومشكلة الحرية - ومشكلة الاصالة .

١ ـ مشكلة التفكير العلمي :

لاجدال في ان عصرنا هذا هو عصر العلم ، أي عصر استخدام العقل اداة لفهم ظاهرات الكون والحياة ، ووسيلة للنفاذ الى أسرارها وقوانينها ، وذلك في منهج تجريبي خاضع لقانون التسلسل السببي ، يبدأ بالملاحظة وينتهي بوضع القانون العلمي عبر عملية عقلية دقيقة معروفة مراحلها . ولا جدال في ان كل ما تنعم به الانسانية من اسباب التقدم والازدهار انما هو وليد هـذه العقلية العلمية التجريبية التي هي التتويج لكل محاولات الانسان السابقة لهتك اسرار الطبيعة والسيطرة عليها . وقد اتسعت دائرة هذا التفكير فلم يعد حبيس المختبرات او الجامعات او المصانع وانما اصبح الطابع العام الذي يسم حضارة هذا العصر ويقود خطاها ويفتح أمام الشعوب الاخرى بمنهجه التجريبي آفاقاً واسعة من التفوق والتقدم .

ومن المؤلم ان يكون حظ الأمة العربية من هذا التفكير ضئيلا ، حيث ما تزال تسود العقلية الغيبية التي تلتمس الأسباب وتبحث عن العلـل في الخرافة والاسطورة والميتافيزيك ، الأمر الذي ترتب عليه نشوء عدة ظاهرات خطيرة في حياة هذه الامة تقعد بها عن التطور وتسلبها القدرة على مجابهة التحديات المصيرية . ومن هذه الظاهرات:

١ ـ ظاهرة التواكلية أو الروح القدرية المستسلمة لمصيرها في خنوع وصمت ، مما يؤدي الى الغاء السببية ومحاصرة التفكير العلمي في أضيق المجالات ، بل واتهامه في كثير من الاحيان المروق .

ولاشك ان طبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي سادت كثيراً من المجتمعات العربية ، كان لها دور كبير في اتجاه هذه الروح. كما ان التفسيرات الخاطئة لبعض النصوص الدينية قد لعب دوراً فعالاً في هذا المجال . او لعل الناس التمسوا هذه التفسيرات الخاطئة فراراً من واقعهم المرير وتبريراً لموقفهم منه !

٢ ـ ظاهرة الاجترار والرجوع الى الماضي لاستفتائه واستقصاء ما ورد فيه من نصوص قبل الاقدام على اي خطوة هامة . اذا ليس المهم ، عند من لا يؤمن بالسببية أن يكون هناك من الأسباب ما يستوجب اتخاذ هذه الخطوة التي قد تكون مجلبة للسعادة في الحاضر ، وانما المهم ان تكون رحم الأجداد سعيدة في اجداثها لهذه الخطوة ! وهكذا يتجاوزنا الزمن ونحن نتقدم خطوة ونتراجع عشراً .

٣ ـ ظاهرة الارتجال : لقد اصبح من الواضح والمسلم به ان شؤون العصر لم تعد تدار بالعشوائية والروح الكيفية المتخبطة ، وانـما بالتخطيط والتنهيج وتقدير

المراحل في دقة تكاد تبلغ حد الاعجاز احياناً . غير ان من يفتقر الى العقلية العلمية ، لا يمكن ان يلجأ الى التخطيط بأرقامه ودراساته المحددة ، كأداة التطوير ومعالجة المشكلات . وهكذا تعوق روح الارتجال هذه عملية التغيير الثوري التي تحاول بعض الحكومات دفع عجلته بين ركام من العقبات .

٤ – ظاهرة المواجهة الانفعالية للمشكلات الخطيرة : ذلك لأن من لايملك عقلية علمية ، متكــلا على الاقدار وقوى الغيب في درء الأخطار عنه ، لا يمكن ان يفتح نوافذ وعيه للمشكلات الملحة لكي تأخذ طريقها اليه في عملية احتضان فاحصة ، تربط النتائج بالاسباب ، وتقدر دور الافعــال المختلفة ، وتضع لكل احتمال حلا يناسبه ، ولذلك فانها تفاجأ بالمشكلات وتكون ردود أفعالها انفعالية غير مدروسة ، وقــد تؤدي الى كارثة .

٥ – انعدام ملكة النقد : ان من لا يؤمن بالسببية لا يمكن ان لايؤمن بالقدرة الانسانية على تغيير مجريات الحوادث ، او تراوده الرغبة في ذلك ، لأن كل ما يصيبنا هو هبة من الاقدار ، ولا يرفض هذه الهبة في عرفها الا الجاحدون! وبذلك تذال الأسباب تلقائياً وتمهد الارض امام القوى الشريرة الماكرة المتمثلة في الاقطاع والرأسمالية والفئات الملتفة حولها لاعتصار الطبقات الكادحة المستسلمة لاقدارها في رضى وجهالة .

٦ – ولعل تقديس الجماهير – وهذه هي الظاهرة السادسة – لبعض من يحتلون مواقع السلطة وارتباطه بأشخاصهم أكثر من ارتباطه بالأهداف المادية التي يمثلونها ، هو أثر من آثار الغيبية التي لم تدرب على التفكير الموضوعي وربط الاسباب بالمسببات . ولذلك نجد في الأعمال التي يقوم بها أمثال هؤلاء النوابغ من الرجال شيئاً خارقاً من وراء الغيب ! والارتباط بالاشخاص دون الأهداف او الارتباط من أجل الأشخاص ، هو أحد الأسباب في تعثر خطاها السياسية ، وفي الارتدادات التي تمنى بها بعض مجتمعاتنا ولعل من الممكن ان نربط هذه الظاهرة بظاهرة السذاجة السياسية التي تعاني منهــا جماهيرنا والتي تتجلى في تصديقها معسول الوعود ، ممن يذيقها أقسى العذاب ، وذلك كلما قسرته الظروف على اعلان توبته الكاذبة !

هذه بعض الظاهرات المترتبة على غيــاب التفكير العلمي من مجتمعنا ، وليست كلها . وهي ظاهرات متشابكة يفضي بعضها الى البعض الآخر ويقود اليه ولم اشأ ان أقرن كل ظاهرة بما يدل عليها في واقع حياتنا او اتوسع في عرض جوانبها حرصاً مني على عدم الاطالة ، اكثر مما أطلت : وفي يقيني ان التماس الشواهد الدالة على صدق هذه الظاهرات ، ميسور لكل من يلقي نظرة ثاقبة على اوضاع هذا المجتمع .

٣ – مشكلة الحرية :

أعتقد أن بامكاننا تناول هذه المشكلة بايجاز من خلال ارتباطها باصعدة ثلاثة :

أ – الصعيد الاجتماعي :

أن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والاقطاعية او الشبيهة بالاقطاعية التي سادت في كثير من الاقطار العربية ، وانماط الحكم المستبد التي سيطرت على هذه الاقطار خلال حقب طويلة من تاريخها ، عزلت الجماهير عزلا تاماً عن ممارسة حقها في ادارة شؤونها بنفسها . وكانت النتيجة ان انكفأ ابناء الشعب على ذواتهم متخذين موقفاً سلبياً منطوياً على الخضوع والاستسلام . فما على الحاكم الا ان يأمر فيلقي الطاعة فوراً لأن ارادته من إرادة الله ، كما ادخل في روع الجماهير زوراً وبهتاناً ، وهكذا يسهم غياب الحرية في ترسيخ الروح التواكلية التي تحدثنا عنها من قبل ، كما تسهم هذه الروح بدورها في تحطيم معنويات شعبنا وسحق تطلعاته .

ولكي نعيد الى الانسان العربي كرامته ونجدد ثقته بنفسه فان علينا ان نذكي فيه روح النضال لاستعادة هذه الثقة ، وخلق المجتمع الاشتراكي المتحرر الذي يمارس فيه هذا الانسان قدراته بعد أن تصفى منه كل صور التهديد والاستغلال والعوز .

ب – الصعيد الأخلاقي :

الاخلاق مجموعة من القيم تنبثق منها انماط من السلوك تتسق مع ما توحي به تلك القيم من مفاهيم . المفروض في حالة الاستواء ، ان يكون هذا السلوك صادراً عن اقتناع ومتجاوباً مع تطلع اصيل الى روح الخير والحق ، من اجل هذا التطلع نفسه استجابة للواجب وليس من اجل غايات غيبية خارجية عنه . ولكن النظرة الاخلاقية السائدة في مجتمعاتنا اليوم تختلف عن ذلك ، فهي نظرة ذات مفهوم زجري تتخذ من الخوف وسيلة لاثارة الدوافع والزواجر . ومثل هـــذا الشعور يتنافى مع كرامة الانسان ، كانسان ، لأنه يجرده من حريته في الاختيار ، الى جانب انه يحطم مقومات الشخصية الانسانية فيه .

ولاريب ان هذا العامل يسهم الى جانب العوامل الاخرى في قتل روح المخاطرة في الانسان العربي وبالتالي اطفاء جذوة البطولة في نفسه . وتظل ذاته دائرة في فلك المطالب اليومية الصغيرة المرتبطة بأسرته وشخصه ، بعيداً عن الشعور بالتبعة الاجتماعية .

جـ ـ الصعيد الفكري

لقد ظل الفكر العربي قروناً طويلة من الظلام وهو يرضع اثداء العبودية والقهر حتى امتلأ قيحاً غسلينا ! وما أحوج هذا الفكر لكي يستعيد عافيته ويجدد حيويته الى ان يغتسل في شمس الحرية ويعب من ضوئها حتى الانتشاء ! ان الارهاب الفكري الذي تعرض له هذا الانسان منذ عصور الانحطاط قد لا يعادله أي ارهاب تعرضت له اية أمة من الامم . وما يزال هذا الفكر في الاقطار العربية يرسف في اغلال الاستبداد والسيطرة الفردية والعشائرية .

ولعل اخطر ما خلفه ذلك في النفس العربية هو تلك الازدواجية في الشخصية . ففي مجتمع التخوف يهيمن على السلوك الفردي حذر ممتزج بالحيطة ، كما تتسع الهوة بين الداخل والخارج ، نتيجة لانطواء الفرد على ذاته وهروبه من الواقع الذي يجد نفسه عاجزاً عن مواجهته، فيبطن شيئاً ويجهر بضده ، ويعتنق رأياً ويعمل بعكس ما يعتنق. وبذلك تجف غضارة التلقائيـــة في النفس ويصبح السلوك آلياً معفراً بالملق والرياء ، لا يعكس حقيقة الذات بمقدار ما يعكس النمط المطلوب للسلوك العام . وينشأ عن ذلك ان يصبح الافراد نسخاً مكررة لهذا النمط الذي يحظى بالحماية . وهكذا تضمر المواهب وتموت المبادرات الفردية والجماعية .

ان انتهاك الحرية في الوطن العربي قد بلغ من الضراوة حداً يجعل الانتقـــال من المجتمع المتخلف الى المجتمع العصري أمراً بالغ العسر . وواجب الاديب العربي ان يناضل في سبيل اقرار هذه الحرية ، لانها حريته هو ايضاً ، حرية ابداعه وعطائه المسؤول المرتبط بالخط الثوري .

٣ ـ مشكلة الاصالة :

المجتمع العصري مجتمع متحرك منخرط في عملية تطور متصلة لا ينالها الوهن . انه مجتمع يجدد نفسه على الدوام . ومن هنا تنبع المشكلة .

فنحن لكي نلحق بركب هذا المجتمع ونرسي قواعده مطالبون بأن لانتخلف عن عملية التطور هذه ، وعن الاندماج في صميم حركتها .

ونحن من الجهة الاخرى مطالبون بأن لانذيب شخصيتنا القومية في زحام هذه الحركة .

فكيف نوفق بين الأمرين ؟ كيف نوفق بين الاندماج في روح العصر وبـين الاحتفاظ بالاصالة ؟

ولكن ماهي الاصالة اولا ؟

ليست الاصالة في رأيي هي العودة الى الماضي كما يزعم البعض ، فذلك هو الجمود المفضي الى التفسخ . كما انها أيضاً ليست تنكراً لهذا الماضي او لجوهر هذا الماضي . واقصد بجوهره رموزه الحضارية الباقية على الدهر ، لااشكاله المندرسة .

ان الاصالة هي اكتشاف العناصر والقيم الخالدة في الذات القومية وتطويرها لتنسجم مع عالم يعيش في ثورة فكرية وتكنولوجية دائمة ، على ان ننطلق دائماً في بنائنا من واقعنا الحي . وبذلك لاتتعارض الاصالة مع التطور . ويصبح اقتباس آراء الاخرين جزءاً من عملية التطور هذه لادخيلا عليها . والوسيلة الامينة ، لكي تظل هذه الذات على خط التطور الصاعد ابداً ، هو القيام بمراجعة مستمرة لمضامينها ، من أجل اعادة تقييمها واثرائها ، تحقيقاً للاتساق المنشود بين حركة التطور وبين ارتفاع الذات وبذلك نستطيع ان نمضي في بناء مجتمع واهب ، لايعيش عالة على المجتمعات الاخرى الا بمقدار ماتعيش هي عالة عليه . أي أنه يعطي مقدار مايأخذ .

هذا هو مجمل تصوري لمشكلة الاصالة التي يتخذ البعض منها ذريعة للجمود ومقاومة تيار التطور بينما هي في حقيقتها حافز على الابداع وبلورة الشخصية القومية ، في اطار باهر دائم التجدد .

تلك كما اعتقد هي المشكلات الاساسية التي تواجه الامة العربية وهي تتحفز لبناء المجتمع العصري . ويقودنا في هذه المشكلات الى الايمان بأن طريق البناء والتحرر يتلخص في عمليتين اساسيتين يجب ان تسيرا جنبا الى جنب

الاولى : اعادة بناء الانسان العربي خلقيا وعقليا وتجميع عناصر ذاته لتتماسك في تركيب متسق خلاق .

الثانية : ارساء القواعد والاسس المادية السليمة التي يمكن ان يستند اليها هذا البناء ، ويترعرع في جوها الصحي ، ويتفاعل مع معطياتها المبدعة .

* * *

وبعد فاننا نستطيع ان نستخلص من كل ما تقدم ان دور الاديب والمفكر العربي في بناء المجتمع العصري دور خطير ومحفوف بالمصاعب والتضحيات لانه يخوض معركة ضارية في وجه قوى عاتية تتحالف لسحق تيار التقدم ، مستفيدة من كل الجوانب السلبية في الشخصية العربية لكسب المعركة . ولكن الاديب العربي سيظل قادرا على اداء رسالته اذا ما استطاع بحسه الثوري أن يبقي وهج العطاء متوقدا في صدره .

كلمات بلا أجنحة

محمد أحمد العزب
القاهرة

أُريدُ لي – أتسمعون – كمْ رداء
فَهُمْ هنا يُعدّدُونني بلا انتهاء
ففي الصباح قد أكون ثائراً مدافعا
وفي المساء قد أكون خارجياً ضالعا
وقد أكون في الأصل بين بينْ
أنا الذي يقاتل الضدّينْ
ويمسح الدماء عن مفارق النجوم باليدينْ

* * *

يحكون أنّ نخْلةً عجوز
اضطَهَدَتْ جذُورَها
من يدها ضيّعت الكنوز
وداعبتْ غرورها !!

* * *

قبلي أدار الحزنُ ظهره إلى جدار
وقال للماشين .. أطلقوا الرصاص .. واستدار
العار كَبّلَ السّواعد المُوَتحَهْ
وأبدل الرصاصَ في بنادق الجموع بالغبار
من الذي عَذّبَنا
الحزنُ كان ؟ أم يكون العار ؟

* * *

في عام ألفٍ من غروب الشمس تبدأُ المحاكمه
أقوم شاهداً على نذالة العصور
أحكي لهم عن الطريق ..
عن مخاطر العبور
عن الذي يكون في الصباح ثائراً مدافعا
وفي المساء خارجياً ضائعا
أحكي لهمْ .. وقد أصير شاهداً مُتّهما
وقد أصير بين بين .. ضائعا !!!

* * *

الفارس الذي على حصانه في آخر الطريق
يرْوُون ..
كان أمس ساهداً يحاكم القمر
يرْوُون .. كان ثائراً على منازل الرياح
ملوّحاً بالسيف الغصون ..

لاعناً حنينها إلى الثمر

يرْوُون ..

كان غاضباً على المطر

لأنّ بدْء قصّة الطوفان

أنْ ينزل المطر

يرْوُون ..

لا أريد أنْ أُطيل ..

كان غاضباً على القضاء ..

غاضباً على القدر !!!

* * *

نبوءتي ..

أقولها مودّعاً مسائيَ الأخير

الماءُ قد يغيض فلتكنْ عيوننا زوارقا

مازال فَيءُ الحزْن طافياً على الوجوه

مُراهِقاً .. مُراهِقاً

يا منْ يُفسّر الرُموز بالرموز

يا من يُعلّق المشانقا !!!

يتحدّث الطمي

محمد عفيفي مطر

القاهرة

خلال المنور الخلفيّ ، في الظلمة
وحين تكفّأ الحراس تحت قتامة الكورمة
وناموا ، جئتُ ممتلئاً بفاكهة الرطوبة والعناقيد الرمادية
وإيقاع المواويل النبيذية .
أتيتُ وفي دمي رمح الأناشيد النحاسية .
أتيت إليك عبر حدائق الديجور
وفي قلبي اليام الأسود الأخرس
وقيثار الدم المهجور ..

• • •

صوت :

« يا جوع
تخضر ربيعا بعد ربيع
تأتينا كل صباح مصبوغ الشفتين
تأتينا كل مساء
مصبوغ الوجه تلونك الأضواء
تأتينا في صحف الاسبوع
مستترا تحت طقوس الكذب الاسود والتجديف
تأتينا غرا مرا يلونا بالشبع الكاذب والتخويف
يا جوع
عيناك سماء العالم ، وجهك عشب الأرض .. »

* * *

صوتان:

« - : الخبز يميت
الشمر يميت
فلنهرب في مركبة الصوم .
- : لكن الدفة في أيدي الشبعان
- : صوماً عن هُجْرِ القول
صوماً عن كل الثمر إلى أن يمضي الحوْل
- : قد مر العام الألف ولم نتقدم نحو العيد .
- : صوماً حتى نبلغ يوم العرس

كي نأكل في مأدبة الشمس
— : الجائع دَرَّفَ في الأعوام على الألفين
لكن لم يبلغ حُلُماً بعد
والبنت تجوع .. تجوع فلا يغسلها الطمث

فلندخل هذا الخان العامر كي نَتَشَمَّمَ
فيه شواء اليأس
ولنرحل كي نصطاد جراد الجوع . »

* * *

صوت :

قدماكِ في الأرضِ
قفل ومفتاح
قدماكِ مهازان للرفضِ

* * *

أتيتك في انسكاب الليل من قارورة العالم
تؤرجحني الرؤى ما بين عينيكِ
وتخنقني الروائح بين نهديكِ
ويزحف في دمي رمح الفصول .. تعيدني أفياء كفيك
إلى ميلاديَ السريّ بين الصمت والأشعار ..

* * *

أتيتكِ في طقوس الرعب والموت

فتُسلمني جسور الجوع للحبل الخفي" .. ببيعني الحراس للحراس
وتطعمني السنابل خبزها النخاس
فأنتظر الرصاصة من يد القمر المجوّف أو
ستطلقها سواقي الصيف
وأنتظر الرصاصة من زوايا دارنا أو
سوف يطلقها عليّ الضيف
وأنتظر الرصاصة من شبابيك البيوت وأسقف الظلمة
وأنتظر الرصاصة في انفراد السجن أو
في غمرة الزحمة
وأنتظر الرصاصة في فصول الجدب أو
في خضرة الكرمة
وأنتظر الرصا . . .

* * *

سأشرب من عطايا صدريَ المثقوب
وألعق ما تصلّبَ من عصافيرِ الدم المسكوب
فتملأني صقور النار
وفوق قميصيَ الدموي تشتعل الشموس وتولد الأزهار ..
سأشرب من دمي فتحل روح الذئب في جسدي
ويطلقني دمي رمحاً تَقاذَفُه رياحُ الجوع
من بلد الى بلد
ويطلقني دمي – عبر الجسور الخرس – ممتلئاً
بفاكهة البكائيات والأشعار ..

الفارس

خليل خوري
بيروت

صاعداً مثل فجر على درجاتِ الصباحْ
حاملاً حرقة اليأس والخوف ، دامي الجراحْ
قاطراً عربات الأماني الصريعه
راحلاً في الدقائق ، في حجرات الزمان العجيب
رحت أبحث عن وجهه
في الوجوه التي اصطبغت بدماء الفجيعه .

رحت أبحث عن فارسٍ ما ارتمى
ما أخافته سود الرماح
فارس هو خضر الزمان الجديد العصيب
فما انتمى لسوى صلبِه ، ما احتمى
بسوى صوتِهِ ،

ماتخيل فصحاً سوى موته
مدّ جسراً إلى رحم التربة البكر ، مدّ نجيعه .
فارس ساحه في الثرى لأعلى شرفات السّما .

صاعداً باحثا في الزمان الجديب
في دهاليز عصر التجارة والموسه
في زمان انسحاق النهود على
مذبح الزيف والغطرسه
حيث يزني الزمان الزمان الذي
عقّ فيه الفوارس ، عقّ الرجال
في الزمان الذي ساده بهلوان إذا
مالت الريح مال

صاعداً باحثا عن نبي غريب
مفرد عن سواه ، عن العصر ، لكنه
في سواه وفي العصر ، خضر غريب
لم أجد غيره في الزّمان الذي عقّ فيه الرجال .
في الزمان الذي سوّست فيه كل ادعاءاتنا
ومشت فوقنا عربات الزوال
وحدا خطونا فيه بوم الوقيعة

في الزمان الذي صار بوراً به كل قلبٍ خصيب
لم أجد غيره طالعاً من رمادِ الليال
مَصِعاً فيه عنف الصلال
عنف سود الصلال بتموز فوق هجير الرمال
مانعوّد لبس الحرير ، احتذاء النعال
لم أجد غيره صخرة ، كبرياء عطاء ، شموخ جبال
فارساً حاملاً كل عبء الصليب
رافضاً غير مجد الصليب الذي لا يدانيه غير الرجال
لم أجد غيره في الفوارس ، لا ،
لم أجد غيره في الرجال .

ثلاث رسائل جامعية

د. عبد الكريم الأشتر

مضى زمن كان فيه دارسو الأدب العربي ، من أصحاب الرسائل الجامعية ، في هذا القطر قلة تعد . وكان ينبغي ان يكون تأسيس قسم اللغـة العربية في كلية الآداب من جامعة دمشق ، قبل ما يقرب من ربع القرن (١٩٤٦) نقطة تحول حاسمة في سياسة البعوث الضيقـة التي كانت وزارة « المعارف » آنذاك تخلص لها ، لأسباب لا تعدو أن تنتهي إلى رغبة بعض المسؤولين في أن يغتسلوا وحدهم على الجرن ، على ما كان الناس يقولون من حولهم . ولو أن المسؤولين في الجامعة انشؤوا فرعاً للدراسات العالية آنذاك لدخلوا على أولئك من باب لم يحتسبوه ، ولكن الجامعيين كانوا في شغل

شاغل ، من أمر أنفسهم وأمر الدراسات الأولى التي ينهضون بها . ثم إن بعضهم كانت تعتاده الأحلام المزعجة حين يفكر في مستقبل القسم ، وما ينبغي أن يكون له في حساب الإيفاد ، على أسس التنمية الصالحة والتطوير المستمر . وبعضهم كان يعيش في عالم عجيب تنتهي حدوده عند أطراف أصابعه ؛ فما كان يدري ما يجري في العالم مما حوله ، ثم هو لا يريد أن يدري ، إذ ما يعنيه من الجامعة ومستقبلها ومستقبل أجيالها ما دام هو قائماً فيها ؟

ثم دهمهم القضاء ، واجتاحت الجامعة سيول لا تنقطع من الطلاب من كل فج ؛ فقد بدأت سياسة التوسع في التعليم الابتدائي والثانوي تؤتي ثمارهـــا من ناحية ، ولمس بعض من أفلت من الحصار المضروب على البعوث – من ناحية أخرى – نقص الدراسات القائمة في الجامعة وتخلفها . فهناك أحسوا الفاجعة إحساساً عميقاً ما يزالون إلى اليوم في غمرته القاسية : مواد أساسية في تكوين طالب الدراسات الأدبية واللغوية ليس فينا من ينهض بتبعاتها على الوجه الذي انتهت إليه هذه الدراسات في بعض البلاد النامية لا في البلاد المتقدمة ! وآلاف الطلاب تجمعهم قاعات حقيرة لا يكاد صوت الأستاذ يصل فيها الى مسامعهم إلا بشق النفس وانقراط المرائر ، دون أن يجرؤوا على المطالبة بالتوسع بالتشعيب ، لنقص الأساتذة أصحاب الاختصاص . فمن هنا بدأ تدافع الشباب على السفر سعياً وراء التخصص ، من كل باب . وانقضت سنوات قليلة بدأت بعدها طلائعهم تعود الى دمشق . وتعلقت أنظارهم بالجامعة ، فلا سبيل لهم إلى غيرها . وليس سبيلهم إليها معبّداً على كل حال ؛ فدون ذلك أهوال ومرارات . على أن بعضهم أدرك الجامعة فدخلها ، أو هو في سبيله الى أن يدخلها . فمن هؤلاء ثلاثة تهيأ لي أن أنظر في بعض رسائلهم التي نالوا بها درجاتهم العلمية ؛ وهم ، فيما أحسب ،

يتهيئون اليوم لنشرها في الناس ليفيدوا [1] منهـــا ، فانهم لم يظفروا بدرجاتهم لينأموا فوقها ، ولكنهم كدوا واجتهدوا ليتقدموا بالمعرفة خطوة أو خطوات في مجال اختصاصهم . ومن حق مواطنيهم أن يعرفوا ما صنعوا ، وقيمة ما صنعوا في غربتهم الطويلة . فلهذا أنشر اليوم رأيي في هذه الرسائل ، وأرجو أن يدرك هؤلاء الشباب أن نشر ما أقوله ، في وجه من وجوهه ، احتفال بأعمالهم وتقدير لها وسير بذكرها في مواطنيهم . ولئن كان في بعض ما أقوله ما لا يرضيهم ، إنهم تعودوا الصبر على مرارة النقد والمراجعة ، وتكوّن لهم ، فيما نحب أن نظن ، خلق علمي صلب لا تؤذيهم معه كلمة الحق ولا تذهب بأنفسهم كلمة غيرها ؛ فهم طلاب الحقيقة على أي وجه تكون .

* * *

فأولى هذه الرسائل رسالة تقع من نفسي موقعاً خاصاً ، وأحسب أنها ستقع من نفوس القراء هذا الموقع ؛ ذلك أن الذي كتبها ونال بها درجة الدكتوراه في الآداب ، فتاة [2] أخلصت نفسها للبحث والدرس . ثم تهيأ لها أن تسافر الى القاهرة لتستكمل أسباب التحصيل العالي ؛ فنالت درجة الماجيستير على رسالة كتبتها عن النزعة القومية والإنسانية في شعر شعراء المهجر الجنوبي (نشرتها الدار القومية للطباعة والنشر في القاهرة ، سنة ١٩٦٦) . ثم تابعت فنالت شهادة الدكتوراه على رسالتها هذه التي أعرف القراء بها .

موضوع الرسالة : القصة في الشعر العربي المعاصر ؛ وتتألف من مقدمة

---

(١) نشر بعضها اليوم ، وهو في أيدي القراء على ما سنرى بعد .

(٢) الدكتور عزيزة مريدن المدرسة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق .

وتمهيد ،وثلاثة أبواب، وخاتمة . ففي المقدمة سوّغت الباحثة اتجاهها إلى البحث ، وشرحت مسلكها فيه . وفي التمهيد عرضت عرضاً قصيراً للقصة باعتبارها فناً أدبياً قائماً، له أصوله الفنية ، وقواعده، ومقوماته ، ومقاييسه النقدية . وكان أكثر مايشغلها أن تستطلع آراء القصصيين ، والمعنيين بالقصة من العرب ، لتستضيء بها – من بعد – في فهم ماتسميه: « القصة الشعرية العربية» . ثم خلصت في التمهيد إلى صلة القصة بالشعر . وانتهت إلى أن « القصة الشعرية » تجتمع فيها خصائص فنية مركبة لاجتماع هذين الفنين من فنون التعبير فيها . ثم فرّقت بعد هذا بين الأقصوصة والقصة الطويلة في الشعر ، واستبعدت الملاحم والسير بحجة أنها « نوع آخر من الشعر غير القصة ، وإن تضمنت أحداثاً قصصية » !

وانصرفت الباحثة بعد هذا الى أبواب البحث ، فدرست في الباب الاول الصور الشعرية القصصية في أدبنا القديم ، تحقيقاً لما ترى من استمرار القديم في الحديث ، في الحياة الأدبية والفكرية .وانتهت الى أن هذه النماذج تفتقدمقومات البناء القصصي ، فهي لاتعدو أن تكون – في الأعم الأغلب – صوراً شعرية تُعنى بالحوار .

وأدارت الباب الثاني على ماسمته « الأقصوصة في الشعر العربي المعاصر» ، فدرست في فصوله الخمسة المتابعة الأقصوصة التاريخية ، والأسطورة الرمزية ، والأقصوصة الوعظية ، والأقصوصة العاطفية ، والأقصوصة الاجتماعية والتأملية ، والأقصوصة الوطنية والقومية . وكان منهجها في الدرس هو عين المنهج التحليلي الذي اتبعته في الباب الأول: تجمع المضامين المتشابهة أولاً ، ثم تنصرف الى تحليل صورها صورة صورة حتى تخلص الى نظرة استقراء شاملة مركزة تجتمع فيها النتائج التي تقررها . وقد جرّها هذا المنهج إلى أن تأتي على كل صورة شعرية

قصصية مهما بدت غثة منطفئة ، وحوّل نظرَها ، في التقويم ، عن الشعر – وهو مادة الصورة الأصيلة – إلى القصّ ، وهو الشكل الذي لا يغني عن جوهر الشعر.

وعلى النحو نفسه درست في الباب الثالث ما أسمته « القصص الشعرية الطويلة » ، فخصصت الفصل الأول منه لدرس القصص التاريخية والأسطورية ، والفصل الثاني لدرس القصص الوجدانية العاطفية ، والفصل الثالث لدرس القصة الاجتماعية ، والفصل الرابع لدرس القصة الوطنية والقومية . وكان معيارها في التمييز بين ما أسمته « الأقصوصة » وما أسمته « القصة الطويلة » سعة المحيط الذي تشمله القصة ، وتشعب الأحداث ، وتوفر الشخصيات ، والخروج الى التعبير عن أحوال شعورية متسعة تتعدد لها زوايا النظر إلى الأحداث والشخصيات . وقد انتهت الباحثة في الصفحات التي استخلصت فيها خصائص هذه القصة الشعرية المطوّلة على حد تعبيرها ، إلى ما لابد أن تنتهي إليه ، وهو أن نجاح الشاعر فيها إنما يقاس أولاً بتوفر الطاقة الشعرية ، ثم يكون نجاحه في القصّ سرداً وحواراً وتصويراً – تبعاً مكملاً ، لا يستغنى به عن وقدة الشعور .

ولعل إقرار الباحثة بهذه الحقيقة في الصفحات الأخيرة من بحثها ، هو أدلّ ما في الرسالة على قدرة الباحثة على التجرد للحقيقة ، مهما تعارضت مع الرغبة الذاتية . فقد استطاعت آخر الأمر أن تقرر في غير تردد أن « القصة الشعرية في أدبنا الحديث يحول دون ازدهارها ونموها « عقبات جمة وعواقب كثيرة من القيود التي تتحتمها طبيعة الشعر » . فبهذا التقرير الواضح تفتح الطريق إلى معاودة الرأي في المنطلق الذي انطلقت منه في النظر إلى الموضوع ، إذ يسهل علينا أن نجد في الأدب العربي قديمه وحديثه ، شعراً ينحو منحى قصصياً ، ويصعب جداً أن نجد فيه قصة تكتمل لها الخصائص الفنية المتشعبة التي نعرفها لقصة اليوم . ولعل إقرارها بهذه الحقيقة

أيضاً يسهل عليها أن تعاود الرأي في موقفها القاسي من حركة الشعر الحديث .

والبحث بعد ذلك يعوزه مزيد من التنسيق فيما يتصل بمضامين المقدمة والتمهيد بصورة خاصة ، ومزيد من العناية في الصياغة والتركيب ليتحرر من من أخطاء ملحوظة . ويعوزه أيضاً مزيد من التدقيق في الأحكام والصفات العامة التي تميل اليها الباحثة أحياناً .

على أن هذا لايقلل من قيمة العمل على الإطلاق ، فان جهداً رائعاً متصلاً وراءه ، تهيأ للباحثة معه أن تطلّع على مايصعب إحصاؤه من الدواوين ، لاستخلاص صور الشعر القصصي منها ، والنظر فيها ، وضم بعضها إلى بعض ، ودرسها وتقويمها واستخلاص الأحكام العامة عليها .

وينبغي أن يقدر للباحثة بعد هذا كله وعيها المنهجي في كتابة البحث ، والعودة إلى مصادره ومراجعه وتنظيمها تنظيماً مبدراً ، وقدرتها اللغوية التي تتضح في حسن التعبير ودقته ومتانته معاً .

* * *

وأما الرسالة الثانية فقد كتبها شاب [1] أوفدته الجامعة ، في القلة القليلة التي أوفدتها إلى القاهرة ، ليستكمل تحصيله العالي . وفرضت عليه أول الأمر أن يعنى بهذه المرحلة الكئيبة من تاريخ أمتنا وسياستها وأدبها على السواء ، مرحلة الانحطاط . وما كان الشاب يريدها لنفسه ، فإن نظره كان يجول في مراحل الازدهار والتفتح . ولكنه قال لنفسه : إنه ينبغي أن نعنى بمراحل تاريخنا الأدبي كلها عناية البحث والدرس والاستقصاء ، لنفهم عوامل الضعف التي ساقت

(١) الدكتور محمود الربداوي المدرس في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دمشق .

أدبنا إلى الانحدار والبلادة الفكرية . فمن هنا أذعن للقضاء حيناً فكتب رسالته هذه التي نعرف بهـــا هنا . ثم شمخت نفسه من بعد فارتد ، في رسالة الدكتوراه[1] إلى أزهى عصور الأدب ، ولكنه أبقى بينه وبين رسالته الاولى خيطاً لم يقطعه ، هو درس النقد العربي الذي رآى آخر الأمر أن يخلص نفسه له .

فأما موضوع الرسالة التي نقف عندها اليوم ، فهو (ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً) . وهي تقع في مقدمة ،وثلاثة أبواب ،وخاتمة . وقد نهج في التخطيط لها نهجاً مبسطاً فجعل الكلام على شعره في باب ، والكلام على نقده في باب ، وأضاف إلى البابين باباً تكلم فيه على عصر ابن حجة وحياته وآثاره . وقدّم للرسالة بمقدمة صغيرة نمّت عن تقدير متواضع لعصر الجمود والتخلف في أدبنا ولرجاله ونتاجهم . وأنهاها بفصل قصير بين فيه منزلة ابن حجة من شعراء العصر وناقديه ، وبخاتمة صغيرة أيضاً فسر فيها منهجه في الدرس ، وقرّب نتائجه التي انتهى إليها ، وأنصف نفسه فيما صرف من جهد .

وقد فصّل الكلام في الباب الأول فصولاً ثلاثة قسم أولها – وبدور على العصر – ثلاثة أقسام ، شملت النظر – على التعاقب – في حياته السياسية والاجتماعية والفكرية . ونذر الثاني لحياة ابن حجة ، وقسم الثالث قسمين تناول فيها – على التعاقب أيضاً – آثاره النثرية والشعرية .

فهذا الباب أحفل أبواب الرسالة بالتحقيقات التاريخية والأدبية ، وأدلّها على جهد الباحث وصبره على حرارة البحث وجهامته . ولو قدر أن يستخلص من

---

(١) موضوعها : الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام . وقد تولت دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، هذا العام (١٩٦٩) نشرها .

التفصيلات التاريخية الكثيرة التي أوردها صورة العصر التي فعلت في تكوين ابن حجة النفسي والفكري والأدبي، لخفف ذلك من وطأة هذه التفصيلات التاريخية واستطراداتها . ولو أطال النظر في بعض ماقرر من الاحكام لما حمّل بعض مراحل تاريخنا القديم مالا يحمل ، ولأنجاه ذلك من أن يستخدم مصطلحات اجتماعية لم لم نعرفها إلا في وقت متأخر. على أن الباحث بعد هذا نسج حياة ابن حجة نسجاً حسناً من خيوط تاريخية وأدبية متفرقة ، نسّق بينها ورمّم جوانب النقص والاهتراء فيها ، وإن فاته التوفيق في استخلاص صورة التكوين العامة التي تكون معها صفات الفرد دلائل على حقيقته العميقة ، لاحقائق متفرقة قائمة بذاتها .

أما الباب الثاني (ابن حجة الشاعر) فيدور على أربعة فصول ؛ درس في الأول منها « بواكير نظمه » فعرض بهذا لظاهرة نمو الزجل في العصر المملوكي، ففسرها في ضوء الانفصام اللغوي الذي أصاب المجتمع العربي في سن مبكرة . ولو أنه تابع تفسير ظاهرة التقليد في شعر العصر ، في ضوء هذا الانفصام أيضاً، لوصل الى نتائج باهرة كان الدكتور عبد العزيز الأهواني أول من سبقه اليها في كتابه (ابن سناء الملك ومشكلة الابتكار والعقم في الشعر) . ولكنه لم يفعل ، فوقع في افتراضات بعيدة . ثم إنه لو فعل لنظر الى زجل ابن حجة — من الوجهة الفنية — نظراً آخر .

واستعرض الباحث في الفصلين التاليين أنواع النظم وفنونه عند ابن حجة، فدرس الزجل والموشح والدوبيت وظواهر التخميس والتشطير والتضمين . ثم تابع الكلام على أغراضه الشعرية التي سماها « فنوناً » ، فدرس شعر المديح والتهنئة والفخر والوصف والنسيب والرثاء والشوق والحنين والاعتذار والعتاب والاستعطاف والهجاء والحكمة والإلغاز والأحاجي والخمريات . ووقف — في فصل كامل

أخير – على ما سماه حيناً « الخصائص الفنية في شعره » ، وما سماه حيناً « الخصائص الأسلوبية » .

وكان استعراضه لهذه « الأنواع والفنون » يقوم ، أكثر ما يقوم ، على عرض نماذج منها عرضاً يعرف بها تعريفاً مختصراً ، ويمهد لها أحياناً تمهيداً تاريخياً تخالطه استطرادات لا تشفع طرافتها، في رأينا ، لإخلالها بسياق الكلام ووحدته في بعض المواضع . على أن الباحث كان يسمي مظاهر النقص بأسمائها في تجرد وصدق واخلاص تعين على حسن التقويم وسلامته . وكان أكثر مالفت نظره عجز شاعره عن الابتكار . ولو كان تناوله باعتباره ظاهرة شاخصة من ظواهر العقم في العصر ، يدرسها ويحللها ويفسرها ، لكان في رأينا ، استشرف بدرس الخصائص الفنية ، في الفصل الأخير من هذا الباب ، آفاقا تتعدى إحصاء ظواهر التورية والتضمين وبراعة الاستهلال ، وما سماه « ظاهرة القافية » وأسبابها ، والتكرار والتقطيع .

ثم انتقل الباحث ، في الباب الثالث من رسالته ، الى موضوع جديد ، هو نقد ابن حجة ، وقد خص الباحث الفصل الأول بالنظر في نقده البلاغي ، فألم في مطلعه بتاريخ الداء القديم الذي غلب على نقدنا ، وهو غلبة البلاغة على النقد . وقد جره هذا الى الإلمام بنشأة البديع ، وإطالة النظر في البديعيات وتطورها ، لينظر منها الى بديعية ابن حجة وشرحها (التقديم) ، ووجوه البلاغة فيها ، وثقافة ابن حجة البلاغية الضخمة ، وأثر البديعية فيمن جاء بعده من المشتغلين بالبلاغة ، والخصومات الأدبية التي خاض ابن حجة معتركها مدافعاً عن بديعيته ، وما ألف فيها من الكتب . وكان يتخلل هذا كله نظر في مذاهب الشعراء البلاغية في هذا العصر وانقسامهم فيها فريقين : فريقاً يناصر التورية ، وفريقاً يناصر الجناس . وقد وقف ابن

حجة في صف الفريق الأول، فهاجم «مذهب الجناس» وأزرى بأنصاره ومن لحق بهم من أنصار الطباق. ووقف الباحث يؤرخ لمذهب التورية الذي اتبعه ابن حجة، ثم مالبث ان أنحى عليهم جميعاً باللوم، وحملهم مغبة ما آل اليه الشعر العربي في عصرهم من الهزال والانطفاء. ولو انه حرص على ان يربط الظاهرة البلاغية بمرحلتها الزمنية ويفسرها في ما لابسها من أحوالها الفكرية العامة، لاتجه إذن بلومه اتجاهاً آخر.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب – وقد قصره على النظر في آراء ابن حجة النقدية العامة – جمع في القسم الأول منه آراءه النظرية في العمل الشعري ومقاييسه، وهي آراء توزعتها كتبه البلاغية التي ذكرها الباحث في الفصل المتقدم من هذا الباب. ثم ضرب – في القسم الثاني من الفصل – أمثلة تطبيقية اختارها لما قدم من آراء ابن حجة النظرية في النقد. ونعتقد أن الباحث لو قدم النظر في نقد ابن حجة، وجعل النظر في شعره من بعد مثلاً تتجلى فيه آراء ابن حجة النقدية ومذهبه في البلاغة، لبدا عمله أشد تماسكاً، فان صدعاً عميقاً يقوم بين البابين الأولين اللذين دخل منهما الباحث على شعر ابن حجة، والباب الأخير الذي دخل منه على نقده.

وقد خاص الباحث أخيراً – قبيل الخاتمة – إلى فصل قصير بين فيه، في نصفة تستحق الإعجاب، منزلته من شعراء العصر، وهي منزلة تلخصها قولة الباحث: «إنه شاعر من أحسن شعراء قرنه، ومن أوسط شعراء عصره».

لقد خاض الباحث معتركاً صعباً في عصر مظلم كئيب، لم يثنه عنه كآبته ولا تخلفه، فأضاء كثيراً من المصابيح فيه. وقد قبل أن يحفر في الصخر. وإن عمله – على حاجته الى مزيد من التماسك والمعاودة والتركيز والتعميق في التخطيط

والتقرير والتعبير – تبدت فيه قدرة ممتازة على البحث العلمي الرصين، وصبر جميل على الدرس والتنقيب والاستقصاء.

• • •

وأما الرسالة الثالثة فكتبها شاب آخر [1] يرى أنه أخلص نفسه للنقد أيضاً، نقد الأدب العربي الحديث. وقد قدّم في العام الفائت (١٩٦٨) رسالته التي نال عليها الدكتوراه، وموضوعها «الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث في مصر». فأما رسالة الماجستير التي نقف عليها اليوم فموضوعها «القصة القصيرة في الأدب الشامي الحديث» باعتبار ديار الشام بأقاليمها الأربعة وحدة ثقافية ماثلة. ويدور البحث فيها على أربعة أبواب تتقدمها مقدمة طويلة تستعرض البحوث التي وقع عليها الباحث في موضوعه، وتقومها، وتخلص إلى شرح منهجه الذي اختاره في بحثه، على نحو لا يخلو من الإدلال والإطالة. ومنهجه – في كلمتين ميسرتين – هو المنهج التكاملي الذي يستعين بحقائق النفس والتاريخ والاجتماع في درس الأدب ونقده. وقد تميزت له أربع مراحل في تكوين قصتنا القصيرة أدار عليها أبواب البحث الأربعة من بعد.

على أن الباحث وقف على أبواب البحث وقفة أخرى استغرقت خمساً وعشرين صفحة استعرض فيها صوراً بارزة من تراثنا القصصي القديم، الفصيح منه والشعبي. وانتهى إلى ان هذا التراث لم يؤثر في نشأة القصة القصيرة عندنا على الإطلاق. وقد وجد الباحث نفسه بعد ذلك، في أثناء البحث، مضطراً إلى التخفيف من حدة هذا الحكم في مواضع كثيرة. ومن غير المعقول أن تنفصل أمة

---

(١) الدكتور نعيم حسن اليافي.

عن تراثها الكبير هذا الانفصال الذي يتصوره البـــاحث ، مهما بلغ مدّ الثقافة الغربية وأثرها فينا .

وبدأ الباحث بعد ذلك بتناول القصة القصيرة في أولى مراحل نشأتها : المرحلة البدائية — على حد قوله — التي كانت فيها تحفل بالأحـــداث والشخوص والمواقف ، مما جعله يسميها (قصة الرواية المكثفة) . وقد صور ملابسات هذه المرحلة التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية . ووقف عندتكوين الصحف، وأثره في خلق القصة المترجمة والقصة الموضوعة ، واتجاهاتهما التي اتجهتاهما . فهذه هي المرحلة الأولى في عمر قصتنا القصيرة . وقد بيّن الباحث قصورها في بنائهاالفني، وتصوّر شخوصها وافتعال حوادثها وسذاجة مقاصدها ، حتى لتعد روايةمضغوطة في حيز ضيق تفتقر إلى الوحدة والتركيز ، وهما الصفتان الأساسيتان للقصة الفنية القصيرة .

أما المرحلة الثانية ، فهي (قصة المقالة الرومانسية) التي لابستها أحداث سياسية واجتماعية ونفسية حادة كان من شأنها أن تعزز الاتجاه إلى الرومانسية في القصة القصيرة بخاصة ؛ فتحولت — على حد قول الباحث — إلى العناية بالمواقف الشعورية للفرد الرومانسي ، وحـارت بين شكل القصة وشكل المقالة . وتمثل قصص جبران هذه المرحلة أتم تمثيل وأقواه . وقـــد انتهى الباحث في تقويم قصة جبران إلى ماانتهت إليه الدراسات التي سبقت دراسته ، وان قصر الباحث — أحياناً كثيرة — في الإشارة إليها أو الإحالة عليها .

وفي المرحلة الثالثة تتجه القصة الشامية القصيرة — على مايرى البـاحث — إلى الواقعية ، لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية كانت تدفع بالمجتمع إلى محاولة التلاؤم مع الواقع . على أن هذه القصة وقفت عند حدود هـذا الواقع

تكاد تصوره تصويراً حرفياً ، فلهذا دعاهـــا الباحث ، في غير توفيق ، « قصة الصورة » . وقال في تقويمها : إنها ظلت مؤرجحة بين صنعة الفن والنقل الحرفي عن الحياة . وقد وصل الباحث إلى أن كتاب عبد المسيح حـــداد (حكايات المهجر) يعتبر المثال الأول الذي تجلت فيه هذه القصة . والواقع ان الباحث كان يستطيع هنا أن يقيم صلة – على نحو ما – بين قصتنا الحديثة وقصتنا القديمة ، لولا أن ماقدمه من انقطاع صلتنا بتراثنا القصصي القديم في كتابة قصتنا القصيرة لفته عن ذلك ، فأضاع فرصة كان يكون – لو استغلها – ركز في دراستنا النقدية الحديثة معلماً واسعاً . وإلى « قصة الصورة » هذه تنتسب – في رأي الباحث – قصص علي الطنطاوي ووداد سكاكيني ونجاتي صدقي ومارون عبود وفؤاد الشايب وخليل تقي الدين وآخرين .

وأما المرحلة الأخيرة التي انتهت إليها القصة القصيرة في ديار الشام ، فهي القصة الفنية القصيرة من الريادة إلى التكوين . وقد بيّن الباحث في مطلع الباب الرابع الذي خصصه لدرسها خصائصها الفنية . ويعتبر ماقاله هنا أنضج مافي رسالته وأعمقه وأكثره إفادة . وإلى هذه المرحلة تنتسب قصص نعيمة وعواد ومحمود سيف الدين الإيراني وسعيد تقي الدين والعجيلي وآخرين من الجيل الجديد . وقـــد خصص الباحث لهؤلاء القصاص من هـــذا الجيل فصلاً في هذا الباب صنفهم فيه تصنيفاً حسناً على أساس من الاتجاهات التي اتجهوهـــا ، ودرس بعض الظواهر الطاغية على نتاجهم القصصي ، وما أدخلوا على الشكل القصصي من تطوير . ووقف قليلاً عند مشكلة العامية في بعض حوارهم الذي كتبوه ، ورفضها رفضاً واعياً مقبولاً على أساس الدعوة الى اللغة الثالثة التي لاتترفع عن العامية حتى تنقطع عنها ، ولا تنغمس فيها حتى تفقد أصالتها ؛ فهي تأخذ الصالح من اللغتين جميعاً .

وقد أنهى الباحث بحثه بخاتمة لخص فيها النتائج الكبيرة التي انتهى إليها فيه، وعبّر عن ملامح قوية استطلعها في مستقبل القصة القصيرة في الشام .

فمن هنا يبدو أن الباحث لم يقتصد في بذل الجهد ، حتى استطاع أن ينحو ببحثه نحواً أعمق وأصل وأكمل مما نحا الآخرون في درس القصة في الشام . ويشف البحث في تكوين فني حسن يفسده أحياناً إدلال حاد ، وغموض في التفكير أو التعبير، مانشك أنهما سيذهبان مع تقدم السن وموالاة البحث . ويُعدهذا البحث – في كل حال – إضـــافة قيمة إلى البحوث المنهجية التي تتناول أدبنا الحديث بالدرس والتقويم .

على أن أشدّ مايؤذي الباحث وبحثه من جهة الصياغة واللغة ، ففيهما خلل يكاد يذهب بحسنات البحث كلها : أخطاء في التركيب والنحو والإملاء والصرف لاتكاد تحصى . فلماذا لم يسدّ الباحث هذه الثغرة في تكوينه سداً عاجلاً هبت عليه منها ريح عاتية . ويبدو أن الباحث ضعيف الاتصال بالأدب القديم ، لم تتح له قراءته قراءة تمرس وانطباع بالجملة العربية وأسرار تركيبها العضوي . والرأي ألا يقطع الباحث صلته بهـــذا الأدب ، ففيه وحده مكمن القوة والأصالة في التعبير .

ثم إنه كان على الباحث أن يدقق في نسبة الآراء إلى أصحابها ؛ فإن الحقائق في البحث العلمي يقوم بعضها على بعض وتكتمل مع الزمن . وكان من الخير أيضاً أن يخفف الباحث من حدته في تناول آراء من سبقه من الباحثين ، فإن كلمات « البدائية » و « السوقية » لاتجدي شيئاً في إيضاح الحقائق والإقناع بها . وفي البحث نواقص منهجية تتصل بالاقتصاد في التعبير ، وتقليم الحواشي ، والتخفيف من الجزم في عرض الرأي مع الإلحاح في تقليبه وفحصه ، والعودة إلى منابع الآراء في مظانها الرئيسية .

الكوميكون

مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة

د. أحمد مراد

خرجت بلدان اوروبة الشرقية والاتحاد السوفييتي من الحرب مثخنة بالجراح .. وبدأت العمل لإعمار ما خربته الحرب من خلال برامج الاصلاح الزراعي وبرامج التصنيع . وخلال السنوات الاولى لما بعد الحرب انتقلت السلطة السياسية ، في بلدان اوروبا الشرقية ، باشكال واوقات مختلفة الى الاحزاب الشيوعية والاشتراكية . وانبثق عن انتصار الثورة الاشتراكية في هذه البلاد وجود مجموعة من الدول التي تنهج الاسلوب الاشتراكي . وبذلك لم يعد النظام الاشتراكي يقتصر على بلد واحد بل اصبح نظاما عالميا.

وبدأت اجراءات التحويل الاشتراكي في نطاق الاجهزة الاقتصادية والحكومية . وبوشر بوضع وتنفيذ خطط الانشاء والتعمير القصير الامد ، ثم تبعتها الخطط الخمسية الاولى ، للوصول بهذه البلاد الى مرحلة عليا من التصنيع . وكانت اوروبا الغربية تعمل في نفس الوقت ومن خلال مشروع مارشال وزحف رؤوس الاموال الامريكية ، على اعادة اعمار ما خربته الحرب .

ومع ظهور مجموعة هامة من الدول الاشتراكية ، اقتضى الامر التفكير بتوحيد جهودها في الميدان الاقتصادي ، والانتقال من اسلوب التعاون الثنائي بين كل دولتين على حدة ،الى الاسلوب الجماعي الذي يضم مجموعة البلدان الاشتراكية في اوروبا الشرقية . وهكذا تم انشاء منظمة مجلس المساعدة الاقتصادية للدول الاشتراكية ، والمعروفة باسم « الكوميكون » في مطلع عام ١٩٤٩ ، من كل من بلغاريا وهنغاريا وبولونيا والاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا . وانضمت جمهورية البانيا الشعبية الى المجلس المذكور في شباط ١٩٤٩ وتبعتها المانيا الديموقراطية في عام ١٩٥٠ ، ثم منغوليا الشعبية في عام ١٩٦٢ .ثم عقد اتفاق تمثلت يوغوسلافيا بموجبه في مختلف هيئات المجلس.ويشترك حاليا ممثلون لبعض البلدان الاشتراكية الاخرى كاعضاء مراقبين في دورات مجلس المساعدة الاقتصادية وهيئات عمله . وقد اتخذ المجلس موسكو مقرا له . واقيم له هناك بناء خاص كبير .

وفي نطاق هذا البحث نعرض :

١ – احكام ميثاق مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة .

٢ – وسائل تحقيق اهداف مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة .

٣ – تعاون بلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة في تطوير الاقتصاد الوطني.

ونعرض لكل من هذه الموضوعات بالتفصيل الكافي .

اولا – احكام ميثاق مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة :

على الرغم من ان انشاء منظمة الكوميكون جرى في عام ١٩٤٩ ، فإن إقرار ميثاقها قد تم في الدورة الثانية عشرة في عام ١٩٥٩ . وقد جاء الميثاق مقتضباً في احكامه يتألف من مقدمة و ١٧ مادة تتصف بالمرونة والايجاز ومنح الحرية في التصرف للهيئات واللجان التابعة للمنظمة . وقد جاءت هذه الصياغة نتيجة للخبرة الطويلة الامد التي تشكلت بين عامي ١٩٤٩ – ١٩٥٩ بحيث تركت جميع الاحكام التفصيلية الى نصوص تقل عن درجة الميثاق . وقد ساعدت طبيعة العلاقات بين الدول الاعضاء،والايديولوجية المشتركة بينها ،على الوصول الى هذا الامر .

تعرض مقدمة الميثاق الاساس النظري للتعاون الاقتصادي بين البلدان الاشتراكية، وتوجه الانظار الى ما يمكن ان يحققه التعاون الاقتصادي بين الدول الاعضاء من الفوائد في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لهذه الدول ، سواء من حيث تحقيق

تنمية حتمية لاقتصادها الوطني أو رفع مستوى المعيشة أو تدعيم أواصر التضامن فيما بينها . وتؤكد المقدمة ان لا بد لنجاح مثل هذا التعاون من قيام المنظمة ، وذلك لأهمية الدور الذي يمكن ان تلعبه في هـذا المجال . كما اعتبرت المقدمة ان قيام هذه المنظمة هو نتيجة للتقسيم الدولي للعمل الاشتراكي في كل بلد يسهم في تحقيق الاشتراكية .

وقد حددت المادة الاولى من الميثاق اهداف المنظمة وهي :

١ - تطوير الاقتصاد القومي للبلدان الاعضاء بصورة مخططة .

٢ - تأمين تطور تكنيكي واقتصادي اسرع مختلف الدول الاعضاء .

٣ - تصنيع البلدان الاقل تطوراً بين البلدان الاعضاء .

٤ - زيادة انتاجية العمل في البلدان الاعضاء بصورة مستمرة .

٥ - تحسين مستوى الحياة للبلدان الاعضاء باستمرار .

وقد تضمنت المادة الاولى ، ايضا ، الاسس التي يقوم عليها التعاون بين اعضاء المنظمة في تحقيق اهدافها ، وهي :

١ - المساواة في السيادة في الحقوق والاحترام المتبادل للسيادات والمصالح الوطنية في نطاق المنافع المشتركة والمساعدة الاخوية المتبادلة .

٢ - ان تؤخذ القرارات والتوصيات في المجلس بموافقة الدول التي تجد في تلك القرارات والتوصيات مالا يتعارض مع مصالحها . وبالتالي فالقرارات ملزمة للدول التي تصوت عليها وغير ملزمة للدول التي لا توافق عليها .

٣ - لكل من الاعضاء عند التصويت عدد متساو من الاصوات .

وقد ميزت المادة الثانية من الميثاق بين نوعين من الاعضاء : اعضاء مؤسسون واعضاء مقبولون . ولكن كلا النوعين هم اعضاء اصليون في المنظمة لا فرق بينهم في الحقوق والواجبات . ويشترط للانتساب للمنظمة :

١ - ان تقبل الدولة طالبة الانتساب باهداف ومبادىء المنظمة .

٢ - ان تلتزم الدولة طالبة الانتساب بالواجبات الملقاة على عاتقها بموجب الميثاق.

وقد كان يشترط في السابق ان تكون الدولة طالبة الانتساب اوروبية . وقد جرى تعديل هذا الشرط في عام ١٩٦٢ ، وتم بموجب هذا التعديل قبول جمهورية منغوليا الشعبية في المنظمة . ومجلس المنظمة هو الجهة التي يعود اليها امر البت بطلب الانتساب المقدم.

ولكل من الدول الاعضاء الحق في الاشتراك في جميع فروع واجهزة المنظمة. ويمكن لكل من الدول الاعضاء الانسحاب من المنظمة بابلاغ رغبتها خطيا الى الامانة العامة للمنظمة . ويصبح ذلك نهائيا بعد مرور ستة أشهر من تقديم الطلب . ولا يشترط لذلك موافقة بقية الاعضاء . هذا ولم تنسحب حتى الآن اية دولة من المنظمة ، وان كانت ألبانيا قد انقطعت عن حضور الاجتماعات منذ فترة من الزمن بعد الخلافات العقائدية ضمن الحركة الشيوعية العالمية .

وتتألف اجهزة المنظمة من الهيئات الرئيسية التالية :

١ – المجلس .

٢ – هيئة المندوبين الدائمين في المجلس .

٣ – اللجان الدائمة .

٤ – الامانة العامة المركزية .

وقد اضيفت الى هذه الهيئات ، بنتيجة التعديل الذي طرأ على الميثاق عام ١٩٦٢ الهيئتان التاليتان :

١ – اللجنة التنفيذية .

٢ – مكتب تنسيق المناهج الاقتصادية .

ان المجلس هو اعلى سلطة في المنظمة . وهو يعقد اجتماعين دوريين في السنة . كما يمكن له عقد دورات استثنائية . ويترك الميثاق للدول الاعضاء اختيار عدد ممثليها، وهم على الاغلب الوزراء او نوابهم او المشرفون على الشؤون الاقتصادية الرئيسية . وقد بلغ متوسط عدد اعضاء الوفد في دورة كانون الاول ١٩٦١ مثلا ٣٥ عضوا عن كل دولة . وتتولى هيئة المجلس دراسة المقترحات والابحاث والمشاريع المتعلقة بالتعاون الاقتصادي والعلمي والتكنيكي المقدمة من الدول الاعضاء أو من اللجان او الهيئات ، وتتخذ القرارات الخاصة بها .

أما هيئة المندوبين الدائمين في المجلس فتتألف من مندوب اصيل ومندوب مناوب عن كل دولة من الدول الاعضاء ، يعاونها عدد من الخبراء والمستشارين . وهذه الهيئة هي الجهاز الدائم المستمر الذي يمثل المجلس في الفترات التي تفصل اجتماعات المجلس لمتابعة اعماله. ومقر هذه الهيئة هو مركز هيئة السكرتارية في موسكو . وتجتمع الهيئة كلما دعت الحاجة

ومرتين في الشهر على الغالب . وهي تتمتع بصلاحيات واسعة مستمدة من صلاحيات وسلطة المجلس ذاته .

أما اللجان الدائمة ، فالغرض من انشائها هو توثيق وتدعيم العلاقات بين الدول الاعضاء في شتى المجالات . وقد انشئت أول هذه اللجان في شباط عام ١٩٥٦ . ويتم تحديد مراكز هذه اللجان في عواصم الدول الاعضاء تبعاً للمعطيات الاقتصادية لكل من هذه اللجان . وليس لهذه اللجان عدد محدد . ومنها حالياً : لجنة الفحم ، لجنة الصناعة الكيمياوية ، لجنة الطاقة الكهربائية ، لجنة الصناعة الخفيفة والتغذية، لجنة الصناعة الآلية، لجنة التعدين الخفيف ، لجنة البترول والغاز ، لجنة الزراعة ، لجنة النقل ، لجنة التجارة الخارجية ، لجنة الطاقة الذرية ، لجنة الاسعار والاجور ، لجنة تنسيق الابحاث العلمية والفنية، لجنة الاحصاء، لجنةتنسيق المساعدة الفنية، لجنةالشؤون النقدية والمالية.. وغيرها.

ويزيد عدد هذه اللجان على الـ ٢٠ لجنة حالياً . وتتخذ مختلف عواصم البلدان الاشتراكية مراكز لعملها . واعمال هذه اللجان على غاية من الاهمية، لأنها تقوم في الواقع بدراسة وتحضير الاقتراحات والدراسات لاخراج التعاون الاقتصادي والعلمي بين الدول الاعضاء الى حيز الوجود . وقد ادت هذه اللجان الكثير من الخدمات الى الدول الأعضاء بفضل ما يتمركز فيها من الخبرة والممارسة والاختصاص القطاعي والاقليمي .

وتتألف الأمانة العامة المركزية من أمين عام، ومن اعضاء مندوبين، وعدد آخر من الموظفين . ويقوم هذا الجهاز بمختلف اعمال المجلس، وفيه أقسام وفروع بنسبة عدد اللجان، الأمر الذي يؤدي الى تنسيق العمل وتوحيده بين اللجان والأمانة العامة للمجلس .

ومن بين الاصلاحات العديدة التي جرت عام ١٩٦٢ و ١٩٦٣ على اجهزة واعمال مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة انه تقرر احداث اللجنة التنفيذية ومكتب تنسيق الخطط الاقتصادية .

ان مهمة اللجنة التنفيذية هي تقديم الارشادات والنصائح في نطاق التعاون المتبادل بين الدول الاعضاء من جهة ، ومراقبة الدول الاعضاء في قيامها بالتزاماتها تجاه المنظمة من جهة أخرى ، ويساعد هذه اللجنة مكتب تنسيق الخطط الاقتصادية . وهو يتألف من نواب رؤساء مكاتب التخطيط في الدول الاعضاء . وصلاحيات هذا المكتب على غاية في الاتساع ، اذ انه يشرف على تنسيق الخطط الانتاجية وخطط الاستثمار والسياسة الاقتصادية وسياسة المدفوعات في داخل المنظمة وخارجها .

وقد تقرر في تشرين أول ١٩٦٣ - ومن خلال مجموعة التطويرات لأعمال مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة - إحداث البنك الدولي للتعاون الاقتصادي ليقوم بعمليات التقاص الجماعية بين الدول الأعضاء . ويضع في هذا البنك الدولي، كل مصرف مركزي من مصارف هذه الدول ، مبلغاً معيناً من المال لدفع التزامات الدولة منه . ويمكن لهذا المصرف تقديم قروض قصيرة الأجل للدول الأعضاء ، كما يساهم في تطوير التعاون الاقتصادي وتدعيم العلاقات الاقتصادية بين الدول الاعضاء .

لقد ميز ميثاق منظمة مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة بين نوعين من القرارات التي يتخذها المجلس .

– قرارات قابلة للتنفيذ تتخذ في الشؤون التنظيمية والأصولية وملزمة للجميع.

– قرارات على شكل توصيات تتخذ في الشؤون المتعلقة بالتعاون العلمي والفني والاقتصادي ، ولا تعتبر هذه القرارات ملزمة للدولة التي لا توافق عليها .

وقد اجازت المادة الحادية عشرة من الميثاق أن تقيم منظمة الكوميكون العلاقات التي تحتاج اليها مع المنظمات الدولية الأخرى ، وان تسير على هذه العلاقات مع تلك المنظمات ، ولا سيا المنظمات الاقتصادية التابعة لهيئة الأمم المتحدة . ولم يبرم مثل هذه الاتفاقات حتى اليوم .

ثانياً — وسائل تحقيق اهداف مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة :

لقد حددت المادة الأولى، في ميثاق منظمة مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة، الأهداف الأساسية لهذه المنظمة . ويتم الوصول لجميع هذه الأهداف، وتحقيقها ، من خلال تنسيق وتوحيد جهود البلدان الأعضاء في جميع المجالات .

وقد جرى تطوير وتفصيل هذه الأهداف من خلال مؤتمرات رؤساء اللجان المركزية للاحزاب الشيوعية والعالية ورؤساء الحكومات في البلدان الأعضاء ، تلك المؤتمرات التي جرى عقدها بصورة شبه دورية تقريباً. وقد شهدت سنتا ١٩٦٢ و ١٩٦٣ تطويراً واسعاً لهذه الأهداف وأساليب تحقيقها .

لقد أكد المؤتمر الأول لعام ١٩٥٨ ضرورة تصنيع «البلدان الضعيفة التطور وتطوير الفروع الصناعية المنتجة للمواد الأولية والوقود والطاقة. وحدد مؤتمرا ١٩٦٢ و ١٩٦٣ الاتجاهات الأساسية للتعاون في حقل التصنيع ، عن طريق تنسيق الخطط

الاقتصادية للبلدان الأعضاء ، وذلك في قطاعات الوقود والطاقة الكهربائية والمواد الأولية والصناعات الكيماوية والانشاءات البترولية وغيرها من الفروع الصناعية الرئيسية . وحددت المؤتمرات اللاحقة أسس اقامة التقاص الجماعي بين البلدان الأعضاء من خلال البنك الدولي للتعاون الاقتصادي .

وتتبع منظمة مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة الأساليب الرئيسية التالية لتحقيق أهدافها (١) .

آ – التعاون العلمي – التكنيكي وتأمين المساعدة التكنيكية المتبادلة .

ب – التخصص والتعاون في الانتاج ، عن طريق التوزيع الدولي للعمل ، ومن خلال تنسيق الخطط الاقتصادية الطويلة المدى .

ج – مباشرة التجارة المتبادلة الموسعة ، ومنح القروض الائتمانية .

وتتخذ هذه الأساليب أشكالاً عملية مختلفة عند التطبيق .

١ – التعاون العلمي التكنيكي :

من الصعب تقدير أهمية التعاون العلمي والتكنيكي ، وتقديم المساعدة الفنية بالنسبة للنهوض الاقتصادي . ان التعاون العلمي والتكنيكي لا يخضع لأي بدل مالي . فالبلدان الأعضاء تتبادل فيما بينها بصورة مجانية تماماً التصاميم والوثائق التكنيكية للاشغال الكبرى ولانتاج الماكينات والمعدات الرئيسية ، كما تتبادل براءات الاختراع والاتقان وتتبادل التجربة في تنظيم العمل وطرائق الانتاج .

ويتيح التعاون المتزايد دوما بين مؤسسات ابحاث ومكاتب الدراسات في البلدان الاعضاء ، تجنب الازدواجية التي لافائدة منها في العمل . وهذا يؤدي الى تخصيص نفقات البحث العلمي ككل ، والى استخدام العلماء بصورة اجدى وافضل . وقد كان هناك في عام ١٩٦٥ حوالي ٧٣٥ معهداً علمياً للبحث العلمي ، تتعاون فيما بينها لوضع ٣٥٠٠ دراسة ذات منفعة مشتركة .

وغالبا ماترافق أعمال التعاون العلمي ، مساعدة تكنيكية تقدمها البلدان الاعضاء لبعضها . وبهذا الشكل يتم تسليم الآلات لاقامة المنشآت والمصانع ،

---

(١) راجع الفصل الرابع والخامس من كتاب « مجلس التعاضد الاقتصادي » لـ (ايفان اولا ينيك) ، منشورات وكالة انباء نوفوستي .

وارسال الاختصاصيين من بلد لآخر للمساعدة في تركيب هذه المعدات والتجهيزات ، بالتعاون مع الاخصائيين المحليين ، ووضع هذه المؤسسات الصناعية قيد التشغيل وتسليمها الى اصحابها بعد التجربة . وقد تم بهذا الاسلوب تركيب العديد من المنشآت الصناعية في مختلف البلدان الاشتراكية (١)

٢ – التخصص والتعاون في الانتاج :

آ – يستلزم التخصص الوطني في الإنتاج، في اطار منظمة مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل ، تركيز صناعة ما في بلدان تكون فيها تكاليف الانتاج اخفض ما تكون . ومن ثم يجب ان يغطي هذا الانتاج حاجات مختلف البلدان الاشتراكية .

ويتبع مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة اسلوب التخصص في الانتاج وتقسيم العمل بين مختلف البلدان الاشتراكية انطلاقا من الاستفادة من مزايا الانتاج الكبير ، من الامكانيات الفعلية التي تتميز بها مختلف بلدان المنظمة . ويؤدي اتباع مبدأ التخصص والتعاون الى تلافي الازدواج والمنافسة والعمل على زيادة الكفاية الانتاجية وتخفيض تكاليف الانتاج ، كما ان التخصص والتعاون يساعدان في توسيع توطيد الروابط الاقتصادية بين البلدان الاشتراكية وفي تطوير التعاون في حقل الانتاج . ويساهم التعاون والتعاضد والتخصص في دفع مختلف فروع الصناعات في بلدان (مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة) بصورة اسرع قدما الى الامام. ويؤدي الى نشوء فروع صناعية، على مستوى السوق الاشتراكية الدولية . وتستلزم التشكيلة الواسعة من المنتجات الصناعية والجدوى الاقتصادية الرفيعة للمؤسسات الصناعية الكبيرة التي تؤمن استخداما منسقاً للمواد الاولية وتخفيض سعر كلفة المنتوجات المتنوعة ، وكذلك ضرورة البحث المعمق من اجل تشديد الانتاج وتوزيع اوسع للعمل بين البلدان الاشتراكية في تطوير فروعها الصناعية . وهذا يتعلق على الاخص بالسلع التي يتطلب انتاجها استثمارات كبيرة، ومعدات خاصة ، وايد عاملة موصوفة .

لقد وضع مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة حتى عام ١٩٦٥ توصيات تتعلق بالتخصص في انتاج حوالي الفي صنف ومجموعة اصناف في الصناعة الكيماوية فقط، وهذا

---

(١) راجع : ايفان اولاينيك ، المرجع السابع، والعدد الخامس من مجلة «الاقتصاد» الالمانية عن مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل رقم ٣ تاريخ ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٦

يشكل حوالي ٨٠ - ٨٥ ٪ من الانتاج الاجمالي لهذا الفرع المعني بالتخصص . وقد اتفقت بلدان السوق الدولية الاشتراكية على التخصص في الانتاج في عدد من الفروع الصناعية، نذكر منها على سبيل المثال تخصص كل من الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا بصناعة معدات الصناعة البترولية ، وتخصص كل من الاتحاد السوفييتي والمانيا الشرقية بانتاج معدات صناعة الاسمنت ، وتخصص كل من بولونيا والاتحاد السوفييتي وبلغاريا في صناعة بنـاء السفن ، وتخصص رومانيا بالآلات الزراعية ، وهكذا ...

ب - واضافة الى اسلوب التخصص وتوزيع العمل، تتفق بلدان الكوميكون على التعاون في الانتاج وتوحد جهودها للوصول الى هدف محدد . وهناك امثلة عديدة على التعاون الاقتصادي في ميدان الانتاج نذكر منها على سبيل المثال : وضع برنامج اجمالي للتنقيب الجيولوجي عن النفط والغاز في مجموع بلدان المنظمة - ربط الشبكة الكهربائية لمجموع بلدان المنظمة بشبكة كهربائية موحدة - التعاون في استثمار موارد الدانوب من خلال مشروع « جيرداب » للطاقة الكهربائية والمنشآت الملاحية - التعاون في الصناعة الكيماوية ونقل البترول بين مختلف بلدان السوق . وهذه الامثلة هي بمثابة نماذج ، وذلك اضافة للتعاون بين بلدين او اكثر من بلدان المنظمة .

لقد امكن ، عن طريق التخصص في الانتاج ، توزيع الطاقات الانتاجية وحجم الانتاج بوتائر عالية في مختلف بلدان المنظمة لعدد من الفروع الصناعية . كما ساعد التعاون في الانتاج على زيادة الاستثمارات ، ومنح القروض المتبادلة ، والانتفاع الافضل بمصادر الطاقة والموارد المتاحة .

ج - وقد برزت الحاجة ، من خلال التعاون وتوزيع العمل ، الى التنسيق بين خطط التنمية لدى الدول الاعضاء لضمان فعالية التعاون فيما بينها وتطبيق مبدأ التخصص والتقسيم الدولي للعمل ، ولذلك تم احداث مكتب لتنسيق الخطط الاقتصادية . ويهدف تنسيق الخطط الاقتصادية الى الاتفاق الطوعي على الاتجاهات الاساسية للتطور الاقتصادي للبلدان الاعضاء في السنوات المقبلة . ويتم هذا التنسيق في مجالات الانتاج ، والتجارة الخارجية ، والائتمان ، وموازين حسابات ومدفوعات بلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة . ويتيح تنسيق الخطط الاقتصادية هذا ايجاد تطور اسرع لكل بلد ، وايجاد التناسب الافضل لتطور مختلف الفروع الاقتصادية الرئيسية ، وتقريب مستويات التطور الاقتصادي لمختلف بلدان المجلس .

لقد بدأ العمل في تنسيق الخطط الاقتصادية عن طريق تنسيق المؤشرات الاساسية

لتطور الفروع الاقتصادية ١٩٥٦ – ١٩٦٠ . ثم تحسن تنسيق الخطط الاقتصادية باستمرار . وتم في الدورة التاسعة عشرة،التي عقدت في براغ في مطلع عام ١٩٦٥، تنسيق خطط التنمية في المجالات الاقتصاديةوالعلمية والفنية لاعوام ١٩٦٦ - ١٩٧٠ . ويشتمل تنسيق الخطط الاقتصادية الآن على تنسيق مشاريع الانتاج والموازين السلعية ، وبرامج التوزيع للمواد الرئيسية ، ونماذج الإنتاج الجديدة ، والفروع الاقتصادية التي يتطلب تطورها توظيفات كبيرة .

لقد ازداد التعاون ، في مجال العلوم والتكنولوجيا وتطبيق مبدأ التخصص وتقسيم العمل الدولي وتنسيق خطط الاقتصاد القومي ٣٫٩ مرات حتى عام ١٩٦٥ . وازدادت الوتيرة بدرجة أكبر من ذلك في السنوات الاخيرة . وقد ازدادت نسبة الانتاج الصناعي لدول المجلس من ١٨ بالمئة عام ١٩٥٠ الى مايزيد على ٣٧ بالمئة بالنسبة للانتاج العالمي في عام ١٩٦٥ .

٣ – التعاون التجاري والائتماني :

اثر انجاز عمليات التنسيق للخطط الاقتصادية ، يتم توقيع عقود تجارية طويلة الاجل بين بلدان المجلس لتنفيذ الاتفاقات المقررة في ميدان التجارة والائتمان . وتلعب التجارة والائتمان دوراً هاماً في التطور الاقتصادي لبلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة .

ان التجارة بين بلدان السوق ،هي نتيجة تقسيم العمل بين هذه البلدان . وتستند المبادلات التجارية ،في السوق الاشتراكية العالمية،الى مبدأ المساواة التامة والنفع المتبادل، ولها طابع مخطط ومنظم . ان الزيادة المتواصلة في الانتاج المادي وتوسع التقسيم الدولي للعمل والتخصص والتعاون بين بلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ترفع طاقة السوق الاشتراكية ، وتساعد ايضاً على تنسيق العرض والطلب بالنسبة للسلع الرئيسية التي تنزل إلى السوق . وتتوزع التجارة الخارجية لبلدان السوق الاشتراكية على النحو التالي: ٧٠٪ فيا بينها و ٣٠٪ مع البلدان الاخرى(١) .

وتقوم المبادلات التجارية بين البلدان الاعضاء على اساس اتفاقيات طويلة الامد. وتحسب الاسعار على اساس اسعار السوق الرأسمالية العالمية ، وعلى اساس اسعار ثابتة في المدى الطويل . وهذه الاسعار مستقرة وواحدة لجميع البلدان .

---

(١) إيفان اولاينيك ، المرجع السابق ، الفصل الخامس .

ان اتقان المبادلات شيء هام جداً بالنسبة لتطوير التجارة بين بلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة . وتستعمل هذه البلدان اصول الكليرينغ، الذي يتقرر تعادل البضائع والخدمات المقدمة . وقد ظل استخدام الكليرينغ الثنائي سائداً ردحاً طويلاً من الزمن الى زمن طويل ، وذلك لأن القسم الاكبر من عمليات التجارة الخارجية يتم على اساس اتفاقات ثنائية . وفي السنوات الاخيرة ، اصبح الكليرينغ المتعدد الاطراف يلعب دوراً متزايد الاهمية في العلاقات التجارية بين بلدان السوق .

ومنذ عام ١٩٦٤ ،بدأت مرحلة جديدة في تطوير المبادلات التجارية بين بلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة بتنظيم المصرف الدولي للتعاون الاقتصادي . ويعتبر تطبيق نظام التسويات التجارية المتعددة الاطراف من اهم الخطوات التي حققها المجلس . ويقوم المصرف الدولي للتعاون الاقتصادي بتسوية الحسابات بين بلدان السوق بالروبل القابل للتحويل ويفتح اعتمادات لعمليات التجارة الخارجية وغيرها ، ويودع لديه المبالغ المتوفرة من الروبلات القابلة للتحويل ومن عملات البلدان الاعضاء والبلدان الاخرى . ويستطيع المصرف المذكور ان يحول ويعقد اعتماداً للمشروعات المنفذة بصورة مشتركة ، وان يسوي الحسابات بالروبلات القابلة للتحويل مع البلدان غير الاعضاء.

وقد حقق المصرف الدولي للتعاون الاقتصادي عدداً من النتائج منها :

آ – تطوير العلاقات التجارية بين بلدان المجلس بصورة واضحة ، وكذلك تطوير العلاقات المصرفية مع المصارف التجارية الاخرى في العالم .

ب – استطاع المصرف من جراء قيامه بالعمليات المصرفية بالروبل القابل للتحويل، من توفير النقد الحر من الدولار والاسترليني والفرنك السويسري والعملات الاخرى .

ج – منح المصرف في سنته الاولى اعتمادات تزيد على ١٥٠٠ مليون روبل قابل للتحويل لتمويل المشاريع العديدة للدول الاعضاء ، وقد زادت هذه المبالغ باستمرار.

ان انشاء المصرف الدولي للتعاون الاقتصادي يساهم في توسيع وتعميق التقسيم الدولي الاشتراكي للعمل ، وفي زيادة المبادلات التجارية بين الدول الاعضاء ، وفي زيادة جدوى المنشطات النقدية والمالية في تطوير العلاقات بين البلدان اعضاء مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ،وهذا يؤدي الى وحدة اقتصاديات السوق الاشتراكية الدولية .

ثالثاً – تعاون بلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة في تطوير الاقتصاد القومي :

لقد انقضى الآن عشرون عاماً على تأسيس مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة في

عام ١٩٤٩ ،وفي هذه الفترة اثبت المجلس دوره في تطوير الاقتصاد الوطني لبلدان السوق الاشتراكية الدولية وفي تقريب مستويات التطور الاقتصادي بين البلدان الاعضاء وفي تطوير قوة السوق الاشتراكية الدولية في الاقتصاد العالمي .

١ - تطوير الاقتصاد الوطني لبلدان السوق الاشتراكية الدولية :

ان مزايا الاقتصاد المبرمج والتعاون في النظام الاشتراكي العالمي ، اتاحت لبلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ان تحرز بسرعة نجاحا كبيرا في تطوير اقتصادها. لقد كان اقتصاد عدد من البلدان الاعضاء اقتصاداً زراعياً متأخراً . وقد استطاعت جميع هذه البلدان ان تتغلب على الهياكل الاقتصادية المتأخرة ، وتبني لنفسها صناعات قوية متماسكة .

ان التجربة الجماعية لبلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة تثبت بأنه توجد قوانين عامة للعمل المشترك ، وانه ينبغي ان تستخدم هذه القوانين العامة(١):

١ - من اجل التصنيع والتكديسات الداخلية ومساعدة البلدان الاشتراكية الصديقة .

٢ - تأمين تقدم سريع للصناعة الاشتراكية بتحضير انتاج وسائل الانتاج بالتفضيل .

٣ - اعادة بناء كل فروع الاقتصاد الوطني على اساس تكنيكي طليعي ، ورفع مستوى انتاجية العمل الاجتماعي .

٤ - دفع الانتاج الاجتماعي بسرعة قدما الى الامام ، وعلى هذا الاساس رفع المستوى العادي والثقافي للسكان .

وهذا يتوقف في كل حالة خاصة على الظروف الداخلية والخارجية : القدرة الاقتصادية والتركيب الاقتصادي والسكان ، وطاقة السوق الداخلية ، والميزة المتوفرة لليد العاملة والمواد الطبيعية .. الخ .

وقد قضت البلدان الاعضاء على تأخرها الاقتصادي واصبحت بلدانا صناعية متطورة . وبتطور الانتاج الصناعي والزراعي -وبالتالي الدخل القومي- لهذه البلدان بوتائر اسرع منها في البلدان الرأسمالية .

---

(١) ايفان اولاينيك : المرجع السابق ٦٧ .

بعض مؤشرات التطور لبلدان المجلس والبلدان الرأسمالية لعام ١٩٦٧ (١)

	الدخل القومي ١٩٥٠ = ١٠٠	الانتاج الصناعي ١٩٥٠ = ١٠٠	الانتاج الزراعي (٢) ١٩٥٢/١٩٥٦ = ١٠٠
تشيكوسلوفاكيا	٢٦٩	٤٠٨	١٣٣
الاتحاد السوفييتي	٤٢٠	٥٤٨	١٤٧
رومانيا	٤٨٧	٨٢١	١٦٤
بولونيا	٣٢١	٥٨٦	١٥٣
المانيا الديموقراطية	٣٥١	٤٤٣	١٣٨
هنغاريا	٢٥٨	٤٤٦	١٣٩
بلغاريا	٤٧٥	٧٧٥	١٩٣
منغوليا	—	٤٨٧	—
بلدان مجلس المساعدة	٣٨٥	—	١٦٥
فرنسا	٢٠٣	٢٤٧	١٣٥
بريطانيا	١٥١	١٥٩	١٤٤
المانيا الغربية	٢٧٣	٣٢٢	١٢٥
الولايات المتحدة الامريكية	١٨٧	٢١١	١١٨

٢ ـ تقريب مستويات التطور الاقتصادي بين البلدان الاعضاء :

لقد كان مستوى بلدان أعضاء مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة مختلفاً جداً عند تأسيس هذه المنظمة . فقد كانت تشيكوسلوفاكيا والمانيا الديموقراطية متطورتان بدرجة كافية، بينما كانت بولونيا وهنغاريا أقل تطوراً بكثير ، وكانت رومانيا وبلغاريا اكثر تأخراً . أما البانيا ومنغوليا فقد ورثتا اقتصاداً شديد التأخر ، وكانت هناك فروق كبيرة في انتاج البضائع الاساسية . وهذا الوضع ، أي اللا مساواة في التطور الاقتصادي والسياسي ، هو قانون أساسي من قوانين النظام الاشتراكي العالمي .

(١) راجع العدد ٣ لعام ١٩٦٩ من مجلة « الاقتصاد » الالمانية .

(٢) الارقام لعام ١٩٦٦ .

لقد وفرت الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج الظروف الملائمة للنهوض الاقتصادي، كما وفر مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة انهاض الاقتصاد القومي وتطويره بسرعة وبوتائر عالية . وخلال هذا التطور تقلصت الفروق في المستويات الاقتصادية للبلدان الاشتراكية ، وعجل تقارب المستويات بدوره التطور الاجتماعي والاقتصادي لكل البلدان أعضاء المجلس . وتدل وتائر نمو الانتاج الصناعي ونمو الدخل القومي على سرعة هذه الوتائر في البلدان التي كانت أشد تخلفاً بالنسبة للبلدان الأخرى .

٣ - مكان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة في الاقتصاد العالمي :

تشكل بلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ١٠ بالمئة من مجموع سكان العالم، وأرضها ١٨،٤ بالمئة من مساحة الكرة الارضية ، وتنتج ٣١ بالمئة من الانتاج الصناعي العالمي ،وتمارس ١٠،٣ بالمئة من مجموع التجارة العالمية .

وتعمل بلدان السوق الاشتراكية الدولية على تطوير علاقاتها الاقتصادية مع بلدان العالم المختلفة غير الاعضاء في السوق ، وخاصة مع البلدان النامية . وتقوم هذه العلاقات على أساس مبدأ المساواة التامة بين الاطراف، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، والنفع المتبادل ،ومبدأ البلد الاكثر رعاية (١) . ونتيجة لهذا الجهد تطورت التجارة الخارجية بين البلدان الاعضاء والبلدان الرأسمالية المتطورة بمقدار ٣،٣ مرات من عام ١٩٥١ الى ١٩٦٣ بينما تضاعفت ٧،٣ مرات مع البلدان النامية .

والاشكال التي يتخذها التعاون الاقتصادي بين البلدان الاشتراكية والبلدان النامية هي التجارة الخارجية ، والقروض مع التسهيلات بالدفع، والمساعدة العلمية والتكنيكية المتعددة الانواع . وقد جمعت كل من بولونيا والاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا مجموعة المبادىء التي تقوم عليها العلاقات الاقتصادية لبلدان مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة مع البلدان الاخرى ، وقدمتها الى المؤتمر الدولي للتجارة والتنمية الذي عقد في جنيف في عام ١٩٦٤ كمشروع « مبادىء العلاقات والسياسة في حقل التجارة العالمية »(١) .

---

(١) ايفان اولاينيك ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

الحركة الصهيونية
كحركة معادية للشيوعية (١)

للكاتب البولوني
د. تاديوش فاليشنوفسكي

ترجمة : جورج جبّور

ان المقدمات المبني عليها برنامج الحركة الصهيونية ، تظهر ان هذه الحركة معادية للشيوعية . ففي اليوم الثاني لتفجير ثورة اوكتوبر (تشرين أول) ، دعا الزعماء الصهاينة في الروسيا منظماتهم الى محاربة القوة السوفيتية . ان ممثلي المنظمات الصهيونية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، الذين سمح لهم بالاسهام في الفعاليات الرسمية ، كانوا في الحقيقة عملاء لأجهزة المخابرات الغربية . إن الفعاليات المتزايدة لهذه المنظمات بعد الحرب العالمية الثانية في الديموقراطيات الشعبية قد استخدمت اكثر من مرة لأغراض التخريب السياسي المعادي للشيوعية ،

---

(١) قدم المترجم في العدد الماضي من « المعرفة » عرضاً وتحليلاً لكتاب الحقوقي والمؤرخ البولوني الدكتور تاديوش فاليشنوفسكي وعنوانه «اسرائيل وجمهورية المانيا الاتحادية».
Tadeusz Walichnowski - Israël and the German Federal Republic , interpress publishers , Warsaw 1968
وهذا البحث الذي نقدم ترجمته الى القراء هو من الفصل السادس من الكتاب المذكور .

ومن أجل نشاط تجسسي لمصلحة الدول الغربية . وقد قاد تكشف هذه الحقائق الى منع المنظمات الصهيونية من القيام بأي نشاط في البلدان الاشتراكية[1] .

ان بعض الزعماء الصهاينة تسربلوا بالعار خلال الحرب العالمية الثانية، نظراً لتعاونهم مع الفاشيين الألمان . لقد ثبت أنه في عامي ١٩٤٤ – ١٩٤٥ أعلنت المنظمات الصهيونية العالمية استعدادها التزويد القوات النازية بالأسلحة، مقابل اطلاق سراح اليهود المجريين ، شريطة أن تستعمل هذه الأسلحة ضد الجيش السوفييتي فقط . كذلك قدموا خدماتهم في المفاوضات مع الرايخ الثالث بشأن التسليم ، شريطة القاء الجيش النازي لسلاحه في مواجهة القوات الغربية فقط[2] .

لقد جرت محاكمة تحقير أمام المحكمة الاقليمية في القـــدس في عامي ١٩٥٤ – ١٩٥٥ . فقد أقام اسرائيل رودولف كاستنر Kastner – وهو الرئيس السابق للوكالة اليهودية في المجر أثناء الحرب العالمية الثانية وكان يمارس في ذلك الوقت وظيفة رئيس لجنة انقاذ المواطنين اليهود في المجر – الدعوى على مالكيل غرونوولد Grunwald ، وهو مدير فندق في القدس اتهم كاستنر علناً عام ١٩٥٣ بالتعاون مع المحتل النازي في المجر في عامي ١٩٤٤ – ١٩٤٥ . وبناء على طلب كاستنر فان دائرة المدعي العام في القدس اتهمت غرونوولد بالتحقير ، وفقاً لأحكام المادة ٢٠١ من القانون الجزائي الاسرائيلي . ولكن الاثبات المقدّم من المدعى عليه غرونوولد تأييداً لاتهامـــه لكاستنر، قلب الأدوار ووضع كاستنر في قفص الاتهام . وقد تطورت القضية الى محاكمة سياسية كبرى لم تشهد لها مثيلا ادارة

---

(١) ب . ج بوتافسكي P. J. Potapovskii «جمهورية المانيا الاتحادية واسرائيل» في المجلة السوفييتية نارودي آزي اي افريكي Narody Azii i Afriki (الشعوب الآسيوية – الأفريقية) . العدد الرابع ١٩٦٣ .

(٢) المصدر السابق .

العدل الاسرائيلية . إذ ثبت أن كاستنر ، الذي كان يتعاون مع الجنرال بيشير Becher (من فرقة القمصان السوداء S.S.) ومع الجان ، اخرج (٥٠٠٠) يهودي غني من المجر في عامي ١٩٤٤ - ١٩٤٥ ، وبين هؤلاء اقرباؤه ونشطاء الصهاينة ، بينما أفنى النازيون في تلك الفترة خمسمائة الف يهودي . كذلك فان كاستنر أوقع المظليـــين اليهود ، الذي أرسلوا من فلسطين الى المجر ، في أيدي الغستابو . وقد مثل كاستنر أمام محكمة نورمبرغ ليقدم شهادة كاذبة لمصلحـــة بيشير . وبعد صدور قرار محكمة القدس ، فان كاستنر ضحي به لمصلحة الزعماء الصهاينة . فقـــد اغتاله يوم ٣ آذار ١٩٥٧ من قبل زيف اكستاين Ekstein الذي اعترف في المحكمة انه انما قام بعمله بناء على أوامر البوليس السري الاسرائيلي[١] .

لقد جرى تقييم نشاط المنظمات الصهيونية وزعمائهـــا أثناء الاحتلال[٢] وسلبيتهم تجاه إبادة ملايين اليهود بشكل متزن وفي أكثر من مناسبة من قبل قسم من الشعب اليهودي .

---

(١) ك . إيفانوف K. Iwanov و ز . جيلس S. Szejnis في كتـاب دولة اسرائيل (بالبولونية) فارسوفيا ١٩٦٠ ص : ١٨٦ - ١٨٨ .

(٢) برافو اي جيتشي (القانون والحياة) مجلة اسبوعية بولونية تصدرها رابطة الحقوقيين البولونيين عدد ٢٥ في ٤ كانون اول ١٩٦٦ نشرت مقـالا بعنوان « الى العادلين » : « اليهود في خدمة الغستابو كانت مهمتهم التغلغل ضمن خلايا المقاومة والمساعدة في تصفيتها . وكان يطلق على هؤلاء ومنظمتهم اسم جاغيف (الشعلة) . وكان أعضاء الجاغيف يعطون هويات من قبل الغستابو تتيح لهـم الانتقال ، كذلك كانوا يعطون المسدسات . وقد اكتشفت قوات الأمن في فارسوفيا محاولات الجاغيف واكتشفت معهم ثلاث شبكات تعمل في غيتو فارسوفيا » ....

ففي مقالة نشرتها الجريدة اليومية الاسرائيلية حيروت في ٢٥ أيار ١٩٦٤ بعنوان « التاريخ سوف يدين أيضاً زعماء الوكالة اليهودية » وعالجت فيها الجرائم الجماعية المرتكبة ضد اليهود ، تساءلت الصحيفة :

« كيف يمكن لنا أن نشرح حقيقة ان زعماء الوكالة اليهودية ، زعماء الحركة الصهيونية العالمية ، في فلسطين، تمسكوا بالصمت ؟ لماذا لم يرفعوا أصواتهم، لماذا لم ينذروا العالم ، لماذا لم يستعملوا اذاعة هاغانا « السرية » ليدعوا اليهود في الغيتو[1] والمخيمات والبلدان الصغيرة للهروب الى الأدغال ، وينهضوا ويحاربوا ويحاولوا انقاذ حياتهم ؟ انهم بسكوتهم قد تعاونوا الى درجة ليست بأقل أهمية من أولئك المجرمين الذين أمدّوا الألمان بقوائم لمن يتوجب افناؤهم . ان التاريخ سوف يحكم ما اذا كان بمجرد وجود وكالة يهودية مخادعة لم يشكل بحد ذاته مساعدة للنازية . ذلك أن أولئك الجبناء قبعوا صامتين في أوكارهم حين كانوا يعرفون الحقيقة كلها وبدقة ... وحين يصدر التاريخ حكمه على اليودنرات (محكمة اليهود) وعلى البوليس اليهودي، فانه يصدر بذلك حكمه أيضاً على زعماء الوكالة اليهودية وعلى زعماء الحركة الصهيونية العالمية » .

وقد كتبت الصحيفة نفسها في ٢٣ أيار ١٩٦٤ ان « ما هو أكثر اثارة للأسى أن هؤلاء الزعماء مايزالون مستمرين في ترؤسهم المؤسسات اليهودية والصهيونية والاسرائيلية ، كأنهم أحسن وأمثل زعماء الأمة ، فانهم لايحملون شارات نشاطهم الحقير . ان هؤلاء الزعماء لايرون النتائج المنطقية لافلاسهم الأخلاقي ويستمرون في التمسك بالسلطة » .

ان الفعالية العدائية للمنظمات الصهيونية تستهدف الاتحاد السوفيتي قبل كل شيء . ان هدفها هو اضعاف السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي وللأقطار

---

(١) الغيتو Ghetto : كلمة ايطالية الاصل تشير الى ذلك الجزء من المدينة الذي كان يجبر اليهود على الاقامة فيه. كان نظام الغيتو شائعاً في كثير من الاقطار الاوروبية.

الاشتراكية الأخرى ، والتقليل من الهيبة والاحترام اللذين يتمتع بهما الاتحاد السوفيتي في المجال الدولي ، وتحطيم وحدة الدول الاشتراكية . ومنذ سنوات عديدة أخذت المنظمات الصهيونية في العالم بأسره بشن حملة مريرة معادية للسوفيت اتهمت خلالها قيادة الحزب والحكومة في الاتحاد السوفيتي بتبني سياسة تمييز ضد اليهود وبنزعة معاداة السامية .

واستعملت في هذه الحملة باديء ذي بدء منظمات يهودية لاتحمل شعارات صهيونية ، كالمؤتمر اليهودي العالمي . وعقدت باشراف هذه المنظمات عدة اجتماعات في أقطار غربية مختلفة . وبحثت في هذه الاجتماعات سياسة الاتحاد السوفيتي ، وفي اكثر من مرة نجح الصهاينة في اقناع شخصيات عالمية مشهورة بالاسهام في مثل هذه المؤتمرات . وترافق هذه الاجتماعات دائماً حملات منظمة معادية للاتحاد السوفيتي في الصحافة الغربية .

ان المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين الذي عقد في القدس عام ١٩٦٥ خصص قسماً كبيراً من مناقشاته للهجوم على الاتحاد السوفيتي . وحتى قبل انعقاد المؤتمر ، شكلت « لجنة اجتماعية لشؤون اليهود في الاتحاد السوفيتي » ، اعضاؤها من نشطاء الصهيونيين . وقد كتبت جريدة **كول هاعام** الناطقة بلسان الحزب الشيوعي في اسرائيل حول الطبيعة الحقيقية لهذه اللجنة مايلي : « ان هدف اللجنة الجديدة ليس الاهتمام بأحوال اليهود في الاتحاد السوفيتي بل اثارة حملة معادية الاتحاد السوفيتي . وفي الوقت الذي تجهد فيه الدول الغربية لتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ، فان فئة من السياسيين الاسرائيليين يعملون في اتجاه معاكس لذلك التيار ومناقض لمصالح أمتنا »[(١)]

---

(١) **كول هاعام** في ٢٤ كانون اول ١٩٦٤ .

لقد صرح غولدمان في خطابه الافتتاحي في المؤتمر ان الاتحاد السوفييتي هو المشكلة الأولى للحياة اليهودية في الدياسبورا[١] ، واتهم الزعيم الصهيوني الحكومة السوفييتية باضطهاد اليهود . وقد ادعى ان هذا الاضطهاد انما يعبّر عن نفسه بحرمان اليهود من حقوقهم في ممارسة حياة دينية وقومية وثقافيـــة ،ومن حرمانهم من حق صيانة هويتهم اليهودية .

كذلك أعلن غولدمان ان قضية اليهود في الاتحاد السوفييتي سوف تبقى ماثلة بشكل دائم في مناقشات المنظمات الصهيونية في الدياسبورا ، وأوضح انه من الضروري الاستمرار في التأثير على الرأي العام العالمي بهذا الصدد[٢] .

وتبنى المؤتمر مقررات بشكل مضمونها اتهاماً للاتحاد السوفييتي وتفصح عن استمرار واشتداد الحملة المعادية للاتحاد السوفييتي . ويتجلى ذلك بوضوح وبشكل خاص في القرار الخاص بعقد مؤتمر ليهود العالم لدراسة مشكلة اليهود في الاتحاد السوفييتي ، وفي انشاء مديرية خاصة للشؤون السياسية في الوكالة اليهودية ، وفي القرار الخاص بزيادة استعمال المؤتمر اليهودي العالمي في النشاط السياسي وبشكل أكثر حيوية .

ومن المناسب ذكره هنا انه في الوقت الذي كان فيه غولدمان يدلي فيه بتصريحاته السابقة ، تقدمت د المنظمة الاسرائيلية لمساعدة اليهود الروس (ماوز

---

(١) الدياسبورا Diaspora : كلمة يونانية الأصل تشير الى تشتت اليهود في أقطار العالم المختلفة بعد قضاء البابليين على الدولة اليهودية . ويهود الدياسبورا مصطلح يقصد به الآن اليهود الذين لايستوطنون اسرائيل .

(٢) جرت مناقشة حول وضع اليهود في الاتحاد السوفييتي أثناء المؤتمر اليهودي العالمي في بروكسل عام ١٩٦٦ وقد استخدمت هـــذه المناقشة لشن حملة تخرصات واكاذيب ضد الاتحاد السوفييتي . ورغم أن هذه المسألة لم ترد في جدول الأعمال الا انه خصصت لها جلسة خاصة . وقال ناحوم غولدمان إن هذه المسألة ينبغي أن تبقى المشكلة الأولى في نشاطنا اليومي وفي حياة يهود الدياسبورا (المؤتمر اليهودي العالمي ، ٣١ تموز ١٩٦٦ ص ٤ .

Maoz) ، بطلب الى الكنيست تطلب به المبادرة الى القيام بعمل دائم لمصلحة اليهود في الاتحاد السوفييتي ، وقد جاء في الطلب ان على البرلمان الاسرائيلي ان ينظم مثل هذا العمل داخل اسرائيل وخارجها .

وقد اتخذ الحزب الشيوعي في اسرائيل موقفاً من الحملة المعادية للاتحاد السوفييتي ومن مقررات المنظمات الصهيونية بهـذا الشأن ، فقد أوضح في عام ١٩٦٠ :

« ان القرارات المعادية للاتحاد السوفييتي انما هي خديعة كبرى وشهادة مخجلة على اسهام اسرائيل في الحرب الباردة . ان هذه القرارات لا تعكس أي اهتمام حقيقي باليهود ... ان هؤلاء الذين يحرمون يهود اسرائيل ذوي الاصل الآسيوي والافريقي من حقوقهم الاساسية ومن المساواة في القيمة ، هؤلاء الذين يحرمون المواطنين العرب من حقوقهم الاساسية ، هؤلاء الذين يرفضون الحق في الاستقلال والحرية للشعوب المناضلة ضد الاستعمار ، الذين يدافعون عن الحكومات الفاشية الجديدة في بون ، ويدافعون عن الاستعمار والرجعية ، يتجرأون اليوم على اظهار أنفسهم بمظهر المدافعين عن حقوق اليهود في الاتحاد السوفييتي الذين يتمتعون بكامل حقوقهم[1] » .

ان المقدمات الايديولوجية للحركة الصهيونية هي منطلق الفعالية النشطة للمنظمات الصهيونية في البلدان الاشتراكية ، تلك الفعالية التي تستعمل من أجل التخريب السياسي المعادي للشيوعية والتي تستعمل لمصلحة اجهزة التجسس لدى القوى الامبريالية . ان هذه الفعالية ليست الى نقصان ، بل الى ازدياد ، بسبب تلاقي أهداف وأعمال القوى المعادية للشيوعية في التحالفات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية .

---

(١) كول هاعام ١٥ كانون ثاني ١٩٦٠ .

رسالة فكر (١)

تأليف : عبد الكريم غلاب

عرض : ظافر عبد الواحد

نشرت مجلة (آفاق) (٢) بعض توصيات المؤتمر الثاني لاتحاد كتاب المغرب (٣) ، عن موقف الفكر المغربي من القضايا القطرية والقومية والانسانية ، وعن معالجة الجمود الفكري والزيف الثقافي . وكتب رئيس الاتحاد الأستاذ عبد الكريم غلاب ، في العدد نفسه ، بحثاً عن المؤتمر وتوصياته ، دارساً الظروف الاجتماعية وأثرها في الحياة الثقافية .

---

(١) الدار التونسية للنشر ١٩٦٩

(٢) مجلة فصلية – منشورات اتحاد كتاب المغرب – شتاء ١٩٦٩

(٣) عقد المؤتمر في مدينة طرابلس في ليبيا من ١٥ – ١٩ آذار (مارس) ١٩٦٩

لذلك فإنني لن أقوم بتلخيص كتابه (رسالة فكر) ، بقدر ما سأركز على النقاط التي طرحت في المؤتمر ، ويشرح الأستاذ غلاب رأيه فيها .

ويتألف الكتاب من ثلاثة أقسام : (مع الفكر والحضارة) و (مع الفكر الأدبي) و (مع الشعراء والكتاب) .

والمشكلة الرئيسية التي نعانيها في المشرق والمغرب ، هي مشكلة التوفيق بين الأصالة والعالمية . يعتقد المستشرق الفرنسي جاك بيرك أن المفكر هو « الذي يجمع بين الأصالة والعالمية ، الأصالة بمعنى أنه يجب على المفكر أن ينتمي إلى جذور وكيان مجتمعه ، حتى يستحق هذه التسمية ، والعالمية هي الرسالة التي يريد إيصالها إلى أقصى الأبعاد . »[1] .

ويتساءل الأستاذ عبد الكريم غلاب : « هل من الممكن أن تعود القيم التي أتلفتها الحضارة الحديثة لتعيش جنباً إلى جنب مع الحضارة ؟ »[2] .

وبعد أن يصف الفنون المنحرفة ، يتساءل عما إذا كانت « تعبر عن نوع خاص من الحياة كما يقول المدافعون عنها : نوع الحياة التي نجد عناصرها في النفوس المنحرفة ، والتي تغمرها مشاعر خاصة تعبر عنها بالرقص اللاهب ، والغناء الصاخب ، والشعر المتدلي ، والعيون الجاحظة ، واللون القاني والقافية التي لا وزن لها ؟ »[3] . ويعتقد أن سبيل التعبير هو الأداة الجميلة ولو عن المشاعر المنحرفة ، وأن « المغرب العربي امتاز في تاريخه بإثبات الذاتية ، فكان مفكروه وفلاسفته

---

(١) المعرفة – كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ – عدد خاص (المثقفون العرب أمام قضية فلسطين) ص ٩٧ – ٩٨

(٢) رسالة فكر ص ١٠

(٣) » ص ٢٠

ومؤرخوه وحتى فقهاؤه وفنانوه في عالم الرسم والنقش والموسيقى ، كانوا جميعهم يجنحون إلى ذاتية أصيلة [1] » .

وبعد أن يستعرض الحروب التي أفنت ملايين البشر في سبيل أطماع أفراد متسلطين ، يتساءل : « لماذا لم يستطع العقل الإنساني ، مسلحاً بالقلب والضمير والعاطفة والدين والفلسفة والخلق ، أن ينتصر على نزعات الإنسان التي ملكت عليه نفسه طوال التاريخ ؟ [2] » .

ويرى أن هذه الأثرة تحولت عند بعض الأفراد من التدمير إلى الإبداع « وهكذا كانت الفنون جميعها أداة لتأكيد الذات ولإرضاء غريزة الأنانية في الإنسان ، الإنسان الذي يعرف أنه سيفنى ولكنه يحرص على البقاء مصوراً في أثر من آثاره ، ويجهد نفسه ليترك هذا الأثر بنفسه . والذين يحاولون تأكيد ذاتهم عن طريق إنجاب الأطفال أو عن طريق المال أو السلطة أو الأثر العلمي أو الفني أو الأدبي كلهم سواء في إبراز أنانيتهم ، هذه الأنانية التي تكون إيجابية فتنتج مايخلد الذات ويبرزها حقيقة ؛ وتكون سلبية فتنتج مايساعد على إفناء الذات ، أو ما يخلد الذات ولكن في لسان الناقمين واللاعنين والمتمردين . [3] » .

ويقترب هنا من فرويد الذي يرى في الإبداع الفني وسيلة من وسائل استقطاب اهتمام الجنس الآخر .

ويقول الأستاذ غلاب للشباب عامة وشباب المغرب خاصة : إن أمتهم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤

(٢) « ص ٢٩

(٣) « ص ٣٧

« ان تكتفي منهم بالتجريديات ، ولن تأكل خبزاً مدهوناً بفكرة أو فلسفة يصبونها على الورق ، ولكنها تتطلع إلى العمل ، وإلى عملهم هم بالذات ، فان العمل لايعرف أرستقراطية ، ولم يخلق للذين لايفكرون فحسب ، ولكن الذين يفكرون ويبتدعون الأفكار أولى بهم أن يضربوا المثل ، فان الشعوب لاتسير بغير مثل يضربها الذين يفكرون .[1] »

ورغم دفاع الأستاذ غلاب عن حرية الفكر ، فانه لايعني بتحرر الثقافة والمثقفين عدم التوجيه . فمع أن « الدولة ليست وصياً على المواطنين ، ولكنها مع ذلك تقوم بدور الموجه . والتوجيه الذي تقوم به الدولة هو إتاحة الفرصة للفكر أن يتحرر ، وهو في توجيه المواطنين ليستفيدوا من ثقافات الآخرين ، وهو في تمكين كل فكر من المكتبة والمعهد والكتاب والمسرح والمرقص ودار الموسيقى والغناء ، وهو في حماية الفكر من الضلال والانحراف بالحد الذي لايحد من الحرية .[2] »

ويناقش رأي سارتر الذي يقول في حديثه عن وضع المثقفين في المغرب: « إن المثقفين في البلاد النامية - التي تخضع لنظام بورجوازي - يشكلون السند الحقيقي للأمبريالية إذا هم اندمجوا . وعلى العكس من ذلك تأخذ المشكلة وجهاً آخر في بلاد مثل كوبا مثلاً ، إذ يوجد هناك اتفاق بين الحكومة والمثقفين سواء من أجل الانتقاد أو البناء ، وعلى المثقف بالطبع في هذا النوع من البلاد أن يحتفظ بدوره النقدي ، وإلا فان يكون مثقفاً . إلا أنه بسبب كونه متفقاً مع الاتجاه العام في بلاده فسيكون نقده إيجابياً . والحقيقة أن وضعه ليس بالسهل ،

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠ - ٤١

(٢) « ص ٥٢

فهو يعيش حالة توتر بين رغبته وقبول نوع من النظام ، وضرورة احتفاظه بمهمته النقدية ، وهذا تناقض . ولكنه يجب على المثقف أن يظل مكافحاً ، دون أن يتجرد مع ذلك عن دوره النقدي .[1] » .

ويرى الأستاذ غلاب « أن المشكلة ليست مشكلة اتفاق بين المثقفين والحكومة على نقد بناء أو على سكون هادف ، ولكنها مشكلة الحرية ، فالمثقف مهما يكن الوضع الذي يعيش فيه هو بين أمرين : إما أن يندمج فيفقد حريته ، حرية النقد أو التأييد ، حرية التعبير عن الرأي الذي يؤمن به ، مهما يكن متفقاً أو مختلفاً مع الوضع ، ومهما يكن الوضع ليبراليا أو اشتراكيا ؛ وإما أن يأبى الاندماج فيحتفظ بحريته ، حرية النقد والتوجيه سواء كان هذا النقد لوضع أمبريالي أو ليبرالي أو اشتراكي [2]. » .ويصل هذا التوتر الفكري عند الأستاذ غلاب إلى حد الالتزام ، فهو لا يطالب الأديب وحده بالالتزام ، وإنما يطالب به أيضاً الباحثين في العلوم الانسانية ، من فلاسفة وعلماء نفس واجتماع وتاريخ وجغرافية « معظم هؤلاء يعيشون على هامش حياة بلادهم كأن الحياة لا تعنيهم ، وإنما الذي يعنيهم هو البحث النظري واجترار المعلومات التي سجلها السابقون قبلهم او ابتداع النظريات التي قد تزيد في تقدم البحث العلمي النظري في إطار اهتماماتهم ، ولكنها لا تتصل باهتمامات شعبهم ولا بتوضيح الحياة أمام مستقبل أمتهم والأجيال الصاعدة من بني جلدتهم .[3] » .

وبعد أن يستعرض الأستاذ غلاب الوسائل القديمة لتزييف التاريخ ، يشير الى وسائل التزييف الحديثة ، وهي وسائل الإعلام نفسها حين تكذب وهذه

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤ – ٥٥

(٢) « ص ٥٥

(٣) « ص ٦٣ – ٦٤

الوسائل اصبحت تسرع بتزييف الحقيقة قبل أن تصبح تاريخاً يروى ، يزيفونها وهي بعد طرية كأنها لطراوتها لا تستعصي على أيديهم ، أو كأنهم اذا تركوها فترة من زمان قد تصبح حقيقة أقوى من أن ينخدع الناس لتزييفها أو تحويلها . من أجل ذلك يسرعون فيجابهون حتى شهود الحقيقة بالزيف ، وما دامت وسائل التزييف ممكنة فليسابقوا الزمن حتى لا تسبقهم الحقيقة فتسجل نفسها تاريخيا حقيقياً سليماً .»[1].

ويتمنى الأستاذ غلاب أن تكون لنا المثل التي تقوم عليها العقلية الحديثة « عقلية العمل التي تدفع المسؤول ألا يضيع وقت الدولة ، وتدفع بالموظف ألا يسرق طاقة الدولة ، وتدفع بالعامل ألا يغتصب المعمل ، وتدفع بالفلاح ألا يخون الأرض ، وتدفع بصاحب المال ألا يختزن ماله الذي ينقص بالاختزان ولا يزيد .»[2].

وكأن الأستاذ غلاب ينبه وزارات المال في الدول العربية إلى أن المشاريع الثقافية ليست خدمات استهلاكية بقدر ماهي وسائل إنتاجية ، إذ يقول: « إن الواقع المحسوس يبرهن على أن أي تنمية اقتصادية لايمكن أن تنتج إذا لم يكن هناك وعي كامل بها ، ولن يكون هذا الوعي إلا في ظل تنمية فكرية أي في ظل مقاومة التخلف الفكري .»[3].

ولعل المشكلة الرئيسية التي تشغل الأدباء في ندواتهم وفي مؤتمراتهم في المشرق والمغرب منذ سنتين ، هي موقفهم من قضية فلسطين ، التي أصبحت بعد

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤

(٢) « ص ٨٤

(٣) « ص ٨٧

عدوان ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ واحتلال القوات الصهيونية بعض أراضي الدول المجاورة لفلسطين ، قضية عربية لا من الناحية الفكرية وحسب ، وإنما من الناحية الواقعية أيضاً «فهل كان الفكر العربي في مستوى المسؤولية حينما أصبحت لنا قضية ضخمة كالقضية التي فرضت علينا بخلق إسرائيل وسط الوطن العربي ؟ الواقع أننا كنا دون مستوى المسؤولية بكثير . والمعيار هو الفكر العربي نفسه ، فهو ما يزال أسير تخلف المعرفة ، وتخلف الحرية ، وتخلف السياسة أو الساسة »[1] وذلك هو السبب في نظر الاستاذ غلاب لكل الكوارث التي أصابت الوطن العربي او قد تصيبه .

وحين يتحدث عن الغزو الفكري ، يعترف بأن من المفارقة أن يتحدث عن الغزو الفكري كما يتحدث عن الغزو العسكري أو الغزو الاقتصادي أو الغزو الاستعماري ، كأن الفكر وسيلة من وسائل الغزو أو كأنه سلاح هدم وهو المعروف عنه أنه أداة بناء «ولكن هذه هي الحقيقة المرة . فان الفكر استخدم كسلاح للغزو . لم يكن الغزو من طبيعته ، وإنما الذين استغلوه واستخدموه سخروه كما سخروا المعرفة والفنون التقنية والآلة للغزو . واتخذوها جميعاً كما اتخذوا فرقة عسكرية لاحتلال بلد ما واستغلال ممكناتها وتسخير سكانها واستعباد المواطنين فيها[2]» .

ويؤكد الأستاذ غلاب ضرورة الثقافة للكاتب والشاعر . لأن الشعر ليس إلهاماً كله ، وإنما هو إبداع ، قد يبتدىء من الإلهام ، ثم هو بعد في حاجة الى كل أسلحة المثقف ليكون شعراً حقاً . الشعراء الذين يعيشون على التجارب الذاتية الفارغة من كل أثر للثقافة الخارجية لا يمكن ان يصمد شعرهم الزمن ،

---

(١) المرجع السابق ص ٩٩
(٢) « ص ١٠٦

فالتجربة الذاتية قد تكون منطلقاً لكاتب أو شاعر ، ولكن ما يصيبه في هـذه التجربة الذاتية هو المهم : ما يصيبـه من صور وأفكار وظلال المعلومات ونماذج بشرية تخرج من ذاته لتتلقح مع عالم أوسع ، ثم طريقة التحليل النفسي وطريقة الأداء التصويري ، ثم الفكر الواضح الذي يتناول كل ذلك بعقـل العالم المنظم المستقيم التفكير [1]» .

ويرى الأستاذ الغلاب ضرورة الاعتماد على الثقافة العالمية في نقـد الشعر العربي ، وقد بدأت بالفعل بوادر مهمة لهذه الثقافة النقدية الواسعة حينما اتجـه أمثال العقاد والمازني وطه حسين لنقد الشعر العربي بثقافة مزيج من الثقافة العربية والذوق العربي والثقافة الغربية وقيم الغرب التي يضعها للشعر الحديث بخاصة ، واستطاعت هذه المدرسة أن توجه الشعر العربي الحديث وجهة جديدة بقيم جديدة وآفاق جديدة ورؤى جديدة . وخلف من بعدهم خلف عني الى جانب تقويم المعنى بتقويم الأداة : الحرف والكلمة والفقرة واختيار الوزن وموسيقى الوزن والقافية ، ومناسبة كل ذلك للمعنى . وكان في مقدمة هذه المدرسة الدكتور محمد مندور الذي جمع الى ثقافته ثقافة أجنبية فرنسية وإنجليزية ويونانية ولاتينية ، واستطاع فيما كتب ودرس وحاضر ان يرتفع بمستوى النقد الذي لم يعد استحساناً او استهجاناً معتمداً على الذوق وقبول المعنى او رفضه فحسب ، وانما اندفع الى المزاوجة بين نفسية الشاعر وانتاجه ، بين الكلمة والمعنى ، رافضاً كل ما لا يرتفع الى مستوى الشعر من معان خطابية جماهيرية بألفاظ قارعة ضاربة ضرب الطبول وقرع الصنجات .»[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٤ – ١٢٥

(٢) « ص ١٣٢ – ١٣٣

ويرى الأستاذ غلاب بكاتب القصة أن يلهيه الحدث عما وراءه ، ويضرب أمثلة من روايات نجيب محفوظ التي يستغل فيها الحدث لتشريح الواقع الاجتماعي « كان إذن لا بد من حدث ، وقد يتسم بسمة السرد ، ولكن الحدث غير مهم إلا كما يهم هيكل جسم تملأه النفس والروح والعقل والضمير والإرادة وكل ما يميز الإنسان عن تمثال إنسان (١) » .

ويصور لنا الأستاذ غلاب استغلال الكاتب للشخصيات التي يقابلها في الحياة ، من خلال تجربته الشخصية : « والكاتب القصصي يقابل نماذج بشرية كثيرة ، فلا تلتقي نفسه معهم لقاء طريق ، ولكن لقاء عناق وصداقة ومعرفة أبدية . كم من الأشخاص أصبحوا أصدقائي ، ولم أعرفهم في غير لحظة عابرة مروا فيها بي أو مررت بهم في بلد من بلاد الدنيا ، ولم يكن لي حظ معرفة أسمائهم ولا جنسهم ولا لغتهم ، ولم يتح لي أن أخاطبهم او أسمع صوتهم أو حديثهم ، ولم أرهم بعد اللحظة العابرة ، ومع ذلك ظلوا أصدقاء حميمين لي عاشوا في نفسي وفي قلبي شهوراً أو سنوات ، لأني وجدت فيهم – من خلال اللحظة العابرة – النموذج الذي ظللت ابحث عنه لشخصية قصصية رئيسية أو ثانوية . كان الشخص عابراً ، ولكنه رسب في نفسي فتعمقته ووعيت سره أثناء الفترة الطويلة التي عـــاش فيها صديقاً لي في نفسي ، أحاوره واداوره واكتشف شخصيته ومواهبه ، وأرسم صورة لعمله ونشاطه وأحيا معه الى ان اقيم له مأدبة حافلة ادعو فيها اصدقائي وقرائي للتعرف عليه من خلال قصة او رواية او صورة ادبية (٢) » .

كان الدكتور محمد مندور يبدي تشككه فيما يخص صمود الرواية الى جانب المسرحية . ويعتقد الأستاذ غلاب « ان حجج المطمئنين على مستقبل المسرحية

(١) المرجع السابق ص ١٤١ .

(٢) = ص ١٤٨ – ١٤٩

وجيهة ، ولو ان حججهم على هزيمة المسرح لفنون القول الاخرى أقل وجاهة [١] » .

وهو يخالف المؤلفين العرب الذين يدعون ان الأزمة ازمة قراء ، ويرى « ان القارىء اذا كان يستطيع ان يجد الكتاب او المجلة الواردين من الخارج اقوى من الكتاب او المجلة الصادرين في المغرب ، فهو مضطر ان يستهلك الوارد ويترك الصادر [٢] » .

ويهاجم انحدار الغزل الى ادب الجنس : « ولعلي لا احتاج ان اصور ادب الغزل الأرضي ، ومعظم ما ينتجه الغرب على الأخص – وقد بدأ الشرق يقلد – من رواياته هو من هذا الادب الذي خلا من الرومنطيقية فنزل الى الارض ليبدأ دائماً (وفعلنا الحب) . اقرأ (لوليتا) إن شئت – وانصحك ألا تقرأها – واقرأ (السأم) – وانصحك ألا تقرأه – واقرأ حتى ما كتب سارتر من روايات وما كتبته صديقته سيمون دي بوفوار – وأستثني الجانب الفكري من هذه الروايات واقرأ غيرها من روايات تجد رواجاً كبيراً في السوق العربي – عربية كانت ام مترجمة – لتجد الجنس يطل من بين سطورها وكلماتها وحروفها ، وأحياناً علامات من الاستفهام فيها ، ولن تجد غزلاً ، لن تجد عاطفة انسانية ، ولكنك تجد تجارة الرقيق منصبة في ادب لاهث كأن قلماً مراهقاً خطها جميعاً [٣] » .

يرى بعض الادباء المصريين أن الدولة اذا كفلت الاديب انصرف الى الانتاج ، وتعهد لها بمبلغ من الكتب لقاء مبلغ من المعاش ويناقش الاستاذ غلاب هذا الرأي ، فيعتبر الادباء الذين ينصرفون الى كسب القوت « كالجنود الذين

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٠

(٢) = ص ١٥٧

(٣) = ص ١٦٦

يخرون في معركة حرب لا بد منهم لكسب المعركة ، ولن يكسبوها هم ولو كانوا اقوى الجنود شجاعة واحسنهم فهمـاً لأساليب الحرب واغزرهم مجهوداً لكسب النصر [1] » .

وحين يتحدث الاستاذ غلاب عن اهمية التجربة للأديب ، يقدر أن الأدباء الشباب قد لا يقبلون منطقه هذا « وقد يحسبه بعضهم دعوة الى الرجعية ، وتشبثاً بالشمس وهي على اطراف النخيل ، ونزوعاً نحو الغروب من حيث ينبغي التطلع الى شروق . ولكن لا ينبغي أن تقوى فورة الشباب واعتزازه ببداية تفتحه على الحياة حتى تطغى على نضج هذا التفتح وبلوغه الهدف ، فتجربة الكهل انما هي نتيجة لبداية تفتح الشباب ، ويوم يصبح الشاب كهلاً يستطيع أن يدرك الى اي حد كانت تنقصه التجربة وهو شاب [2] » .

ويضرب على الفشل الثقافي مثل شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم ، الذي اضطر في سبيل القوت الى مدح الكلاوي حاكم اقليم مراكش في عهد الحماية . ولكن شاعر الحمراء في محاولة منه للمحافظة على شيء من الصدق مع نفسه واحداً من ابناء الشعب ، كان يبطن الهجاء في المدح في مثل قوله :

مثل التهامي ما في الأرض من بطل ... شهادة صدرت من اعظم الدول
هـذي فرنسا وذا وسام عزتها ... وأنت انت عديم النـد والمثل
وذا عميـد فرنسا جاء محتفلا ... اعظم بمحتفل بـه ومحتفل
قد قبلت صدرك المحبوب اوسمة ... شتى وذاقت شهي اللثم والقبل [3]

---

(١) المرجع السابق ص ١٧١
(٢) = ص ١٧٤
(٣) = ص ١٨٣

ويتحدث الاستاذ غلاب عن استعادة الفنية القصصية مكانتها في الادب السوفييتي : « لقد أحسست عند هؤلاء تطوراً جديداً في الأداء الفني القصصي ، وهو ناتج فيما يظهر عن تطور الوضع الشيوعي في الاتحاد السوفييتي وتطور الإحساس به . فلم تعد الشيوعية تصارع في الداخل والخارج فينعكس هـذا الصراع على الادب نفسه ، ولكنها اصبحت مطمئنة ، فانعكس الاطمئنان على الادب ، وأخـذ الادباء يعالجون القضايا الشيوعية في جو إنساني وادبي اكثر منه جو الصراع والعنف (١) » .

وفي تحليله لرواية (اللص والكلاب) ، يلفت النظر الى الحاح نجيب محفوظ على أن المجتمع مايزال خاضعاً لطبقتين : « طبقة المترفين التي تفرض الجريمة وتتمتع بما وراء الجريمة ، وطبقة الضحايا التي يفرض عليها وضع خاص فتصبح الجريمة بالنسبة اليها تعبيراً عن رأي ومحاولة لتصحيح وضع ، وبينهما يتصرف القدر فيصاب البريء لأن الثورة لم تصل بعد مداها حتى تصاب المجرم (٢) » .

ويناقش الاستاذ غلاب ولع نجيب محفوظ باستعمال العامية أثناء التصاقه « بالمجتمع الذي يصفه فتتدنى لغته – رغم قدرته الفائقة على التعبير والإجادة في الأداء – الى مستوى الحشاشين او بائعي الخضر على عربة اليـد او المصارعين من المعتدين وقاطعي الطرق والمتاجرين بالعدوان والبطش والقوة ، ومن ثم تطفر الى قلمه كلمات وتعابير عامية . بل انها عامية بحيث لا يعرفهـا الا اصحاب الاختصاصات من أفراد المجتمع الذي يصفه (٣) » .

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٨

(٢) = ص ٢٠٤

(٣) = ص ٢١٠

آفاق عربية (١)

لم يستطع عدوان حزيران أن يصبغ القومية العربية بالتعصب ، بل زادها انفتاحاً على التيارات الإنسانية . وازداد المثقفون العرب ولعاً بالاطلاع على الرأي العام الغربي عن طريق مطبوعاته ، ليتمكنوا من إقامة حوار مفيد معه حول القضية العربية . وفي هذه الظروف ولدت في باريس مجلة (آفاق عربية) باللغة العربية ، وصدر العدد الأول منها في أيار (مايو) ١٩٦٩ . ويرى السيد عبد الكريم غريب مدير المجلة ، في مقاله الافتتاحي ، أنه بمقدار ما كان الحكام العرب يفرّطون قبل النكسة في رجحان كفة العرب على عدوهم ، أصبحوا يفرّطون الآن في حق الأمة العربية إذ يقبلون الحل السياسي .

---

(١) آفاق عربية – مجلة شهرية سياسية اقتصادية ثقافية – السنة الاولى – العدد ١ مايو ١٩٦٩ (تصدر في باريس في مطلع كل شهر – الادارة : عبد الكريم غريب . العنوان 5 rue Joseph Sansbeuf , Paris 8

وفي هذه المعركة المصيرية التي تهدد الوجود العربي، تعود المجلة إلى التراث. فيكتب السيد محمد الصالح قرجومة مقال (ابن باديس ما زال يعيش بيننا) ، فينادي بعروبة الجزائر وإسلاميتها ، وينادي بوحدة الشمال الأفريقي ، ويطلق قرجومة نفس الصيحات التي أطلقها ابن باديس ساخطاً محتجاً على الوضع الذي كانت وما زالت تعيشه (فلسطين الشهيدة) . ولكن تمسك ابن باديس بالتراث لم يكن موقفاً متعصباً ، وإنما كان رد فعل على الاستعمار ووسيلة لخدمة الانسانية.

وإذا كان الرجوع إلى التراث ضرورياً للمحافظة على الوجود ، فإن الاطلاع على المنطق الغربي ضروري ، لا لنعرف موقف الرأي العالمي منا وحسب ، وإنما لنعرف الطريقة التي يجب أن نخاطبه بها . وتوفر علينا (آفاق عربية) عناء مطالعة المجلات الأجنبية ، فتترجم لنا حواراً عقدته مجلة (السياسة الراهنة) الفرنسية «Politique d, Aujourd' hui» بين المستشرق الفرنسي جاك بيرك والسيد ريشار مارينستراس . وليس المهم أن نعرف نتيجة هذا الحوار حول المشكلة الفلسطينية وجذورها التاريخية والحضارية والسياسية والثقافية ، بقدر ما يهم المثقف العربي أن يطلع على الطريقة التي جرى فيها الحوار وعرض فيها الأستاذ بيرك وجهة النظر العربية المعتدلة ، وعرض فيها السيد مارينستراس وجهة النظر الاسرائيلية المعتدلة . ولم يكن من المتوقع أن يقبل مارينستراس - الذي كان يشك في بداية الحوار في عدالة الامتناع عن تسليم اسرائيل - بعدم اعتراف العرب باسرائيل .

فقد أوضح بيرك موقف العرب : « هناك عدم اعتراف معناه إنكار وجود ما يقلقك أو ما يهاجمك أو ما يهضم حقك ، وهو موقف عنيف لم يعد يتخذه أغلب المسؤولين العرب. ولكن هناك عدم اعتراف يمثل سلاماً ديبلوماسياً،

وهذا النوع في رأيي هو عدم اعتراف ذكي . فاني اعتقد أن اسرائيل إذا كانت تظن أنها ستحصل على مواجهة مع العرب تتضمن الاعتراف بها من العرب ، فانها تضع بذلك المحراث أمام الثور . »[1]

ويعتقد بيرك أن مثل هذا الاعتراف لن يجعل الوضع في الشرق قانونياً وحسب ، بل سيجعله شرعياً وأخلاقياً . ويذكر بأن بلادنا ذات أخلاق منزلة وأن شعوبنا ترجع الوطنية عندها إلى عوامل دينية وميتافيزيقية ، فلا يمكن تحقيق شرعية إلا إذا زالت عناصر الظلم .

ويقتنع مارينستراس في نهاية الحوار بوجود المشكلة الأخلاقية في قلب الصراع ، ولكنه يتساءل كيف يمكن معالجة المشكلة دون جميع الأساليب الديبلوماسية . وفي الوقت الذي يلاحظ فيه أن كلاً من الطرفين يأول قرار مجلس الأمن تأويلاً مناقضاً لتأويل الآخر ، يتساءل كيف يمكن التقريب بين وجهات النظر بواسطة رسائل تبعث ، وذلك بعد أن بين بيرك رفض العرب الالتقاء مع الإسرائيليين حول طاولة مثلثة ، على غرار الطاولة المربعة التي تجري حولها المفاوضات بين حكومة فيتنام الجنوبية وحكومة الثورة .

ويرى بيرك – في ختام الحوار – أن الحل في تنصيب الجنسية الفلسطينية والاعتراف بها من الآن فصاعداً في الأراضي المحررة باعتبارها بلداً عربياً مرتبطاً بالبلدان العربية الأخرى . »[2]

وإن صدور هذه المجلة في باريس، واعتمادها الكبير على المثقفين الجزائريين

---

(١) مجلة آفاق عربية – باريس – أيار (مايو) ١٩٦٩ ندوة الآفاق ص ١٥ – ١٦

(٢) المرجع نفسه ص ٢١

في تحريرها ، يتمها بيزة إدراك الحضارة الغربية بعين عربيـة ، وهم الذين سلبت منهم لغتهم ، فمازادهم ذلك إلا تعلقاً بأصالتهم ومخاطبة للاستعمار بلغته . ولكنهم أخذوا من الاستعمار الحضارة التي يدعي أنه يحملها إليهم ، وتحدوا أسلحته لدحرهم به . وباللغة الفرنسية ، وضعوا القضية العربية في مكانها من التيارات العالمية .

وهذا ماعبر عنه الشاعر الجزائري مالك حداد، عندما قال له أحد الكتاب الجزائريين الذين هم من أصل أوربي: «إن وطني هو اللغة الفرنسية»، إذ قال مالك: «إن اللغة الفرنسية هي المنفى الذي أعيشه»[1]. وكذلك اضطر غيره من المثقفين الجزائريين إلى التعبير عن آرائهم باللغة الفرنسية، فكتب الأديب الجزائري كاتب ياسين مسرحياته باللغة الفرنسية. وقد أجرى السيد وحيد النقاش حديثاً على صفحات (آفاق عربية) حول مسرحيته (مسحوق الذكاء) التي نشرت في مجلد (دائرة الانتقام) سنة ١٩٥٩ الذي يجمع آثاره المسرحية كلها. وقد تولى تقديم مسرحية (مسحوق الذكاء) ومعظم اعمال كاتب ياسين على مسارح باريس وبروكسل وبوغوسلافيا وتونس المخرج المسرحي الفرنسي جان ماري سيرو. وهنا نلاحظ نشر (آفاق عربية) لمواد قديمة نسبياً ، فقد سبق لمجلة (المعرفة) أن نشرت رسالة من سعد الله ونوس من باريس، في عدد شباط (فبراير) ١٩٦٨، تضمنت حديثاً مع كاتب ياسين عن مسرحيته (مسحوق الذكاء).

كما أن (المعرفة) نشرت في عدد حزيران (يونيو) ١٩٦٨ ، تحت عنوان (الكتابة على الطين) قصيدة (النبوة) للشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي التي نشرتها(آفاق عربية) في هذا العدد. ولكن النقاش يطرح في حديثه مثلا كل غير التي طرحها ونوس في حديثه مع كاتب ياسين . ونرى أن لمجلتي (آفاق عربية) و (المعرفة) رسالتين متكاملتين ، فمجلة (آفاق عربية) في باريس تمتاز في عددها

---

(١) مالك حداد - الحرية ومأساة التعبير لدى كتاب الجزائر - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦١ ص ١٤

الأول بإطلاع القارىء في الوطن العربي على الرأي العام الغربي ثم بإطلاع القارىء العربي في أوربا على التيارات الفكرية العربية ، بينما تشعر (المعرفة) في الرسائل التي تتلقاها من أوربا أنها تطلع المستشرقين والجالية العربية في أوربا على التيارات الفكرية العربية ، ثم هي تطلع القارىء في الوطن العربي على مايهمه من التيارات الغربية . ونرى المجلتين تهتمان بالقضية العربية ، ومحورها قضية فلسطين التي صعدها عرب شمالي أفريقيا إلى مستوى عالمي حتى آمن الرأي العام العالمي بشرعية المقاومة الفلسطينية . وتشترك المجلتان في نقل آراء بيرك الإنسانية التي تلتقي مع آراء المثقفين في المغرب أولاً والمشرق ثانياً . وقد اكتشفت (المعرفة) قبل صدور (آفاق عربية) أهمية الجالية العربية في أوربا ، بعد أن كان الاهتمام مركزاً على الجالية العربية في أمريكا . وتمتاز جاليتنا في أوربا بصفة الاغتراب الموقت . فبينما اقتصرت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية على السوريين واللبنانيين الذين هاجروا في أواخر العهد العثماني وأول عهد الاحتلال الفرنسي تقريباً ، وكادت ذريتهم تندمج في تلك المجتمعات ، واقتصرت علاقتهم بالوطن الأم على شعر الحنين ، نجد الجالية العربية في فرنسا تتألف في غالبيتها من العمال الجزائريين الذين استفادوا من اعتبار الاستعمار الفرنسي الجزائر قطعة من فرنسا ، فقلبوا الآية وغزوا الصناعة الفرنسية أيد عاملة ، أرخص من الأيدي العاملة الفرنسية ، وتسببت في تقليل ارتفاع أجور الأيدي العاملة الفرنسية . ولكن تناقض الأيدي العاملة الفرنسية والجزائرية أثناء الاحتلال ، إما أن يستمر تناقضاً قومياً بعد الاستقلال ، وأما أن يتحول إلى اتفاق طبقي . وقد انتبهت (المعرفة) إلى أهمية الجالية العربية التي تتمثل في الطلاب الذين يتابعون دراستهم الجامعية في أوربا ، فنشرت رسائلهم – ولا سيا من ألمانيا – عن التيارات الفكرية هناك .

وقد أجرى السيد « ت . أحمد » تحقيقاً بين الطلاب العرب في فرنسا نشرته (آفاق عربية) دفع فيه عنهم مايتهمون به من أنهم أبناء الطبقة البورجوازية الذين تعيش أسرهم في بحبوحة ، فتبعث بهم إلى أوربا بما يفيض من مالها ، وأنهم بالتالي يمثلون مصالح هذه الطبقة ، فيصور التحقيق مايعانونه من شظف العيش ، وما يلاقونه من تمييز عنصري بينهم وبين الأوربيين ، وما يبذلونه من جهد لدحض المزاعم الصهيونية ، بقدراتهم الضئيلة ، رغم سيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام .

وبعد ، فإذا كان الاستعمار جسراً عدوانياً امتد إلينا من الغرب ، فان (آفاق عربية) جسر مددناه بيننا وبين أوربا ، يحتاج الى تعضيد جميع المثقفين له ، ليستطيع أن ينقل إلينا صورة واضحة عن الرأي العام العالمي ، وينقل إلى إخواننا العرب في أوربا خلاصة عن المشاكل التي نعانيها في سبيل التوفيق بين الأصالة والعالمية أثناء دفاعنا عن وجودنا .

مع «آفاق» المغرب

يصدر اتحاد كتاب المغرب مجلة فصلية هي « آفاق » . وفي العدد الفصلي الصادر في شتاء ١٩٦٩ إبحاث وقصائد وقصص تسترعي الانتباه .

فن القصائد ثمة اربع لكل من : احمد الجاطي « السقوط » ، مالكة العاصمي « بئر الصديد » ، الياس قنصل « نعم الحياة » ، ادريس الملياني « اغنيات مبتورة » . تتسم القصائد المغربية الثلاث ، عدا قصيدة الياس قنصل ، بصفات مشتركة هي « الحداثة » ، الى جانب معاناة الإحساس بالضياع في عالم متزاحم حاد . ففي قصيدة الجاطي هذه الابيات الختامية :

في اللحظة الأخيرة

اذا تلاشى الليل في سعلته الضريرة

يرفض ان يغسلني الفجر وان تشربني الغمامة

ملقى وراء السيف والعمامة

ملقى على ظهر الثرى ملقى بلا قبر ولا قيامة

ولعل في ختام قصيدة الملياني الشبه ذاته ، والاحساس ذاته ، والتجربة ذاتها ، وان اختلفت النظرة :

أمتطي جوادك المطهم العنيد

أحمل سيفك المعلق العنيد

فمد لي يديك ، مد لي يديك

يا (مسيح) يامسيح ياصموت .

لعلني أعيش أو أموت ..

ومن خلال نظرة التجانس والتشابه نجد الاحاسيس ذاتها،والمعالجة المتشابهة جداً ، في شعر الكثيرين من شعراء سورية ومصر والعراق ولبنان الشباب .

اما قصص العدد فهي : « انشودة السماء الحزينة » لمحمد زفزاف ، « الصيد والصخور » لمحمد انقار ، وفصل من رواية بعنوان « الطيبون » لمبارك ربيع ، كما ضم العدد قصة مترجمة للكاتب الايطالي « دينو بوزاتي » بعنوان « السلاح السري » . تجمع قصة « انشودة السماء الحزينة » و « الصيد والصخور » وفصل « الطيبون » سمة واحدة هامة هي محاولة رصد الحركة الاجتماعية في المغرب ، وان كانت قصة « الصيد والصخور » تمتاز بالتصوير الفوتوغرافي لحالة « خاصة » أراد لها المؤلف تلك النهاية الفاجعة . وتمتاز « الطيبون » بجرأة متناهية في طرح « القضية الاجتماعية »والوصول إلى حد كشف القناع عن بعض مظاهر الصراع الطبقي في المغرب .

بينما تبقى قصة « انشودة السماء الحزينة » تحمل شحنات الانفعال الذاتية من احساس بالغربة المتناهية في المدينة ، وسط الضجيج الحي الصاخب المختلط .

وفي العدد ذاته دراسة عن « الأدب المغربي والحظة التاريخية » لمحمد برادة : يطالب الكاتب الادباء بتقديم الواقع بعيشه « نعي جيداً التعقيدات البالغة المكثفة لمجتمعنا ، وأن نواجهها بشجاعة وايمان ، والا نحتمي باليأس المستبد أو الأمل الكاذب ... »

ويعالج حسن المنيعي في « غيبة النقد في المغرب » ظاهرة لاتخص المغرب وحده بل تخص معظم اقطار الوطن العربي : الأزمة ذاتها ، غياب الناقد العارف المثقف الموضوعي ، وبالتالي السير في طريق لاتعرف نتيجته بسبب عدم وضوح الرؤية أو القدرة على التمييز . « الأدب العربي بين القومية والكونية » موضوع طرحه اتحاد كتاب المغرب للمناقشة في ندوات ثلاث . عرض هذه الندوات الاساتذة : محمد برادة ، مبارك ربيع ، ابراهيم السولامي . وهذا الموضوع مطروح للمناقشة في ارجاء الوطن العربي كافة . وفي الندوة عرضت مختلف الاتجاهات الراهنة والحديثة في الأدب العربي ، شعراً ونثراً ، وعلى ضوئها تحدد مسألة « القومية ، والكونية » وظواهرها في الأدب العربي . وخلاصة القول ان الاقتباس والتقليد سمتان لاتعطيان الأدب صفة «الكونية» انما هي المعالجة الجريئة الانسانية .

والاستاذ عبد الكريم غلاب يكتب عن المؤتمر ، مؤتمر كتاب المغرب الثاني ،

والنتائج التي وصل إليها المؤتمر ، دارساً الظروف السياسية والاجتماعية ، والبواعث الذاتية وأثرها في الحياة الثقافية بصورة عامة .

وتحمل « آفاق » بعض توصيات المؤتمر في مجالات : الجمود الفكري والزيف الثقافي ، والفكر المغربي وموقفه من القضايا القطرية والقومية والانسانية ، وقضية الحدود بين دول المغرب العربي .

وتكتب الشاعرة مالكة العاصمي دراسة نقدية عن ديوان « الحب مهزلة القرون » للشاعر عينبه محمد الحمري ، محاولة إيجاد مكان لهذا الكاتب في الشعر المغربي الحديث ، ومتوصلة إلى نهاية إيجابية في أن الشاعر سوف يأخذ مكانه بعد قليل من النضج .

اما عن النشاط المسرحي في المغرب ، فيكتب مصطفى البزناسي دراسة نقدية لمسرحية « سيدي ياسين في الطريق » يعرضها ويقيمها . وهذه المسرحية كما يقول الناقد تفضح تصرفات وتعسف بعض السلطات ، وان كانت ضعيفة فنياً ، وانقذها الاخراج المدهش . ومحمد المساري يكتب عن مسرحية « حليب الضياف » لمؤلفها احمد الطيب العلج وهي تعالج مسألة « الكسل الاجتماعي » . ويقول الناقد ان المؤلف اتبع اسلوباً حديثاً في فنية الرواية المسرحية هذه لولا ضعف اللغة « المشكلة » !

وتذكر مجلة « آفاق » لقاء قصاصي المغرب العربي : (الجزائر ، تونس ، المغرب ، ليبيا) . وفي هذا الملتقى عالج القصاصون مشاكل النشر والتوزيع في بلدان المغرب العربي ، ومسألة اللغة ، ازدواجيتها وتطويعها ، وكذلك مسألة الالتزام والمسؤولية . ونشرت « آفاق » توصيات ملتقى القصاصين المغاربة التي تشمل احدى عشرة توصية ، آخذة بعين الاعتبار مسائل : تطور المجتمع ، حرية الأديب ، قضية العرب الأولى . وتقول التوصية الثالثة مايلي :

« يعتبر الملتقى ان العمل القصصي لايتقيد بقواعد مقررة ، بل يقوم على أساس تجارب شخصية متجددة ومبتكرة » .

وتطالب التوصيات الأديب بالالتزام الاخلاقي ، والاتصال الدائم ، وارتباط ادبه بالتربة التي يقف عليها ويعيش عليها ، وبمجتمعه وتراثه العربيين .

إن تشابهاً يصل حد الكمال موجود ، بين المشاكل التي يواجهها الأدب العربي في المغرب العربي ، والأدب العربي في بقية الاقطار العربية ، وان الاطلاع والاحتكاك كفيلان بإيجاد الحلول على الصعيد القومي كاملاً . كما ان الاحساس المشترك بمواجهة هذه المشاكل كفيل بايجاد السبل الملائمة للحلول ، عن طريق المؤتمرات العربيـــة للادباء ، أو الاتصالات المستمرة بين الادباء .





يجري سحب الاصدار العادي السادس بتاريخ ٨ تموز ١٩٦٩